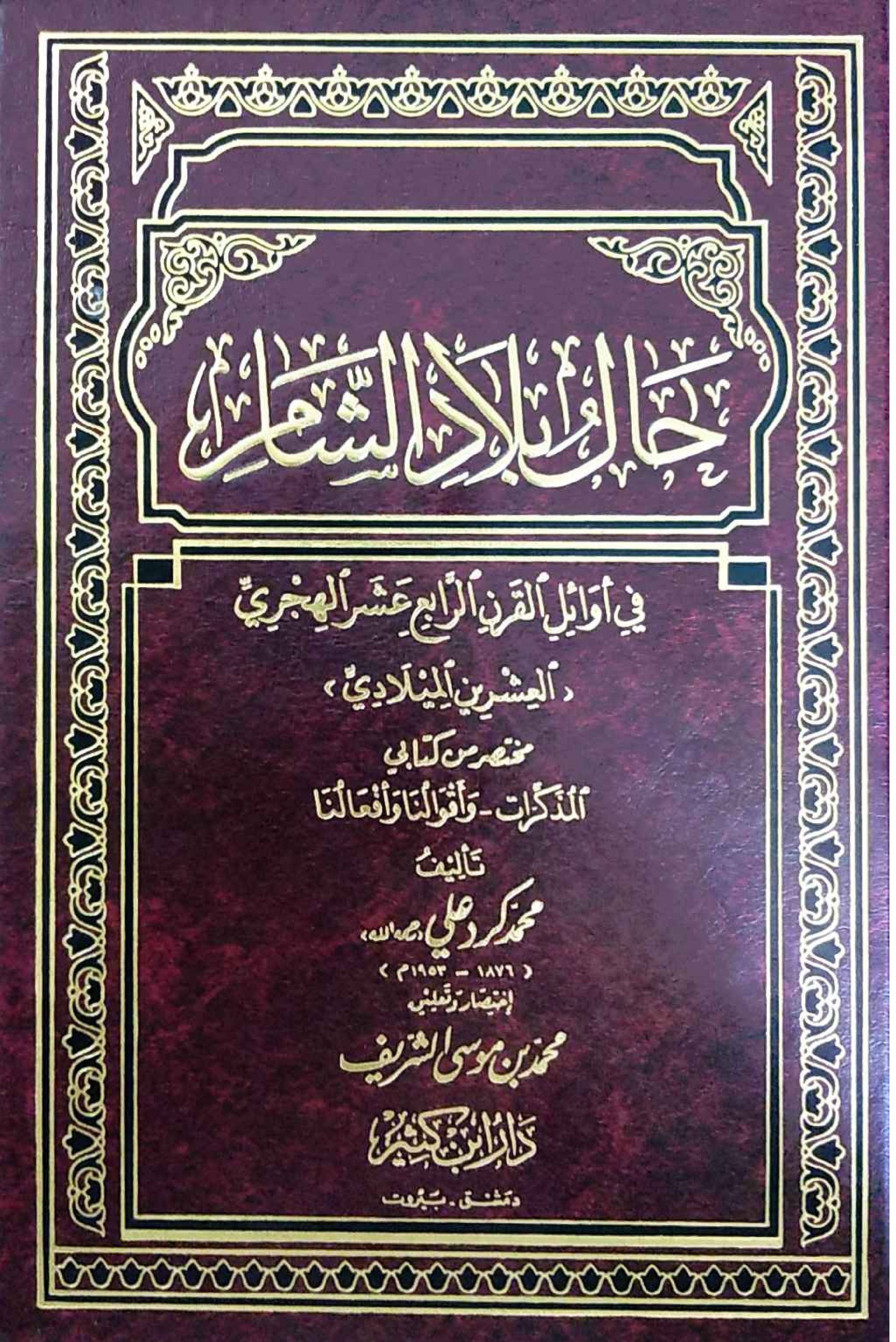

حال بلاد الشام
في أوائل القرن الرابع عشر الهجري
«العشرين الميلادي»
مختصر من كتابي
المذكرات - وأقوالنا وأفعالنا
تأليف
محمد كرد علي رحمه الله
(١٨٧٦ - ١٩٥٣م)
اختصار وتعليق
محمد بن موسى الشريف
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

حال بلاد الشام

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري

«العشرين الميلادي»



الطبعة الأولى

1429 هـ ـ 2008 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : حال بلاد الشام

التأليف : محمد كرد علي (رحمه الله)

إختصار وتعليق : د. محمد بن موسى الشريف

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 250

القياس : 17-24

نوع التجليد : فني

الوزن : 600 غرام

التنفيذ الطباعي : مطبعة القماطي

التجليد : المؤسسة العالمية للتجليد



دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـينا ـ بناء الجـابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

حال بلاد الشام

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري

(العشرين الميلادي)

مختصر من كتابي

المذكرات - وأقوالنا وأفعالنا

تأليف

محمد كرد علي (رحمه الله)

(١٨٧٦ - ١٩٥٣م)

إختصار وتعليق

محمد بن موسى الشريف

دار ابن كثير

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الاستخراب الصليبي «الاستعمار» قاد حملة ضارية على البلاد العربية والإسلامية منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي، واستطاع أن يصل إلى قلب العالم العربي والإسلامي بسرعة غريبة ولم تسلم من براثنه إلا بلدان قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، أما سائر العالم الإسلامي فقد عمه الاجتياح الصليبي، وهذا يدعونا إلى سؤال مهم:

كيف حدث هذا؟

وهل كنا ضعافاً إلى الحد الذي لا نستطيع فيه حتى الدفاع المشرف عن أوطاننا؟

وهل لم يكن عندنا من أدوات الدفاع ما نقف به أمام وجه الطغاة المتجبرين؟!

ما هي القصة الحقيقية لأوضاعنا آنذاك؟

وقد كنت اختصرت ـ فيما مضى ـ كتاباً للمؤرخ الحبشي المصري الأستاذ عبد الرحمن الجبرتي وهو «مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس» ذكر فيه الحملة الفرنسية على مصر، وسرد أحداثها، وبرز في الكتاب شيء عن أوضاع مصر آنذاك المحزنة، وكيف استطاع الاستخراب الفرنسي أن يجوس خلال الديار، وسبب ذلك ظاهر في الكتاب.

ثم وقفت على مذكرات للأستاذ المحقق محمد كرد علي، وهو قد تولى مناصب علمية وسياسية في بلاد الشام في أوائل القرن الفائت، وكان مطلعاً على جملة أمور

جعلت ذكرياته غنية بمعلومات مهمة للقارئ الباحث عن حال أهل الشام آنذاك، وهي صورة تنطبق على حال المسلمين عامة في ذلك الزمان، وكيف مهدت تلك الحال الطريق للاستخراب الفرنسي ليدنس تلك البلاد المباركة، ويعيث فيها الفساد، فرأيت أن أحلل تلك المذكرات، وأنقل منها ـ وهي كبيرة[1] ـ ما يهم القارئ المتطلع للإصلاح أو الباحث عن الأسباب التي أدت بالشام خاصة والعالم العربي عامة إلى هذا الضعف؛ الذي ما زلنا نعيش آثاره منذ حقبة الاستخراب الصليبي إلى يومنا هذا.

ثم وقفت على كتاب له مهم اسمه «أقوالنا وأفعالنا» وهو عبارة عن مقالات ينقد فيها المجتمع، ويبين أحواله، والكتاب ـ وإن كان أقل من المذكرات فائدة ـ مهم في إكمال ما نقص في المذكرات أو بإضافة أمور لم يذكرها في مذكراته. وهذا العمل أحسبه نافعاً لكل الدعاة والمشايخ والعاملين؛ إذ فيه من العبر والعظات الشيء الكثير النافع.

وتقع مذكرات الأستاذ محمد كرد علي في أربعة أجزاء كبيرة، طبعت قديماً في دمشق ١٣٦٧/ ١٩٤٨، وكتابه «أقوالنا وأفعالنا» طبع في مصر بمطبعة البابي الحلبي سنة ١٣٦٥/ ١٩٤٦ في جزء واحد كبير.

❁ ❁ ❁

---

(١) في أربعة أجزاء.

نبذة عن حياة الأستاذ محمد كُرْد علي:

هو محمد بن عبد الرزاق بن محمد، كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة المقتبس، والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتاب.

أصله من أكراد السليمانية ـ من أعمال الموصل في العراق:

ولد بدمشق سنة ١٢٩٣/ ١٨٧٦، وتوفي والده وعمره اثنتا عشرة سنة، فاستقل بنفسه صغيراً، تعلم في المدرسة الرشدية الاستعدادية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، وأحسن التركية والفرنسية.

حفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري.

تولى تحرير جريدة الشام الأسبوعية الحكومية ١٣١٥ إلى سنة ١٣١٨، وكتب في مجلة «المقتطف» خمس سنوات وبها اشتهر، وكان كثير الزيارة لمصر، واستقر بها سنتين، وأنشأ مجلة «المقتبس»، ثم عاد إلى دمشق بعد إعلان الدستور العثماني.

واستمر بإصدار المجلة التي ناوأت جمعية «الاتحاد والترقي» فاتهم بمناوأة الدولة العثمانية، وهرب إلى مصر فأوروبا وعاد مبرأً، وتكرر ذلك أكثر من مرة، وكاد جمال باشا والي الشام العثماني أن يقتله لولا أن ظهرت براءته من قصاصة وجدت في القنصلية الفرنسية، خلاصتها أن كرد علي لا يسير إلا مع الأتراك، مع أوراق أخرى كلها في صالحه عندما فتشت القنصليات في الحرب العالمية الأولى.

ولي وزارة المعارف مرتين في زمن الاستخراب الفرنسي.

له مؤلفات عديدة منها «خطط الشام» ستة مجلدات استخرجه من نحو أربعين كتاباً، و«الإسلام والحضارة العربية» مجلدان، وهو أجل مؤلفاته، و«أقوالنا وأفعالنا»، و«كنوز الأجداد»، وغير ذلك، وتوفي بدمشق سنة ١٣٧٢/ ١٩٥٣ رحمه الله تعالى(١).

---

(١) «الأعلام»: ٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

أهمية الكتابين:

١ـ مذكرات الأستاذ محمد كرد علي كنز مليء بالمعلومات المهمة، وهذا يتجلى في النقاط التالية:

أولاً: أورد أخباراً عن حال الناس في الشام ومصر لا تكاد تجدها في مكان آخر، وفصل هذه الأحوال في جوانبها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية.

ثانياً: أورد أخباراً مهمة عن حال الدولة العثمانية التي كانت ترزح تحت حكم جمعية الاتحاد والترقي الماسونية، ثم ذكر شيئاً عن أحوال مصطفى كمال الهالك الأثيم.

ثالثاً: ذكر بعض أحوال الفرنسيين في فرنسا والشام مما يحسن إيراد بعضه لنعرف حال القوم وأوضاعهم آنذاك، وما صنعوه في الديار الشامية.

رابعاً: ذكر كثيراً من أحوال المشايخ على وجه عجيب، نفهم منه قول الشيخ عبد العزيز الجرجاني الشافعي، رحمه الله تعالى:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما

وكم من مخازٍ تورط بها عدد من المشايخ نوردها مطمئنين؛ لأنها وردت بدون أسماء في الأغلب، ولأنها لا زالت صالحة لوصف عدد كبير من المشايخ اليوم، وذكر كذلك كثيراً من أحوال المتصوفة الجهلة التي سيعجب القارئ كثيراً حال الوقوف عليها.

خامساً: ذكر بعض جوانب اللغة والأدب والثقافة يحسن إيرادها؛ لأن الرجل أديب، وغالب ما جاء به في هذا الباب مفيد.

سادساً: ذكر حال بعض الفرق والطوائف والمذاهب، وأخباراً عنهم مهمة.

سابعاً : ذكر جوانب من قضية فلسطين تستحق أن يورد بعضها للادكار والاتعاظ.

ثامناً : ذكر جوانب من حياة الرؤساء والمسؤولين ينبغي الوقوف على بعضها، والمقارنة بين الأمس واليوم.

تاسعاً : توسع في ذكر المستشرقين وأحوالهم، وبعض ما ذكره يحسن الوقوف عليه، وبعضه الآخر لم يعد ذا قيمة فأهملته.

عاشراً : ذكر كماً كبيراً من أخبار المصريين، وكان يحبهم ويؤثرهم، ويكثر من التردد عليهم، وقد أوردت نزراً يسيراً من ذلك لتعلقه ببعض المباحث التي ذكرتها.

تقويم هذه المذكرات[١] :

الأستاذ محمد كرد علي رجل قوميّ، لكنه لا يعادي الإسلام كغلاة القوميين، وهو رجل وطني ـ إن صح التعبير ـ يهمه مصلحة وطنه، وما أورده في هذه الذكريات ينقسم إلى الأقسام التالية باعتبار صدقه.

أولاً: قسم هو غالب الكتاب ـ مهم، تلمس فيه تحريه الصدق والموضوعية، وعندما يُقارن بما كان معلوماً آنذاك فإنه لا يرد ولا يكذب.

ثانياً : قسم ـ وهو القليل ـ أورده بنَفس قومي أو علماني وليس من منظور إسلامي صحيح، فهذا تخبط فيه كل تخبط.

ثالثاً : قسم ـ وهو الأقل ـ لم يوفق في إيراده، إذ فيه تحامل على عدد من الناس[٢]، أو يعرف الباحث عدم تطابق ما أورده مع الحقيقة.

---

(١) من إنصاف الأستاذ كرد علي أنه أورد في فصل من مذكراته أقوالاً لمن انتقدوا ذكرياته ٤/ ١٣١٠ ـ ١٣١٥، وذلك لأنه نشرها تباعاً فاطلع عليها جملة من المثقفين، ثم أورد انتقاداتهم في الجزء الأخير من ذكرياته، فاطلع عليها إن شئت.

(٢) وهذا الذي عناه الأستاذ خير الدين الزركلي، رحمه الله تعالى، عندما قال عن ذكريات كرد علي: =

وقد اخترت غالب ما أوردته من القسم الأول، وأتيت ببعض الأخبار القليلة من القسمين الآخرين إذا كان فيها فائدة راجحة، مع التعليق عليها بحيث تكتمل فائدة القارئ منها.

وقد أخطأ في أمور شرعية في جوانب من ذكرياته، فلم أورد من ذلك إلا النزر اليسير مما تمس الحاجة إلى إيراده مع التعليق عليه، وقد شطح في تقرير بعض المسائل كالحجاب، والولاء، والبراء، ومدح بعض من جار على المسلمين، وجار على بعض العاملين، وأساء إليهم في مواضع من ذكرياته، ليس بي حاجة لإيرادها ها هنا ولا سردها، وسترها أولى من إشاعتها[1]، والله أعلم.

إيجابيات الأستاذ كرد علي كما يظهر في ثنايا الكتابين:

ويظهر للقارئ هذه المذكرات أو ملخصها الذي أورده ها هنا ولكتابه الآخر؛ أن الأستاذ كرد علي كان قد حباه الله تعالى جملة من الخصائص الجليلة منها:

١ـ قوته في الحق أو ما يرى أنه حق وجرأته:

فهو قوي في إثبات ما يرى أنه حق، ينافح عنه ويدافع، وقد استفادت الأمة من قوته هذه في مواقف عديدة له مشرفة أمام العثمانيين والفرنسيين، وأمام ولاة السوء والمسؤولين الفاسدين، ولهذا أمثلة كثيرة أوردتها ها هنا.

٢ـ نزاهته:

فهو لم يتعرض لمال الدولة، ولم تستشرف نفسه المناصب، بل كان زاهداً فيها ـ

= «كتب بعضها وقد تقدمت به السن فلم تخل من اضطراب في أحكامه على الناس والحوادث، أضف إلى هذا أن حياته السياسية وقفت عند إعلان الحرب العامة الأولى، فقد انصرف بعدها عن المغامرات فلم يدخل جمعية، ولم يعمل في حزب معارض، فابتعد عن روح الجمهور، وتتبع خفايا الأمور»: «الأعلام»: ٦/ ٢٠٣.

(١) وهي موجودة في ذكرياته لمن أراد الوقوف عليها.

في الجملة ـ غير متمسك بها إذا خالفت مبادئه، وهذا شأن عظماء الرجال، فكم هددوه تهديداً خفياً وظاهراً بتنحيته عن الوزارة والمناصب، فما أبه بالتهديد، وأقبل على ما يريد إبرامه وإحكامه، ولهذا أيضاً أمثلة متعددة في ثنايا الكتابين.

٣ـ التزامه ـ في الجملة بدين الإسلام ـ ودفاعه عنه:

وهذا من الأمور الظاهرة في الكتاب، ولقد سبق لي أن ذكرت أنه أخطأ في تقرير بعض القضايا الشرعية، لكنه صاحب غيرة على الإسلام والمسلمين، لا يرضى لهم الذل ولا الدنية، يدافع عن دينه أمام هجمات المستشرقين والمستخربين، وإن كان ديننا أعظم وأوضح من أن يدافع عنه مدافع، لكن هكذا قُدر لنا في هذه الأزمان.

وهو ـ كما ظهر في الكتابين، ونحسبه كذلك ولا نزكيه على الله ـ بعيد عن الكبائر، نافر منها، ونافرٌ من كل الموبقات والخزايا التي تشين دينه وعرضه، رحمه الله.

٤ ـ تعدد موارد ثقافته:

وهذا بالنسبة إلى زمانه يعد أمراً نادراً، فهو قد درس على بعض المشايخ وعلى رأسهم شيخه الأثير لديه الشيخ طاهر الجزائري، وهو عارف باللغات العربية والعثمانية والفرنسية، وكان له مع العربية والفرنسية جولات وصولات في التأليف والاطلاع الواسع.

ومما ساعده في تنمية ثقافته زيارته المتكررة لبلدان أوروبا وللعاصمة العثمانية اسطنبول، فاحتكاكه بالشعوب وثقافاتها أورثه ثقافة عالية وأدباً وخلقاً ظاهراً على سلوكه وتصرفاته وأقواله.

٢ـ أما كتابه «أقوالنا وأفعالنا» فهو مجموعة مقالات كتبها في بيان أحوال المجتمع العربي عامة ومصر والشام خاصة، وهو كتاب جيد، لكنه أقل جودة من ذكرياته، وأخصر، وأخص تناولاً، ولئن سأل القارئ عن إيجابيات الكتاب وسلبياته فأقول: هي نفسها الإيجابيات والسلبيات الموجودة في كتابه ذكرياته، إلا أنها أقل في عددها بسبب صغر الكتاب إذ يجيء في ربع حجم الذكريات تقريباً، ولا جرم في هذا

فالمؤلف واحد، ونظرته إلى الأمور لم تتغير، خاصة أن بين طبع الكتابين سنتين تقريباً، والمؤلف ـ أي مؤلف ـ لا يغير رأيه في سنتين عادة، إنما التغيير قد يستغرق عقداً أو عقدين.

ولقد اخترت من الكتاب ما أكمل به بعض ما جاء في المذكرات من نقص، ولم أضف مبحثاً على ما أوردته في مذكراته.

عملي في هذا الكتاب:

مذكرات الأستاذ محمد كرد علي وكتابه «أقوالنا وأفعالنا» عبارة عن خواطر متناثرة لا يكاد يجمعها جامع، فهو يكتب عن عفو الخاطر كما يعنّ له، والمعلومات المتعلقة بموضوع واحد مبعثرة في ثنايا الكتاب، فعمدت إلى صنع الآتي:

أولاً: قرأت الكتابين واستخرجت منهما المعلومات المهمة، وتركت ما ليس له صلة بواقعنا اليوم ولا يخدم الباحث غالباً؛ مثل بعض التفاصيل عن معاهدات، أو بعض المشاهدات غير ذات قيمة، أو بعض أخبار الدولة العثمانية مما لا طائل من ورائه.

وقد أورد الأستاذ ـ رحمه الله تعالى ـ طائفة من الأخبار والتحليلات كان فيها متحاملاً، كما سبق ذكره، فما كان منها مهماً فإني أورده مع التعليق المناسب عليه.

ثانياً: جمعت النظير إلى نظيره، وقسمت ما اخترته إلى موضوعات رئيسة مثل: الأوضاع الاجتماعية، الأوضاع الدينية، . . . إلخ، ووضعت كل ذلك في مباحث جاءت على الوجه التالي:

المبحث الأول: من أحوال العثمانيين في أواخر أيامهم في بلاد الشام.

المبحث الثاني: سورية تحت الاستخراب الفرنسي.

المبحث الثالث: فساد الولاة والرؤساء.

المبحث الرابع: حال المشايخ والعلماء.

المبحث الخامس: الصوفية.

المبحث السادس: حال نصارى العرب مع المسلمين.

المبحث السابع: الجانب الاجتماعي.

المبحث الثامن: الجانب الثقافي.

المبحث التاسع: الجانب التعليمي.

المبحث العاشر: الجانب الاقتصادي.

المبحث الحادي عشر: الجانب الإداري.

المبحث الثاني عشر: متفرقات.

ثـالـثـاً : رتبت ما أوردته تحت كل موضوع ترتيباً متسلسلاً منطقياً يؤدي بعضه إلى بعض، بحيث يكون كل موضوع وحدة متكاملة مفهومة.

رابـعـاً : كتبت مقدمة في صدر كل موضوع أورده، وربما كتبت تعليقات وتحليلات أثناء إيرادي لبعض المعلومات الجزئية.

خامساً : غيرت أكثر العناوين التي عنون بها لمقالاته إلى عناوين أنسب في ظني.

هذا عملي في كتابيه، وهو ما أحسبه مقرباً لهما إلى جماهير القراء المتعطشين لمعرفة أخبار أمتهم وأحوالها في بدايات القرن الفائت، وأقدر ما جئت به من الذكريات و«أقوالنا وأفعالنا» بقرابة ربع حجم الأصل تقريباً، وما تركت أمراً أحسب أنه مفيد للقارئ إلا أوردته إن شاء الله تعالى وأبرزته، وتركت ما لا يعنيه بحال فلم أورده، وهو جملة وافرة من الكتابين، وحسبي هذا فقيه الغناء، والله يتولاني وأحبابي وأهلي وإخواني بمنّه وكرمه وحلمه، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

البريد الالكتروني: mmalshareef@Hotmail.com

الموقع على الشبكة: WWW.ALTAREEKH.COM

المبحث الأول:

من أحوال العثمانيين
في أواخر أيامهم في بلاد الشام

ذكر الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله تعالى ـ جملة من أحوال العثمانيين في أواخر أيامهم في تركيا وفي الشام، وخلاصة كلامه ما يلي:

أولاً: إن الدولة العثمانية ـ بعد سقوط السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى ـ أمسك بمقاليدها جمعية الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية، وصار الاتحاديون ـ نسبة إلى جمعية الاتحاد ـ مسيطرين كل السيطرة، فأساؤوا جداً معاملة أهل الشام، وكان منهم جمال باشا السفاح الذي أسرف في القتل، وأخذ بالظنة والتهمة، وقسا واشتد على الناس.

ثانياً: قد شاع التنادي بالقومية الطورانية التركية في زمان الاتحاديين والكماليين ـ نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك الهالك الخبيث ـ وتنادى كبار الدعاة إليها لإشاعتها وتثبيتها، وتفضيلها على كل رابطة أخرى.

ثالثاً: صار كثير من المثقفين الأتراك يدعو إلى الإلحاد علانية ـ والعياذ بالله تعالى ـ وأنكروا نسبتهم إلى الأمة الإسلامية، واستهزؤوا بالعرب إلى آخر هذياناتهم التي أوردها في ثنايا ذكرياته.

رابعاً: كان يكره السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله تعالى ـ ويراه مستبداً جائراً، والسلطان رحمه الله مما اختلفت فيه الأنظار، لكنه يظل أعظم سلطان عثماني بعد السلطان سليمان، واستطاع أن يحفظ على الدولة ثباتها ثلث قرن، وبعض ما ذكره عنه الأستاذ كرد علي خطأ محض:

وإليك أيها القارئ الكريم والقارئة الكريمة ما اخترته من كلام الأستاذ كرد علي ـ رحمه الله تعالى ـ مع الحذر بأنه يبالغ في كره العثمانيين، ولا يرى لهم حسنة واحدة على مر زمانهم، وهو في هذا غالٍ ولا شك، وقد غمطهم حقهم، وأخفى حسناتهم، وهذا منهج لا ينبغي لمؤرخ ككرد علي أن يسلكه، وهو في هذا قد سار سير الأستاذ خير الدين الزركلي ـ رحمه الله تعالى ـ حين لم يذكر في موسوعته الرائعة «الأعلام» أي خليفة عثماني!! وكان يكرههم أيضاً، وينبغي أن يكون الإنسان متوازناً ينظر في الحسنات والسيئات، وربما كان لبعض العوامل التي ذكرتها آنفاً أثرٌ في حكمه هذا، والله أعلم.

* * *

من أحوال ملحدي الاتحاديين في الدولة العثمانية:

نبتت نابتة ملحدة في أواخر زمن الدولة العثمانية، وكان هذا بسبب التأثيرات الغربية والشرقية التي كانت تحمل بذور الإلحاد، وتبثها في أغلب أرجاء الأرض آنذاك ـ نسأل الله تعالى السلامة والعافية ـ فتحدث الأستاذ عن هؤلاء هذا الحديث الغريب فقال:

«قال لي الشيخ أسعد الشقيري ونحن في المعسكر في سفح قاسيون أواخر الحرب العالمية(١): أطلعني أمس جمال باشا(٢) على كتاب أرسله إليه من الأستانة(٣) كاتبه الخاص فالح رفقي يقول له فيه: إنه زار منتديات العاصمة بعد أن تغيب عنها مدة، وتعرف إلى رجال (ترك يوردي) (ترك أوجاعي) (ترك درنكي) فرآهم على شبه الإجماع أن دخول الترك في الإسلام قد أخرهم وأخملهم، وأطمع فيهم أعداءهم، جرَّدهم من شخصيتهم، وأبعدهم من قوميتهم، وانتزعهم من حجر حضارتهم، وأنهم

---

(١) أي الأولى.

(٢) سيأتي الحديث عنه لاحقاً.

(٣) أي اسطنبول.

لو ظلوا على عبادة الكواكب كما كان طوران ما وجد أهل الغرب اليوم سبيلاً إلى محاربة دولتهم، إلى غير ذلك من السخف. وإذا صح قول فالح رفقي فيما كان يذهب إليه الأتراك الذين رآهم فهم جماعة الاتحاديين، ومن قال قولهم، وتقرَّب منهم وصانعهم من شبان الترك وكهولهم، ومن هذه الزمرة خرج أناس التحقوا بالكماليين، ومنهم الدكتور رضا نور وزير معارفهم، فإنه صرَّح في كتابه «تاريخ الترك» أن مَرَدَّ جميع ما صار إليه الأتراك من البلاء يرجع إلى إسلامهم، وأنهم لو لم يسلموا لكانوا أرقى مما هم عليه، وأنهم غفلوا عن العلم، فتعلمت العناصر التي كانت تحت حكمهم، وهم لم يعلموا أبناءهم، وكان على العثمانيين ألا يتركوا المجال للعناصر غير التركية أن تتعلم.

وإذا جاز هنا الاستنتاج فلنا أن نقول: إن ما قام به كمال آتاتورك من القضاء على ما رأى الخير في القضاء عليه من أوضاع الترك والإسلام إنما قام عن رأي من كان أمامه من أنصار كثار مالؤوه على هذه الأفكار الغريبة، وكان هو يفكر فيها، وهو طالب في المدرسة الحربية. فطبقها في كهولته وهو صاحب قوة، والشروع مُلْزم كما يقولون، فلما بدأ أتاتورك بدعوته استجاب لها الطامعون في المناصب والمغانم، والناس تبع لصاحب القوة يقلدونه في كل ما يحب، ويسيرون على هواه ويتحببون إليه، وربما غلوا فأعطوه أكثر مما يتقاضاهم. فأصل المسألة إذاً قديم، وهذه الدعوة أقدم من ظهور الاتحاديين أيضاً. وقد أتم الكماليون ما بدأ به الاتحاديون من قبل، وجهروا بالدعوة ونفذوها، ولو عاشت دولة الاتحاديين إلى ما بعد الحرب الكبرى لدعوا إلى مثل دعوة الكماليين، وربما زادوا وأغرقوا؛ ذلك لأن تلك الأفكار كانت مغروسة في طبقة من الفتيان لا يعرفون عن الإسلام شيئاً يذكر، أما عن العرب والشرق فصورة مشوَّهة لم يصور الصليبيون أبشع منها.

كانت الدعاية إلى الكفر بالإسلام، والرجوع إلى عبادة الأصنام، والأخذ بالقومية الضيقة قومية الترك، الخالصة، ظاهرة قبل العهد الكمالي في تركيا، وكان

توفيق فكرت من أكبر شعراء الترك المتأخرين، وهو الذي تنصر بأخَرة، ومات على غير الإسلام، يحفز أرواح ناشئتهم، ويدعوهم إلى التجرد من مشخصاتهم القديمة، ومما قال وهو ما حفظه المتعلمون من الفتيان عندهم:

ساد توركدن بر حكومت قورممن لازم كلير
بشقه قومي يورد مزدن قوغمز لازم كلير
أسكى زماندن وار بزم بر مذهب مخصوصمز
بت برستلكدر بدردن مذهبي مورثمز
جد مزاول جنكيز عاقلدر بزم
جد مز جد الحسينه معادلدر بزم

معناه: علينا أن نؤسس حكومة من الترك فقط
وأن نطرد الشعوب الأخرى من حِجْرنا
نرجع إلى ما كان لنا من مذهب قديم
ورثناه عن أبينا وهو عبادة الأصنام
إن جدنا الأعظم هو العاقل جنكيز
وجدنا من عيار جد الحسين

أي أن شاعرهم دعا إلى ثلاثة أمور: أن يشيد الترك ملكهم من أنفسهم، ويطردوا منه كل عنصر غريب عنهم، وأن يعودوا إلى عبادة الأصنام مذهبهم القديم المتسلسل فيهم، وعليهم أن يفاخروا بجدهم جنكيز العاقل الحكيم، فهو مثل جد الحسين سبط الرسول. يعني أن جنكيز الذي خرب الممالك وأتى على الحضارة، ولم يعهد مثله فاتح سفك الدماء على وجه الدهر، هو مثل رسول الله، وجنكيز هو الذي وضع قانوناً سماه (الياساق) أي المحظور، حلَّل فيه المحرَّم وحرَّم فيه المحلل.

ولم يطبق الترك دعوة توفيق فكرت بالحرف لأنها هذيان وهراء.

وكان العرب وكل من لهم صلات بالأتراك من المسلمين يعلقون آمالاً كبيرة على رئيس جمهورية الترك الحالي عصمت اينونو[١]، لما عُرف من اعتداله وتدينه (وهو مشكوكٌ في جنسيته) ويعتقدون أنه يعدّل بعض التعديل في دستور الترك، حتى تنزع الفوارق من بينهم وبين جيرانهم الشرقيين، فإن قانون سويسرا صعب تنفيذه في مجتمع متأخر كالمجتمع التركي. والقوانين لا تخلق الأمم، والأمم تخلق القوانين[٢].

كانت العرب أكثر العناصر تأذياً بالدعوة التركية، ذاك لأنهم أصحاب هذا الدين الذي شكا من انتحاله أولئك المارقون، وأصحاب المدنية التي عاشت دولة الترك ببقاياها، واحتقار لغة العرب وقوميتهم من النغمات القديمة، وإليها أشار الشاعر الهجاء أشرف بك لما غضب أحد أدبائهم أديب بك على ما عبثت به يد المراقبة في ديوانه بقوله:

أصولدندر چيزرلر هر أثردن برطاقم يرلر

أديبم صانمه كيم ساده سنك ديواني چزمشلر

كچن كون أنجمنده يوق إيمش حيرت

بتون هيئت عربجه بر كتاب ظن أيليوب قرآني چيز مشلر

ومعناه: من الأصول أن يحذف من كل تأليف عدة أماكن

فيا أدبي لا تظن أن ديوانك فقط هو الذي حذفوا منه

حدث أن كان منذ أيام حيرت (أفندي) متغيباً عن المجلس (مجلس المعارف)

فظنت الهيئة كلها القرآن كتاباً عربياً فحذفته[٣].

---

(١) هو خبيث كسلفه الخبيث مصطفى كمال، وقد هلك عصمت سنة ١٩٥٠ .

(٢) هذا من هنات الأستاذ محمد كرد علي، وهل لنا قانون معشر المسلمين سوى الكتاب والسنة؟!

(٣) المذكرات: ١/ ١٦٦ ـ ١٦٨.

من أحوال جمال باشا السفاح، والقائد أنور باشا وأضرابهما من الاتحاديين:

تولى جمال باشا ـ الذي اشتهر بالسفاح لقسوته وسفكه للدماء ـ ولاية الشام أثناء الحرب العالمية، فبالغ في القسوة، وأخذ الناس بالظنة، وكان سبباً مباشراً لكراهية كثير من الناس لحكم العثمانيين وتمنيهم الخلاص منه، وهو كان اتحادياً؛ أي من جماعة الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية التي أسقطت السلطان عبد الحميد رحمه الله تعالى، وقد هرب جمال باشا من الشام بعد هزيمة العثمانيين والألمان في الحرب العالمية الأولى، والعجيب أنه كان صاحب غيرة دينية وحرص على الإسلام لكنه قاس ظالم، سياسي لا يتورع عن سفك الدماء مقابل حمايته للدولة من أي خطر ولو موهوماً، وإليكم بعض ما قاله فيه الأستاذ كرد علي رحمهما الله:

«سقطت القدس أو كادت بأيدي الحلفاء، فرأى جمال باشا أن يبادر إلى مغادرة سورية على ألا يعود. وقبل سفره ألقى خطاباً في دعوة أقامها في دار الحكومة بدمشق لأكثر من مئتي شخص، قال فيه: إن طالعه قضى عليه أن يعهد إليه إنزال العقوبات بأعداء الدولة، فكان هو الذي تولى في الآستانة قتل جماعة صالح باشا (ابن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي ومن أصهار البيت السلطاني) كما قتل في سورية من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون في سبيل سلامة الدولة، ونسي أن يذكر أنه قتل كذلك خلقاً في ولايتي أطنة وبغداد لما وليهما. وكان يستحل غالباً إهراق دم كل من يعتقد أن في قتله حياة الدولة، ويحب كل من يسهل له ذلك.

وقيل: إنه سمح للضباط خلال الحرب أن يقتلوا بالقرعة للإرهاب من يشاؤون من الجند، بدون محاكمة ولا تحقيق، ولا أعتقد صحة هذا الخبر. وعزم مرة على قتل أحد المهندسين لأنه أمره أن ينجز طريقاً في مدة عينها هو له فما أتمه، ولم يعف عنه إلا لكونه تركياً يافثياً، فتوسل إليه أصحابه الأتراك أن يبقي عليه، فعفا عنه بعد اللتيا واللتي.

ولما غادر جمال باشا أرض الشام اعتزلت رئاسة تحرير جريدة الشرق، فبعث لي

جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير أكبر القواد بعد قائد الجيش الرابع، وكان معروفاً بحسن السيرة والناس يحبونه، أن أعود إلى ما كنت عليه زمن جمال باشا الكبير في جريدة الشرق، وهو يعطيني راتبي ريالات فضية لا ليرات ذهبية، إذ نضب الذهب من خزانة الجيش، فقلت للواسطة: ليست المسألة مسألة فضة وذهب، المسألة أني استعبدت مرة واحدة في حياتي، ولا أحب أن أستعبد مرة ثانية، استعبدني جمال باشا الكبير لأنه حماني منذ وافى هذه الديار من دسائس الدساسين، وأنا أكره الاستعباد مهما كانت صورته، ولست كفوطة الحمام أنتقل من جسم إلى جسم.

ثم تعاقدت مع بعض التجار وأخذت مبلغاً من المال أتجر به في ألمانيا والنمسا، وسافرت إلى الآستانة، وزرت جمال باشا الكبير فأهَّل وسهَّل كثيراً، وسألني عن سبب مجيئي فذكرته له فقال: وأنت تشتغل بالتجارة؟ كان عليك يا صاحبي أن تمارسها منذ عشرين سنة، ولو فعلت لكنت اليوم غنياً. وأوعز إليّ أن أقابل سيفي بك أحد أمناء سر أنور باشا، وكيل القائد العام ووزير الحربية، فقابلته مرة ثم وعدني أن أقابله مرة ثانية فجئته، وحجبني ربع ساعة فتركته وانصرفت. فسألني جمال باشا بعد أيام عما تم بيني وبين سيفي بك فقلت له: قابلته مرة، وكان في الزورة الثانية على ما يظهر مشغولاً فما أذن لي بمقابلته، فكلمه بالهاتف ومما سمعته يقول له إن «كرد علي» لم يخدم في سورية جمال باشا، بل خدم الدولة العثمانية، ومن العار أن يقول القوم هناك إننا غيرنا سياستنا. وسمعته أيضاً يعبث بسيفي، ويرجوه متهكماً أن يقبلني للمثول بين يديه إذا جئته، وأن يتنازل فيكلمني، فإني أحسن الكلام، وقال أشياء في مدحي أغرق فيها جداً حتى عرقت خجلاً. وكانت النية أن يعطوني شاحنة من الورق للجريدة والمجلة وسبعة آلاف ومئتي ليرة عثمانية ورقية مخصصات سنة كما كنت آخذ في جريدة الشرق، وأن أذهب وأنصرف كما أشاء في سورية.

ولما سقطت دمشق هرب جمال باشا وجماعته من الآستانة، وكان أرسل يطلبني

إلى مواجهته قبل سفره بثلاثة أيام، ولم تصلني دعوته إلا بعد أن غادر الآستانة بثلاثة أيام، وما أدركت ما كان يقصد من مقابلتي له، وقد قال لي لما سقطت دمشق: إياك أن تعود إليها، فإن الشريف حسيناً يقتلك، ثم لقيت جمال باشا المرسيني على الجسر في الآستانة، فسألني عن حالي فذكرت له ما كان ينويه أخوه جمال باشا الكبير فقال: تعال نذهب معاً إلى وزارة الحربية وأنا أعرف سيفي بك فتأخذ ما وعدت به، فاعتذرت لأني لم أر من الحق أن آخذ معونتهم بعد سقوط دولتهم.

شخص أنور باشا وكيل القائد العام إلى سورية وزار الحجاز، فقال للشيخ أسعد الشقيري في طريق المدينة، وكان جمال باشا يرافقه في تلك الرحلة: إيه يا أسعد أفندي دبرت أنت وجمال باشا مسألة (كرد علي) وأنقذتماه من القتل، وما علمتما أن (كرد علي) بعد الحرب لا يكون غير (كرد علي) قبل الحرب. فأجابه الشيخ: من أنا حتى آتي ما تعزوه دولتكم إليّ، سلوا أخاكم جمال باشا عما ظهر للرجل، وعما يعمل الآن، فأجاب جمال باشا: لم أُغض عن (كرد علي) قط، وقد استبان لي أنه كان صادقاً للدولة، كما ثبت بأوراق القناصل، وإذا لم يقنعك قولي فإني مرسل الآن برقية إلى الديوان العرفي في عاليه، وعنده أضابير المتهمين بالسياسة، ليرسل لنا إضبارته، فتعرف إذا كان داخلاً في جمعية سرية لقلب الدولة، أو له مدخل مع إحدى الدول صاحبة المطامع في سورية أو غير ذلك من الجرائم، وتعرف أنه عرضت عليه رشاوي عظيمة من دولة غريبة فأبى أخذها وفضل خدمة الدولة العثمانية، ثم إنه اليوم يسير معنا قلباً وقالباً.

فإذا كانت السياسة التي اتبعتها في سورية لا تعجبكم فأنا أعود إلى الآستانة، وترسلون إلى هنا من ترضيكم سياسته. وعندها أورد الشيخ أسعد آية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وترجمها بالتركية، وقال: إن حسنات (كرد علي) الحاضرة تمحو سيئاته الغابرة، فقال أنور باشا: يا شيخ أنا أمزح وأعترف بحسن سياسة جمال باشا.

والغالب أن جمال باشا حاذر من شر يلحقني من صاحبه أنور باشا، فأوعز إليّ

أن أكتب له رحلته إلى المدينة المنورة، وإن لم أذهب معهما، على مثال ما كتبت رحلة الوفد السوري إلى دار الخلافة وجناق قلعة، وبذلك استمال قلبه إليَّ في الظاهر، وكان الأمير شكيب أرسلان من جماعة أنور يحميه ويحبه، وكنت أنا من أخصاء جمال يحبني ويحميني، والله أعلم بنيات الاثنين نحونا، وأنا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحب، وما حبهما لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما وللدولة.

أكد لي بعض العارفين أن أنور باشا كان إذا أراد قتل إنسان، وقام إلى الصلاة وأتم صلاته، ورأى أن أمره لم ينفذ، يأمر بقتل من أمره بالقتل وتلكأ، ثم يقتل الأول الذي كان قضى بقتله، وكان في آخر أيام الحرب يعذب في سجن إستانبول نحو مئة ضابط، لأنهم قالوا إن الاستمرار على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الأنفس والأموال، وذلك بأنواع من الإرهاق لم يروا أفظع منها في محكمة التفتيش الديني في العصور الوسطى.

وكان أنور باشا يتظاهر بالدين والعفة، ويعمل له في مزارعه أربعة آلاف جندي في آخر سني الحرب، والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يومئذ، وهذه المزارع اغتصبها من رجل رومي فيما أحسب، وصودرت منه يوم سقوطه فافتقر عياله.

واشترك أنور باشا ذاك التقي النقي، مع جمعيته جمعية الاتحاد والترقي[1] في تجارة السكر فربحوا عشرات الملايين من الليرات، في زمن كان فقراء المملكة العثمانية، وكل أهلها فقراء، يحرمون السكر أربع سنين، وبيعت الأوقية منه عندنا بريال، بمعنى أن الرطل الشامي كان يساوي ليرتين عثمانيتين وربع ليرة ذهباً، ولا أعلم أي دين هذا وأية أمانة؟!

---

(١) الماسونية اليهودية التي كانت تحكم الدولة العثمانية في آخر أيامه حكماً فعلياً، والسلطان ليس بيده شيء بل هو صورة.

أما صاحبه جمال باشا فقد ذكر لي عبد الرحمن باشا اليوسف، أنه ذهب ذات صباح يودع عقيلة جمال باشا في المحطة، وكانت مسافرة إلى سويسرا، فرأى أربعة جنود يرفعون إلى القطار حقائب ثقيلة، يلهثون كلما حملوا واحدة منها، وكانت عشر حقائب، فذهب به الظن إلى أنها ذَهَبٌ لما شاهد من ثقلها، وقد رأينا عيال جمال باشا بعد الحرب يشتكون الفقر.

فهل استحال ذلك الذهب ـ إن صح أنه ذهب ـ في مصارف ألمانيا ماركاً ألمانيا من الورق أم ماذا؟

وكذلك كان حال بعض رجال الدولة استحلوا الاتجار بهذا الضرب من الاحتكار في أشد أوقات الضيق التي أصيبت به الأمة، فاغتنى كثير منهم في الحرب بمثل هذه الوسائط، وما بقي لهم ولا لذراريهم ما جمعوا»(١).

وذكر الأستاذ محمد كرد علي جملة مما صنعه جمال باشا السفاح في دمشق، وشدته، فقال:

«قتل الاتحاديون ثلة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن، حاسبين الحرب العامة فرصة لا تتاح كل حين للخلاص منهم. قتلوا نحو ثلاثين رجلاً ما أظن يستحق القتل منهم غير أفراد قلائل، هذا إذا تسامحنا في فرض العقوبة. مثل ذنب من قال (شفيق بك المؤيد) لوكيل فرنسا في القاهرة: اقطعوا بجيوشكم الخط من الإسكندرونة، ونحن في الداخلية ننادي حالاً باسمكم، هذا رأي، إن صح أنه قاله، والقانون لا يقتل إلا من تشبث فعلاً بالشروع بالعمل، وظهرت نتيجة تشبثه إلى حيز الوجود(٢)».

---

(١) المذكرات: ١/ ١٦٩ ـ ١٧٣.

(٢) هذا الكلام غير صحيح؛ إذ تحريض الكفار على المسلمين ودعوتهم للدخول في ديارهم من كبائر الذنوب التي يعاقب عليها بالعقوبات التعزيرية الشديدة.

وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مذكرات صديقي الأستاذ فائز الغصين، وهو ممن اشتغلوا بالمسألة العربية: إن العرب ألفوا ثلاث جمعيات سرية عقيب انتشار القانون الأساسي (سنة ١٩٠٨)، وحرب الطليان في طرابلس وبرقة مع العثمانيين، وهي جمعية العهد ألفها ضباط العرب مثل سليم الجزائري وعزيز علي ونوري السعيد وأمين لطفي الحافظ، فدخل فيها أكثر الضباط العرب، والثانية ألفها طلاب المدارس العالية في الآستانة وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل، والثالثة ألفها عبد الغني العريسي، وهي التي أظهرت نشاطاً عظيماً في الحرب العالمية، ويقال إنها إنكليزية النزعة. وقد قتل الترك معظم رؤساء تلك الجمعيات.

ولقد حاولت أن أستعطف القائد العام على المجرمين السياسيين، فالتمست من فضله العطف عليهم، في محاضرة ألقيتها في سينما جناق قلعة بدمشق، محل دار الندوة الآن، وذلك عقبى عودتي من دار الملك مع الوفد السوري (١٩١٥) وتوسلت إليه أن يرحمهم ويرحم عيالهم، فاستدعاني من الغد فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا، وقال لي: إذا كنت تريد رضا الباشا عنك فلا تذكر السجناء في «عالية» بخير ولا شر، وأنت هل يذكرك أحد بسوء، فما لك ولهم؟ فالتزمت الصمت بعد ذلك.

أما صديقي الشيخ أسعد الشقيري خطيب الجيش، ونديم أحمد جمال باشا، والمقرب إليه أكثر مني بكثير، فإنه ما ترك باباً يمكن الدخول منه إلا ولجه، ليرق قلب القائد العام عليهم، وخاب سعيه في كل ما تذرع به، ومن ذلك إشارته على بني البكري أن يقيموا مأدبة لجمال باشا في قصرهم في قرية القابون، وكان الأمير فيصل بن الحسين في جملة المدعوين، وهناك خلا الأمير مع الشيخ أسعد بجمال باشا، ورجاه إصدار عفوه عنهم أو حبسهم أو نفيهم؛ فرد قوله.

وكذلك تقدم الشيخ أسعد في بيروت، وقبّل ركبة القائد جمال باشا في دار عزمي بك والي بيروت، يتوسل إليه أن يجعل أولئك السجناء في قلعة يموتون فيها بآجالهم،

وأن يرجع عن قتلهم لما في القتل من الشؤم على الدولة، فتجهم القائد للشيخ الشقيري، وغضب عليه غضباً شديداً، وذلك بمشهد من عبد الرحمن باشا اليوسف، وهو الذي قص عليَّ ما وقع، وقال له: أنت شيخ لا تعرف السياسة فلا تتعدَّ طورك، وأنا أعرف أن مثلك إذا خدم مثلي خدم آماله وأفكاره، وأنت تحاول أن تتدخل فيما لا يعنيك، كأنك تقصد أن تلقنني ما لا أعلم، وهذه مسائل تتجاوز دائرة تقديرك، فكف عن تعجيزي بذكر هؤلاء المعتقلين.

ودخلت على الشيخ الشقيري في الفندق لأودعه، وأنا مسافر إلى بيروت فرأيته مصفر الوجه، كأنه لم يرقد منذ أيام، ولما رآني دمعت عيناه وبكى، وقال لي: يا فلان شنق الجماعة. ومن الغد شنقوا بالفعل في مدينتي دمشق وبيروت. وهذا أهم رعيل شنق. وأغرب من هذا أن بعض الأردياء يتهم مثل هذا الشيخ بأنه ممن زين لجمال باشا شنقهم، وهو لم يترك حيلة لخلاصهم إلا تذرع بها من تلقاء نفسه، ولوجه الله.

كان جمال باشا على ما يظهر يكره الوساطات، كلمته ست مرات أنا والدكتور شهبندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك، فكان جوابه لي ولشهبندر آخر مرة يخاطبني: هل تعرف كل شيء؟ فقلت: كلا، قال: إن رضا الصلح الذي تتوسط له قد أتى أمراً لو أتاه ابني لأغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة، ثم أقف أبكي عليه بصفته ابني (علمت بعد سنين أن الرجل كان يتهم بالدعوة لإنكلترا) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا المتهم، ومع ذلك رأينا أن تعجيز الباشا بالعفو عن الرجل وابنه قد أفاد، فلم يقتلهما كما كانت نيته، واكتفى بنفيهما إلى آسيا الصغرى، وكان تساهله أكثر مما كنا نطلب منه، وما كنا نتطلب إلا حقن دمهما ولو بالسجن سنين.

جئت جمال باشا ذات يوم مودعاً إلى بيروت، وكان قبل يوم صلب فيها يوسف الهاني من أغنى تجارها، لتوقيعه بياناً بطلب فرنسا للاستيلاء على هذه الديار. فسألني الباشا: ماذا يقول القوم عني الآن في بيروت بعد قتل يوسف الهاني؟ فقلت له وأنا أتبسم: يقولون إنهم توسلوا إليك بأنواع التوسل، وأقاموا لك أجمل المآدب،

وأتوك بأجمل النساء يضرعن إليك، وما تركوا شيئاً يعتقدونه أنه يسرك، ويؤثر في عواطفك إلا فعلوه، ولا إنساناً يعتقدون أنه ذو منزلة عندك إلا رجوه أن يتوسل إليك، ومع كل هذا شنقته، شنقته، شنقته، فضحك وضربني على كتفي وقال لي: اذهب بسلامة الله.

ولقد بليت من هذا الرجل بمصيبة، فكان يطلبني لمقابلته أحياناً فأزوّر في نفسي جواباً أو جوابين أقدر أنهما يجزئانني فيما يسألني، فيتفق سؤالي في غير ما قدرت، فأجيبه في الحال جواباً كجوابي له عن ابن هاني القتيل، يسره ولا يضرني، فيعلم أن كلينا عالم بالترّهات. وسألني مرة من هم المشار إليهم من رجال دروز جبل حوران، فذكرت له منهم من كان اسمه على خاطري فقال: أظن أنه فاتك غيرهم، فاستأذنته وسألت من هو أعرف مني برجال الجبل؟ فكتب إليَّ جريدة بأسمائهم دفعتها إليه. وكان ينوي أن يستدعيهم لأخذ ما يلزم من قراهم من الحبوب للجيش.

ولما عدت في السنة الأولى مع الوفد كان الدكتور شهبندر قد ركن إلى الفرار لأنه قرأ في وجه جمال باشا الغضب، وأحس بأنه غادر به لا محالة، لما كان ذاك الجاسوس السافل قص عليه خبر اجتماعنا الأخير في قرية المزة قُبيل سفري، وما قال شهبندر وما قلت أنا: فسألني جمال باشا عن شهبندر، وقال: إنه بلغه أنه مختبئ في دمشق وإني أعرف مخبأه، فقلت له: بلغني أنه قد فر إلى جهة غير معلومة، ولا أعرف غير هذا. فقال: أنت تعرف أمره وتكتم عني، إنه خرج من البلد ثم عاد وهو الآن متوارٍ عن الأنظار.

فأكدت له أني لا أعرف شيئاً عنه، فاستغرب ذلك، ولم أنج من إلحاحه في استنطاقي حتى قلت له بعد أخذ و ردّ: إن شهبندر ليس بشجاع فيخرج من هذا البلد ويعود إليه، وهو أيضاً ليس بمجنون يكتب له أن ينزع يده من القفص ثم يقف ببابه يتوسل بالرجوع إليه. وبعد أيام عاد فسألني عن شهبندر فأجبته أني لا أعرف إلا أنه هرب. فقال: وهكذا تحقيقاتي الأخيرة. فقلت له: الحمد لله على أني لم أكذب.

وسؤال الباشا عن الدكتور شهبندر غريب، فإنه يعلم ما بيني وبينه من صداقة، وكان عليه أن يعرف خلقي، وقد رأى أنه ما سمع مني كلمة تضر أحداً، ولا ذكرت أمامه إنساناً بسوءٍ، ولا أفشيت سراً عرفته، طول مدة ارتباطي به، فكيف كان يريدني أن أدله على مخبأ الصديق شهبندر حتى يقتله، وكنا يومئذ نستر على أعدائنا، ونعمل لهم ما استطعنا من خير[(١)]».

❁ ❁ ❁

جمال باشا والغيرة على الإسلام:

كان جمال باشا ـ على شدته وقسوته ـ صاحب غيرة محمودة على الإسلام والمسلمين، ومن ذلك ما ذكره الأستاذ كرد علي قائلاً: «سأل صديقي الأستاذ كمال ملص صاحبه وصاحبي الشيخ أسعد الشقيري: هل كان جمال باشا على شيء من الشعور الديني؟ فأجابه: نعم، كان على جانب بارز منه، وقصَّ عليه قصة تشعر بغيرته على المسلمين قال: أمر جمال باشا مرة أن يرسل من المنزل إلى دار مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا مقداراً من الأرزاق ومبلغاً من الورق المالي لإعداد ضيافة عظيمة في داره، يدعو إليها أعيان بيروت على اختلاف طوائفهم. وحضر الباشا الدعوة، ونزل صاحب البيت مع المدعوين لاستقباله في مدخل الدار، فلما وقعت عين جمال باشا على المفتي قبَّل يده، وأشار إليه بالصعود ثم أشار إلى الشيخ أسعد الشقيري أن يلحق به، ثم صعد هو وراءهما، حتى إذا جلس الجمع كان على يمين القائد الشيخ المفتي وعلى شماله الشيخ الشقيري، وعند انتهاء المأدبة عاد الباشا وقبَّل يد المفتي شاكراً له حفاوته. وركب الباشا مع الشقيري عائداً إلى منزله وقال له في الطريق: إني أعرف من هو مصطفى نجا وما رفعت شأنه اليوم إلا لأرفع بذلك شأن المسلمين.

---

(١) المذكرات: ١/ ١٥٤ ـ ١٥٧.

والحكم على ما صنعه جمال باشا من قتل لا يتصور ها هنا، وهو بحاجة إلى دراسة عميقة لحال هؤلاء المقتولين وما قاموا به، وإلى الله ترجع الأمور.

ووقع لي أن ذكرت لجمال باشا أن خالد بن الوليد لما جاء دمشق فاتحاً ركز العقاب راية الرسول في رأس الثنية المعروفة بثنية العقاب (الثنايا) اليوم المطلة على الغوطة والمرج من الشمال، وهي ذاك الجبل الهرمي الشكل الصعب المرتقى، وحارب بني غسان في يوم فصحهم، فكتب له النصر عليهم.

وقلت له: إن مما يحفظ هذه الذكرى العظيمة إقامة مسجد في قمة ذاك الجبل العالي، فوعدني بذلك، ثم راجعته مرة ثانية فأثنى على هذه الفكرة، وقال إنه لن ينساها، ووعد بأن يقوم بإنجازها على ما أريد بعد الحرب.

ولحظت منه غيرة دينية وشعوراً إسلامياً في أحاديثي الكثيرة معه، ولكنه كان في المسائل السياسية لا يغفر لأحد زلة إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية[١].



كره بعض الأتراك للعرب وسعيهم في تجهيلهم:

بدت كراهة الأتراك للعرب، منذ فتح العثمانيين الولايات العربية: أمة غالبة من مصلحتها إخفات صوت الأمة المغلوبة[٢]، وأمة مغلوبة تبكي مجدها الضائع، ولا عزاء لها إلا ما تردده ألسنة بنيها من عبارات الأسف على ماضيها، وكان الترك منذ أول فتحهم استأثروا بالمناصب الرئيسة في السياسة والإدارة والقضاء والجندية، وخرجوا من ديار العرب بعد أربعة عصور من حكمها، وما أشركوا العرب في سلطانهم إشراكاً فعلياً، وربما كان بعض أفراد من العرب استتركوا وتركوا جنسيتهم، وذابوا في البوتقة التركية، ودخلوا مع الأتراك على أنهم منهم، ولا أذكر أنهم أدخلوا

---

(١) «المذكرات»: ١/ ١٠٩ .

(٢) مراعاة العثمانيين مصالح دولتهم لا يقتضي أنهم يكرهون العرب، وإنما الكراهية الحقيقية بدت منذ تولى الاتحاديون الماسونيون مقاليد الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد، وتعمقت بعد تولي الهالك أتاتورك، وسيناقض كلامه هنا الكلام الذي سيورده في الفقرة القادمة.

في وزاراتهم غير ثلاثة من أبناء العرب، وذلك في آخر أيامهم، ولم يوسدوا إليهم سوى وزارات لا شأن لها: الزراعة والأوقاف.

كان السواد الأعظم من الترك سكان آسيا الصغرى يرون حب العرب من القربات، مذ كان للترك ذكر في آسيا الصغرى، وهم على ذلك إلى اليوم.

والذي رأيته أن حب العرب ظاهر فيمن كان على الفطرة السليمة من الترك.

ويقلُّ بين طبقة المتعلمين منهم، أو من كانوا أقرب إلى المشتغلين بالحكم.

حدثني صديقي إلياس بك مطران، وقد رأيته في بيروت قبل أن تضع الحرب العامة أوزارها، وكان جمال باشا نفاه إلى الأناضول في جملة من أبعدهم من أهل سورية، قال: وأنا أسأله عن حاله في منفاه: إنه ممتن جداً من هذا النفي ويشكر جمال باشا عليه، لأنه عرف الشعب التركي حق المعرفة، وثبت له أنه شعب قلَّ نظيره بأخلاقه وميزاته، وأن ما رآه من لطف الترك وطيب قلوبهم يعجز لسانه عن شكره، قال: ولقد ودوا مدة مقامي بين أظهرهم ألا أمشي إن أمكن على الأرض حرصاً على إكرامي، وكانوا يقبلون يدي وعيني وركبتي، ويتبركون بي فأقول لهم: أنا مسيحي، فيقولون: ألست عربياً من بلاد محمد ﷺ فأبكي ويبكون! هذا هو الشعب التركي الذي اغتبطت بأني رأيته في أرضه، أفلا أشكر من نفاني بعد أن رأيت ما رأيت؟!

ومع هذا كان بعض العمال من الأتراك المتعصبين لقوميتهم تعصباً أعمى يشمئزون كل الاشمئزاز من رجل يتكلم بالعربية، وإذا كان موظفاً عندهم عدوا عليه من النقص تكلمه بالعربية، وربما وضع الرئيس بجانب اسمه علامة تؤخر ترقيته، وكان كثير من الأتراك والأكراد وغيرهم من العناصر يعرفون العربية، وينكرون أنهم يعرفونها، ليرضى عنهم بعض أصحاب الدولة، كأن معرفة اللغة العربية جرم من الأجرام.

ومذ تولى أمر الترك مصطفى كمال باشا (كمال أتاتورك) انتقل تباغض الترك

والعرب إلى الطور العملي، بقطعه كل صلة مع العرب والعربية، حتى لقد كان يُضطهد كل من يتكلم في تركيا بالعربية، وكل من يكتب التركية بحروفها العربية القديمة، وكانت الرسائل في بريد تركيا تقبل باللغات كلها إلا اللغة العربية، ويخطب الخطيب في الجمع والأعياد بالتركية، وينادي المؤذن إلى الصلاة بالتركية، وحذفوا من لغتهم كل ما أمكنهم حذفه من الألفاظ العربية، واستعاضوا عنه بألفاظ إفرنجية وتركية قديمة.

وأراد رئيس الجمهورية الأول أن يترّك كل شيء، ورأيت كتاب قراءة تركية في العقائد الإسلامية كتب بالحروف اللاتينية، على طريقة السؤال والجواب، ومما جاء فيه: ومن نبيك؟ سيدنا محمد رسول الله. وهل محمد من العرب؟ معاذ الله هو تركي. وهذا من السخافة التي أشبهت سخافتهم في دعواهم مؤخراً أن الترك هم من نسل الحثيين، وقد ألفوا في إثبات هذه الأكذوبة الكتب، وكتبوا الرسائل والمقالات، والترك فرع من فروع التتر، معروف أصلهم وموطنهم معرفة أكيدة لا تقبل المجادلة.

نشأت العداوة قديماً بين العرب والترك من أجل المغانم والمناصب، واليوم ذهبت الدواعي لإثارتها، والعهد بجمهور العرب وعقلائهم أنهم لا يكرهون الترك، ويتمنون لهم كل خير، يفرحون لفرحهم ويتألمون لما يسوءهم. ولما ظفر الترك باليونان في وقعة سقارية، وكان الترك قد خرجوا من الشام، ودخلت هذه في حكم الحلفاء، والنفوس لا تزال مملوءة غيظاً من استبداد العثمانيين، أقام أهل سورية الزينات والمهرجانات فرحاً بهذا الظفر الذي أحرزه إخوانهم الترك، ولكن سياسة الكماليين أبت إلا قطع كل صلة مع العرب خاصة، ومع أهل الإسلام عامة، وكان اقتطاع الترك في العهد الأخير لواء الإسكندرونة من جسم سورية بدون مسوغ شرعي، والسواد الأعظم من سكانه عرب، مؤلماً لقلب كل عربي.

حدثني أحد أصدقائي من قناصل فرنسا، ونسيت إن كان المسيو بيات أو المسيو أوتافي، وكان كلاهما يحسن العربية ويكتبها كأهلها، قال: كنت قنصلاً في طرابلس

الغرب، أسمر عند الوالي في بعض ليالي الأسبوع، ويسمر معنا القناصل وكبار موظفي الولاية، وكان دأب هذا الوالي التركي لعن العرب جهاراً. فاتفق في إحدى الليالي أن كان المجلس خالياً من سمّاره وقد قذف لسان الوالي لعناته المعهودة، فالتفت إليه متأثراً من ترداد هذه النغمة وقلت له: وَلم دولتكم تبغضون العرب إلى هذا الحد، وتلعنونهم عند كل فرصة، وهل لهذا من سبب؟ إذا كان هناك شيء أرجو أن تتفضلوا ببيانه. فقال: لا أعرف لذلك سبباً، وهذا ما ألفته من صغري، وكأنه مغروس في قلبي، وأشربته مع اللبن. فقلت له عند ذلك: أنت مخطئ يا صاحب الدولة ببغضك العرب، وبلعنك لهم كل حين، وكان على العرب أنفسهم أن يبغضوكم معاشر الترك، لأنكم كنتم السبب في زوال دولتهم، وعشتم أجيالاً بما أتوكم به من دين ومدنية، ورتعتم كثيراً في الأقطار التي افتتحتموها وهي بالحقيقة من فتوحهم. وإنا إذا أنصفنا وألقينا نظرة عامة على ما قام بأيدي العرب من المصانع، مبتدئين بالأندلس حتى نصل إلى الهند لا نجد فيه يداً لتركي، وهو من صنع علماء العرب ومهندسيهم وحكوماتهم. ذهبت دولة العرب منذ أعصار وأعمالهم في الحضارة بارزة للعيان، على كثرة ما دمرتم فيها، وأنتم إذا ذهبتم غداً من الأرض هل تبقى لكم غير تلك الجوامع التي عمرها سلاطين آل عثمان في إستانبول؟!

دعك يا سيدي من غمز العرب، وتصاون عن بعضهم، فبغض أمة بأسرها أو لعن قوم بعينه أبداً، لا يليق بمن كان في مثل مكانتك ومنصبك، قال: وما سمعت الوالي بعد تلك الليلة فاه بكلمة يُشْتَمُّ منها بغض العرب، ورجع عن لعنهم على ما ظهر لي.

هذا ما بقي في ذهني من المعاني التي ذكرها القنصل، وقد وقعت لي حادثة غريبة تدلُّ على مبلغ سعي الأتراك في تجهيل العرب، وذلك أن إسماعيل فاضل باشا، كان والياً على سورية، وأصله من أهالي كريت، وما أدري إن كان رومي الأصل أو تركيه، وأرجح أنه من أتراك إقريطش، وكان يدعي صحبتي، ويحاول استمالتي. طلب مني عامل جبل عجلون وكان تركياً، وأظن اسمه سزائي بك، أن أنتخب له

ستين معلماً لستين مدرسة أهلية، عزم سكان عجلون أن ينشئوها بأموالهم، فقضيت ثلاثة أشهر أبحث عن معلمين يحسنون التعليم في الجملة، فلم أظفر بأكثر من ثلاثة عشر معلماً، ومنهم من كان صاحب دكان، ومنهم من كان له كتّاب خاص. ورافقتهم إلى الوالي ليسلموا عليه ويودعوه، ولأطلب لهم رخصة بالركوب في القطار بنصف أجرة. وكان أول سؤال سألهم إياه: هل تعرفون اللغة التركية؟ فأجابوا بغير الإيجاب. فامتقع لونه، والتفت إليَّ قائلاً: وكيف ذلك؟ فقلت له: أرجو أن يتعلموا، والآن سيعلمون أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والخط والحساب والعبادات، وانصرفنا من لدنه غير موفقين، فقلت للمعلمين: إذا لم يكذب حدسي فأنتم غير ذاهبين إلى عجلون غداً، وبعد ساعتين تناولت برقية من عامل عجلون يتوسل إليَّ ألاَّ أرسل المعلمين، بعد أن كان يلحُّ بسرعة إيفادهم. فعلمت أن ذلك كان بإيعاز الوالي، وأنه قال له: كيف ينتخب فلان المعلمين وأنت ترضاهم؟ وأظن الوالي ما عتَّم[1] أن رفع من عجلون ابن جنسه الذي كان يريد لأهلها الخير. ومضت أيام ثلاثة، وزرت الوالي في داره بعد الغروب، وكان احتسى كؤوساً من المسكر، وعيناه تقدحان شرراً، فأول ما قال لي: يا فلان هل أنت ولد؟ فقلت له: أنا رجل بحول الله، فقال: كيف تظن أنا نعطي العرب سلاحاً يقاتلوننا به، العلم سلاح ولا نريد أن نسلحكم، إن من سياستنا ألا نعلمكم، فتألمت لهذا، ودعوت الله في سري ألا يطيل أيام هذه الدولة، وقلت في نفسي: إذا هم منعوا التعليم الابتدائي عن رعاياهم العرب، وهو بمثابة الخبز في التغذية، كيف تصفو لهم قلوب الخواص منهم؟.

وطلب مني هذا الوالي أن يقضي يوماً في مزرعتي، فقلت لأعيان القرية: اطلبوا منه تأسيس مدرسة لتعليم أولادكم، فأظهر استحساناً لهذا الاقتراح وقال: عليكم تقديم البناء، والمعارف ترسل إليكم المعلم، فتبرعت لذلك بخمس وأربعين ليرة عثمانية عني وعن إخوتي، وتبرَّع أحد الوجوه بالأرض للبناء، وأخذ الفلاحون

---

(١) أي: ما لبث.

يبتاعون الحجارة ويأتون بها من المقلع، ثم رأيت الهمة قد تراخت وأصبح بعض أهل القرية يصرحون بأنهم لا يريدون تأسيس مدرسة، فعلمت أن أحد الدمشقيين ممن اعتاد ضمان أعشار القرية والانتفاع من جهل أهلها قال لهم: إن تأسيس المدرسة في قريتهم يسهل على الدولة أخذ أبنائها للجندية، مع أنهم كانوا كلهم يخدمون فيها أسوة بسائر القرى، والغالب أن إخفاق المشروع كان بإغواء الوالي، فنفذ سياسته عند العمل، وكان عند القول استحسنه وأظهر الرغبة فيه.

وكنت في الآستانة أنزل في (قاضي كوى) عند امرأة مسيحية، وكان زوجها طبيباً تركياً في الجندية برتبة عالية فكف بصره، وكنت أتحدث إليه وألاطفه، فعرف أني من دمشق، فقال لي: إن ابن أختي إسماعيل فاضل كان والياً عندكم، فسكت. ثم قال لي في جلسة ثانية: إن ابن أختي يحب أن يراك، هل تأمر بضرب ميعاد للاجتماع معه؟ فسكت وتشاغلت.

ثم ألحَّ في المرة الثالثة فقلت له: قل لابن أختك إن الذي يحاول أن يبقي العرب في الجهل لا أرى أن أجتمع إليه وهو يعرف معنى هذا الكلام، وانقطع الحديث وما عدت أجتمع بالدكتور الأعمى كالأول.

والشيء بالشيء يذكر إن عدوي اللدود ناظم باشا والي سورية، وكان يسكن «قاضي كوى» أيضاً حاول غير مرة أن يكلمني ويتحبب إليَّ فرأيت الابتعاد عنه، وهذا الوالي حاول قتلي لما كان في سورية، وما أدري بأي وجه كان يود أن يكلمني، وأنا رأيت ألا أضيع وقتي معه، وأسمع اعتذاره وهو من المعروفين بكثرة المداهنة، والقدرة على الضحك من كل من يواجهه، وخلاصة ما بيننا أنني حاولت أن أدعوه لإنفاذ القوانين، وتوخى هو أن يفلت منها وأن ينجو من نقد جريدتي بأي حالة كانت.

❁ ❁ ❁

رجع إلى الأتراك، ومحاولتهم إبقاء العرب في الجهل:

قصَّ عليَّ الشيخ طاهر الجزائري قصة عجيبة في هذا الباب قال: قال لي كمال

بك مدير معارف الولاية في إحدى العشايا، وكان كرع كؤوساً من الشراب، وهو سكران طافح: يا شيخ ما هذا الاهتمام منك بنشر المعارف؟ (وكان الشيخ في أول شبابه مفتشاً لمعارف سورية، وهو الذي أنشأ لها مدارسها الابتدائية، وألف لها كتب التعليم الابتدائي كلها) أنا أخذت من وزارتي كتاباً سرياً بالأرقام تقول فيه إنه تبين أن المعارف عند المسلمين في سورية قد ارتقت إلى درجة كافية، فاعمل جهدك على أن تؤخرها لا على أن تقدمها.

وكان عدد الأميين يومئذ في ديارنا أكثر من سبعة وتسعين في المئة، وأظن هذه الحادثة وأمثالها مما وقع للشيخ طاهر الجزائري هي التي حدت به على أن يبغض دولة الترك بغضاً شديداً، ويلقى الله ببغضها وكراهة سياستها، وكان يقول من سوء بخت المسلمين أن الدولة العثمانية استولت على أعمر الولايات الإسلامية وأهمها، وكان مع هذا ينوه كثيراً بتربية الشعب التركي، وارتقاء الأسرة وتقدم البيوت، ووفرة الأدب والتهذيب في جماعتهم.

وبعد فإنا بهذه الوقائع عرفنا مبلغ حب حكومة الترك للعرب في الدور العثماني، وكانوا يوسدون عن قصد للعربي الذي لا يجيد التركية تدريس البلاغة التركية، وللتركي الذي لا يحسن النطق بكلمتين بالعربية تدريس النحو والصرف والمنطق وبلاغة العرب في مدارسهم الثانوية. وحدث أن أرسلت الآستانة إلى مدرسة تجهيز بيروت معلماً أرمنياً لتدريس الدين الإسلامي، وكان لما عينوه يصرخ قائلاً لهم: أنا مسيحي لا أعرف الإسلام، ويجيبه من عينه: لا بأس يمكنك أن تدبر نفسك، وهذا ليس بالأمر الصعب عليك. ومثل ذلك كان في دمشق انتدب للعلوم الدينية مسيحي مسترك.

إن من أدرك سر توفر الأتراك على تجهيل العرب يقيم بعض العذر للمسلمين على ما صاروا إليه من التأخر في هذه الديار. وكانوا لغباوتهم يرون من الواجب عليهم أن يسكتوا عن مساوئ الحكم العثماني، لأن القائمين بالأمر مسلمون. وبهذه الدعوى

خَدَّر الأتراك الأعصاب، وجعلوا العرب وراء الأمم الراقية. على حين كان جيرانهم من النصارى يرتقون سنة عن سنة معتمدين في رقيهم على مدارسهم الطائفية، وعلى ما تتفضل الجمعيات التبشيرية فتبعث به إليهم من المبشرين والمرسلين، يفتحون لهم المدارس، ويعلمونهم اللغات والعلوم، ويعدونهم للكفاح في ميدان الحياة، والمسلمون لشقائهم يعتصمون بدولة الخلافة، وتغويهم كلمات الإسلام والمسلمين، ومشايخهم ينمون أفكارهم باسم الدين، وهم كانوا من العوامل في تضييعه، لسكوتهم عن الحق وإقرارهم الباطل، وأصحاب الخلافة التركية يكافئونهم على قلة دينهم، وينفلونهم الرواتب والرتب، ويخلعون عليهم السيم والقصب. وكان الذين يبيعون ذممهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون إلى من جاء بعد الترك. . .»[١].

❁ ❁ ❁

هل كان الأستاذ كرد علي متحاملاً على الدولة العثمانية؟

يتهمونني بالتحامل على دولة الترك العثمانيين، ويقولون: إن «خطط الشام» و«الإسلام والحضارة العربية» و«القديم والحديث» من تأليفي ملئت بالطعن على هذه الدولة. وما كان لرجل تلقى ثقافة أمة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها، وعاش شطراً كبيراً من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها، وعاشر طبقاتها، ودرس نفسيتها إلا ويعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها، وهم من طبقة اغتنت بسرقتها وسرقة رعاياها، وارتاشت بأكل أموال الأوقاف واستصفاء المدارس والمساجد، أو كانت على الأقل من موظفيها، أو كان غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها، أو ممن استهواهم الدين، فشفع لتلك الدولة عندهم كونها مسلمة لا حرج عليها إذا ظلمت واستبدت.

---

(١) «المذكرات»: ١/ ١٥٨ ـ ١٦٤ .

أنا لا أنكر أني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي لا نظر التركي، ولما ظهر كتابي «خطط الشام» قرأه أحد الأتراك في أنقرة وربما كان من أصحاب الأخبار، فقال: ما كنا نظن أن فلاناً يحكم على حكمنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر. ولو أنصف لقال: تُرى هل اختلق وكذب أو قال ما وقع؟ فالمختلق والكذاب لا يصح أن يمسك قلماً ويكتب تاريخاً.

فإن كنت بالغت ـ على رأيهم ـ في وصف عهدهم الحديث عندنا فالعهد القديم من كتبه؟ أليسوا مؤرخين منا ومنهم شهدوا ظلم التركي وسوء إدارته؟

لو تجردنا من كل عاطفة ـ وهذا من المتعذر ـ لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا إلا بأنها دولة ظالمة قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد[1]، وخرَّبت المدنية التي سقطت عليها في الأقطار الواسعة التي احتلتها وما أحدثت لها مدنية يُعتد بها. وربما زعم زاعم أن ظلمها عنصرها كان أشد، ولكن عزاء الترك أن لهم الدولة، والسلطان سلطانهم، يهون عليهم ما لا يهون على غيرهم من العناصر. ولو كانت الدولة صالحة للبقاء لما رأينا أهم أجزاء أرضها في أوربا أحط من عامة الممالك الأوربية بعد مقام الأتراك فيها خمسة قرون، ولما شاهدنا الممالك التي اقتطعت منها مثل مصر واليونان ورومانيا وصربيا وبلغاريا تقفز إلى الترقي قفزة مدهشة منذ نجت من معوج سياستها.

هذه حقيقة شهد بها أهل تلك الدولة أنفسهم وأمثل رجال العلم فيهم، وكلهم على شبه إجماع مع مؤرخي الغرب بأن دولة الترك العثمانيين ما كانت إلا دولة حرب، وليس السيف كل شيء في قيام الممالك[2]. وإن معظم الولايات التي استولوا عليها كانت قبل حكمهم أكثر رقياً منها يوم رحلوا عنها، ونحن نقول: لو

---

(١) هذا من الظلم الواضح، والتجاوز في الحكم، والغبن والغمط لحسنات هذه الدولة.

(٢) كلام الأستاذ كرد علي ـ هنا ـ على أنه في أكثره حق، لكن فيه تجاوز وتعميم في حق هذه الدولة كعادته حين يتحدث عنها، وقد ذكرت ذاك مراراً قبل هذا.

سلم العرب من استيلاء الترك عليهم أربعة قرون لكانوا اليوم أرقى شعب شرقي، ولو قُدِّر للشام أن يخرج عن حكمهم يوم طرحت مصر نيرهم الثقيل عن عاتقها لكانت الآن كسويسرا علماً ورقياً»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «المذكرات»: ٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

المبحث الثاني:

سوريا تحت الاستخراب الفرنسي (١)

كان المستخرب الفرنسي قد وطئت أقدامه الدنسة أرض الجزائر الطاهرة منذ سنة ١٨٣٠م، ثم دخل المغرب وتونس، ثم بلاد الشام: سورية ولبنان، وكان قد عاث في الأرض فساداً في كل البلاد التي دخلها، وقهر أهلها بالحديد والنار، وساسهم سَوْساً غاشماً ظالماً حاول تزويقه وتجميله، لكنه أخفق وظهرت حقيقة بارزة ظاهرة في وقائع فظيعة صعبة شهدتها تلك البلدان المنكوبة بحكمه، وخالف في كل مرة مبادئ ثورته الكبرى التي يباهي بها ويفاخر زوراً وبهتاناً، ووضع حقوق الإنسان تحت قدميه إذا خالفت مصلحته، وكم من مرة خالفت مصالحه فكشر عن أنيابه وأذاق الناس الويلات، وفي بلاد الشام حاول هذا المستخرب أن يظهر بصورة حضارية مدنية ـ كما يدعي ـ لكن أطماعه غلبته، فإن عدل مرة فقد ظلم مرات، وإن أحسن في فعلة فقد أساء في فعلات، وأرهب الناس وأخافهم، وقتل وطغى وبغى.

---

(١) شاع في كلام المؤرخين والمحدثين وطلبة العلم والمفكرين والمثقفين، شاع في هؤلاء كلهم التعبير عن احتلال الأوطان وتدميرها واستغلالها بمصطلح الاستعمار، وما هو استعمار فالاستعمار يفهم منه أن هناك عمراناً للبلاد حصل بدخول أولئك، ولئن سلمنا بشيء من العمارة فما خربوه أكبر بكثير مما عمروه، وأفضل أن نستعمل كلمة الاستخراب فهي تدل دلالة كاملة على ما صنعه الفرنسيون وغيرهم من المستخربين في البلاد، حيث لم يكتفوا بإخراب عمران البلاد، إنما تعدوه لتخريب النفوس والأخلاق والسلوك، والأهم من كل ذلك ما خربوه من عقائد كثير من الناس، فالكلمة المناسبة في حقهم هي الاستخراب وليس الاستعمار، والله أعلم.

وهذه الصفحات مهداة لكل مفتون بالحضارة الغربية لا يرى فيها إلا الحسن، ولا يرى في قومه إلا السيئ، يعظم حسناتهم القليلة في بلادنا حتى تصبح مشوشة لرؤيته فلا يرى غيرها، وينفخ في السيئات التي في بلده حتى تصبح في نظره هي كل شيء في البلد، وإليكم كلام الأستاذ الذي أجاد فيه وأفاد لولا بعض الهنات التي علقت عليها في مكانها.

❁ ❁ ❁

طمع المستخرب في ثروات البلاد:

ذكر الأستاذ كرد علي أنواعاً من الطمع والاستغلال تفنن هؤلاء المستخربون في اختراعها، وامتصاص دم الشعب بها، فكان مما قاله:

«زار دمشق السيد برونه أحد نواب فرنسا وابن عم صديقي المستشرق أرتوركي، يحمل لي سلاماً من صهره وقد طلب إليه يوم يوافي دمشق أن يجتمع إليَّ ويخبره بحالي وصحتي وصحة أولادي، وكان يعرف بعضهم وهم صغار، فاجتمعنا ساعة، وتذاكرنا في أمور كثيرة، ومما قلته له: إن (ش) (أحد كبار موظفيهم عندنا) قد ترك المجال لزوجته تستلم هدايا المهدين، حتى صار لها من الحلي والجواهر ما لو عزمت أن تضعه على أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت أن تنهض به لكثرته، وعندكم رجال أفضل من هذه الطبقة التي تبعثون بها إلينا، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات، وخصصتمونا برجال يأتون من طريق فرنسا لا من طريق مستعمراتكم، وما هي إلا أيام حتى نقل المشكو منه إلى مقاطعة أخرى وبقي فيها سنين، وبقيت زوجته بالطبع على طبيعتها، تستهدي المجوهرات وغيرها، وباسم الله وما شاء الله.

وأعاضونا عن هذا العامل بعامل مثله أو أحط منه (ف) وكان هذا أسرق من فأر الحبس، وذا نفس وضيعة، حتى رضي أن يدفع عنه رئيس الدولة أجور مبيته وثمن طعامه في الفندق أعواماً. هذا ودولته تعطيه راتباً جيداً يمكن أن يعيش به عيشة راضية، ويقتصد منه لمستقبله.

وقلت لأحد أصحابي منهم: إن وجود مثل هذا الموظف عار وشنار، إنه لا يمثل نفسه، بل يمثل دولة عظيمة[١]، فكيف يليق أن يسفّ هذا الإسفاف، وما أقيل هذا العامل إلا بعد مدة طويلة. ومن غريب الاتفاق أن معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يمكثوا في ربوعنا طويلاً ليراعوا المصلحتين مصلحة أمتهم ومصلحتنا، وكان من كثير من المنحطين بأخلاقهم أن قضوا معظم خدمتهم عندنا، وحرمنا طبقة مختارة متمرنة على إدارة الشؤون»[٢].

❁ ❁ ❁

جهل بعض كبارهم بأحوال الدول التي احتلوها:

من المعلوم أن المستخرب العالمي ما وطئ أرضاً إلا وقد حرص أن يعلم مسبقاً تفاصيل مطولة عن أهلها وجغرافيتها، وثرواتها، ومواطن القوة والضعف فيها، لكن بعض كبارهم كان على جهل مطبق بأحوالنا خلاف ما اشتهر عنهم، وإليك ـ أخي القارئ وأختي القارئة ـ نموذجاً على هذا الجهل الفاضح:

«زار دمشق نائب باريز المسيو سوليه، وفي السنة التالية زرت باريز فأتى إلى الفندق يزورني واقترح عليَّ أن أزور المسيو بيرار وزير معارف فرنسا، قائلاً: إن من باب اللياقة أن يزور وزير معارف سورية وزير معارف فرنسا، فأجبت مقترحه، وضرب لنا الوزير موعداً، فزرته في مكتبه الرسمي، وتحدثنا في أحوال سورية، ومما سألنيه: هل أنتم تتكلمون بالسريانية هناك؟ فقلت له: كنا نتكلم بها من نحو ألفي سنة واليوم نتكلم بالعربية، ولم يبق من مواطنينا من يتكلم بسريانية محرفة إلا ثلاث قرى في شمالي دمشق، فتعجب من ذلك، وقال: ما هكذا قرأنا في صبانا.

---

(١) إن فرنسا التي فعلت الأفاعيل في المسلمين في الجزائر والمغرب وتونس وبلاد الشام لا تستحق أن توصف بأنها دولة عظيمة، لكن المؤلف كان يعيش في زمان الصدمة الحضارية، وقانا الله شرها.

(٢) «المذكرات»: ١/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

فقلت له: الظاهر أن الكتب التي اعتمدتم عليها كانت من طبعات قديمة صححت أغلاطها في الطبعات الحديثة، وسألني إذا كنا كلنا نصارى، فأجبته:

فينا النصارى وفينا المسلمون، والسواد الأعظم من أهل الإسلام، والمذاهب كثيرة عندنا لا تقل عن عشرين مذهباً.

فقال: وهذا لم أكن أعرفه.

فقلت له: ربما كانت معلوماتكم مأخوذة عن مصادر قديمة غير موثوق بها.

وانصرفت من عنده متعجباً ـ وأظن النائب سوليه كان يعجب أيضاً ـ من أن يكون وزير المعارف، في أرض العلم والمعارف، في هذه الدرجة من المعارف. وقلت في سرّي: كم رفعت السياسة أناساً إلى الرتب العليا وهم في حقيقتهم غير أهل لها.

عرف القارئ العزيز مبلغ وزير معارف فرنسا من العلم، ومع أنه ليس بالكاتب ولا بالشاعر ولا بالأديب، ولا ألّف في حياته كتاباً، ولا نمّق خطاباً، انتخب عضواً في المجمع العلمي الباريزي»[1].

✽ ✽ ✽

احتقارهم المسلمين واستخفافهم بهم:

من المعلوم أن المستخرب العالمي كان ينظر باحتقار شديد للشعوب الإسلامية، ولا يرى فيها إلا السوء والجهل والفقر، ولا يقر لها بشيء من الفضل لا في الماضي ولا في الحاضر، وهذا أمر معلوم، أورد له الأستاذ كرد علي رحمه الله تعالى هذا النموذج الصارخ:

«كنت في دعوة رئيس الوزراء، وكان إلى جانبي الكولونيل تراكول مدير استخبارات الشرق، فأردت أن أفتح معه حديثاً، فسألته عن سير الثورة في فلسطين (الثورة التي نشبت قبل الثورة الأخيرة) فقال لي: لا شيء، فقلت له: إن جيشاً منظماً

---

(١) «المذكرات»: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

يقضي بالطبيعة على ثورة يقوم بها شعب أعزل في أيام قليلة، فقال: أنتم ماذا تعملون هنا؟ فقلت له: لا بد أنك شاهد ما نصنع، قال: أتحب أن أصدقك؟ لو كنت مكانكم أمس وجاء هؤلاء المتظاهرون إلى دار الحكومة يهتفون لاستقلال فلسطين، لأخذت منهم عشرين رجلاً وصلبتهم. فقلت له: ولماذا تقتلهم وهم طالبو مطالبة سلمية فقط؟ فأطل عليهم رئيس الوزراء من الشرفة وحياهم وقال لهم: سأسعى لمعاونتكم على طلبكم، فماذا حدث من ضرر في ذلك؟ ثم إنا لسنا هنا كجمال باشا في عهد الحرب العامة جئنا لنقتل الخلق، فمن يستحق القتل يقتله القانون.

فقال: أقول لك الحق، المسلمون بهائم.

فاضطربت لهذا النعت الذي نعت به المسلمين، وأحببت أن أضعفَ له تهوره هذا، فقلت له: أظنك تعني مسلمي فلسطين.

قال: لا، جميع المسلمين بهائم.

فزاد غضبي وقرأه في وجهي، فأحب أن يسترضيني، وكان أمامه كأس من الشمبانيا تناوله وقدمه إلي فامتنعت من أخذه وقلت له: أظنك نسيت أني مسلمٌ، ومسلم قائم بما فرض الإسلام علي، وهذا الخمر محظور في ديني، فسكت وسكت.

ولما انتهى المدعوون من طعامهم وانصرفوا، ذكرت لرئيس الوزراء ما فاه به مدير الاستخبارات، وكان الرئيس يحاذر منه، لأنه يريد به الشر ويبغضه، وقلت له: هذا ما وقع، فالرجل إذا لم يحضر غداً إلى مكتبي ويعتذر مني ومن الحكومة رسمياً عما جرحني وجرح أمتي به بهذا الكلام الجاف، فأنا مستقيل بعد غدٍ من الوزارة فأصبح من أفراد الأمة، وأنشر هذه القضية في الملأ في نشرتين بالعربية والفرنسية. ومما قلته: إن حكم هذا الرجل حكمه الجائر على أمة عظيمة لا أرضى مثله أن يقوله لي، فالمسلمون فيهم رجال كالأوربيين بعلمهم وأخلاقهم، وأي سخافة أن يحكم على ثلاثمائة مليون من الشعوب المختلفة حكمه هذا. أنا إذا قلت للمسلمين أنتم بهائم قد يقبلون مني أعظم من قولي لصدوره عن حب لهم يراد به حضهم على الأخذ بأسباب الترقي، أما أن أسمعها من فم تراكول فلا.

فأبلغ رئيس الوزراء ما جرى وما قلت، وعرف كيف يستغل الحادث، فجاء مستشار الداخلية المسيو فوكنو من الغد إلى غرفة رئيس الوزراء ودعاني فسألني المستشار عن القصة، فقصصتها عليه، كما وقعت، فقال المستشار: أما كان تراكول سكران؟ فقلت له: لا. وبعد انصراف المستشار تقدمت إلى رئيس الوزارة وقلت له: استرحت من تراكول، فهو سينحى.

فاستبعد ذلك وقلت له: سترى، وما مضى عشرون يوماً حتى عين الكولونيل الذي أزعجني بكلامه السخيف قائداً على فرقة في الجزيرة، فجاء يودع رجال الحكومة، وودعني في الجملة، فلما صار في الباب قال لي وزير المالية السيد توفيق شامية: إنه يحبك كثيراً. قلت: هو فانٍ في حبي وأنا أيضاً فانٍ في حبه!! وكانت تنحية تراكول بفضل المسيو بونسو المفوض السامي، وكان من أعقل من تولوا هذا المنصب في عهد الانتداب[1]».

❁ ❁ ❁

تدخلهم في شؤون إدارة البلاد:

كان المستخرب الفرنسي قد جعل رجالاً من بلاد الشام في المناصب العليا والوزارية لإدارة البلاد، لكنهم كانوا قد وضعوا مستشارين لكل قسم من أقسام الإدارة، من جنسهم حتى يسهل عليهم القفز فوق المسؤولين المحليين الذين كان أكثرهم لا يملك إلا أن يغض الطرف عن تصرفاتهم، وإليكم نموذجاً على هذا التدخل يوضح كيف كان البون شاسعاً بين أقوالهم وأفعالهم:

«ضقت ذرعاً بمستشار المعارف المسيو راجي، وكان يتدخل في كل الأمور، اعتاد ذلك من أيام سلفي وزير المعارف السابق؛ الذي هان عليه أن يكون بيد المستشار كالميت بيد الغاسل، فكان راجي يفاوض المدارس مباشرة، ويراسل

(١) «المذكرات»: ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

أرباب المعامل في فرنسا ليبتاع منها للوزارة الأدوات والآلات والكتب والورق وغير ذلك، ومن أهم ما افتضح به أمره تدخله في إضراب طلبة الجامعة عندما أردت إنقاص موازنتها لأخذ الزائد لإنشاء مدارس في القرى، وهو الذي أهاجهم فهاجوا، ثم دعاهم إلى السكون فسكنوا. فكتبت كتاباً خاصاً إلى المسيو بونسو المفوض السامي، أذكر هذه المسائل، وأقول: إن مثل هذا الرجل يضر بسمعة دولته، وأنتم إنما جئتمونا لترشدونا وتعلمونا[1]، ومصلحتكم تقوم بمستشارين ينفعون ولا يضرون.

وكان من أثر كتابي للمفوض السامي أن وقع التحقيق عن المستشار فثبتت صحة أقوالي فيه، وأقيل من منصبه بعد نحو عشرة أيام، وكان ذلك بفضل المسيو بونسو. ولم يعهد فيما علمت أن أقيل مستشار في سورية ولبنان في عهد الانتداب من أجل خلاف مع وزير. وربما كان كل من تولوا الوزارات ألين عريكة مني فسددوا وقاربوا واتفقوا مع مستشاريهم، ولو كان الاتفاق على مضض، وأنا غالبت مستشاري فغلبته، ولجأت إلى الطرق القانونية في شكواي منه، وذلك بعد أن أغضبني مرات وأغضبته، وهذا أيضاً من فضل المسيو بونسو العاقل الذي لا يفر ممن يكلمه بالمعقول.

جاءني المسيو راجي مستشار المعارف بموازنة الجامعة السورية، وكان من أعظم المنتدبين عطفاً عليها وعلى رئيسها للصداقة بينهما. وكان هذا يهديه في كل فرصة هدية عظيمة يستديم بها صداقته وحمايته للجامعة - ورجاني أن أصادق عليها بسرعة فألقيتها في القمطر، وجاء بعد يومين يطلبها، فقلت له: إني لم أنظر فيها، وبعد تسويف ما طال أكثر من أسبوعين، وهو يراجعني بإلحاح، مللت منه فنظرت فيها فإذا هي تحمل في مطاويها إسرافاً عظيماً ما توقعت أن أرى غيره، وفي الإمكان أن يقتصد منه خمسة وسبعون ألف ليرة، ولما عدت واجتمعت بالمستشار قلت: هذه الميزانية

---

(١) هيهات إنما جاؤوا لمراعاة مصالحهم فقط.

عمل أخرق والإسراف فيها ظاهر، فقال: أنا الذي نظمتها، فقلت: ولو كنت أنت، فغضب وأظنني في ذاك اليوم قلت له: أرى أنك لم تطلع على ترجمة حياتي. فقال: وكيف لا؟!

قلت: إني على ثقة أنك لا تعرف دقائقها. أعرف يا صاح أني ما زلت منذ خرجت إلى معترك الحياة أحارب الظالمين والمرتشين والسارقين من الموظفين، وقد كتبت ذلك في كتبي وفي الجرائد والمجلات التي حررتها أو آزرت بها، ودعوت إلى إسقاطهم جهرة في المجالس والمجتمعات، وتحملت في سبيل دعوتي كل أذى، وأقيمت علي القضايا، وابتليت بأشد البلايا، وليس من نيتي الآن أن أناقض نفسي، فأعمل في آخر أيامي ما يخالف ما عملته ودعوت إليه في أولها ووسطها. ليس عندي صندوق أدفع منه الهدايا لمن أحاول استمالة قلبه، أنا صحيفتي بيضاء، وجبيني ناصع، وأجري على بصيرة، ولا أخاف أحداً إلا ضميري. فلما ذكرت لفظة (الهدايا) احمرت أذنه الواحدة، حتى صار لونها أحمر أدكن، وأخذت تضطرب كرقاص الساعة. فتركني بدون أن يسلم عليَّ وخرج مغاضباً، وراح من ساعته يشكوني إلى حاميه المندوب.

ومن الغد كلم المندوب رئيس الوزراء، ونقل له ما قلته للمستشار، فقال: إنه لم يبلغه ما جرى، وماذا يقول لي، وأنا ثقافتي فرنسية وعن الفرنسيين أخذت، فقال له المندوب: صحيح هذا، وأنا اجتمعت معه مرتين، فرأيته حسن المأتى، لطيف العشرة، وما عرفت السر في أن يَبْدَه المستشار بمثل هذا الكلام القاسي. فقال الرئيس: لا بد أن يكون المستشار فاه بأشياء أغضبت الوزير، فأجابه هذا الجواب، وانتهى الأمر عند هذا الحد، وما صادقت على الموازنة أو ترفع منها الزوائد، فاضطر رئيس الوزراء لإقرارها حسماً للنزاع وإرضاء للمندوب، ولأنه لا يحب أن يغضبه من أجل مبلغ زائد في ميزانية الجامعة.

وكثيراً ما كنت أطرح في القِمَطر[١] أوراقاً يبغي المستشار أن أبادر للمصادقة عليها، لعلمي بأن فيها أشياء لا يرتاح لإقرارها قلبي، وتنطوي على أسرار صعب كشف غامضها. وأذكر أني حققت مرة سيرة إحدى معلمات دمشق فثبت لي أن في سلوكها بعض العهدة، وأحببت نقلها إلى مكان قريب، فراحت إلى وكيل المندوب وترضته، فكلم رئيس الوزراء بشأنها، فرجاني هذا أن أصرف النظر عن إبعادها، كما التمس مني المستشار ذلك وأكثر عليَّ الشفاعة بها، فضجرت وخرجت عن اعتدالي وقلت له: أبلغ سعادة وكيل المندوب أن وزارتهم لا تساوي في نظري شيئاً، كيف تحمون معلمة ثبت بتحقيقات الشرطة وغيرها أنها سيئة السيرة، وتردون كلام وزير أحب أن يطفئ مسألة قذرة بإبعاد المعلمة عن المركز، وكان الواجب طردها من سلك التعليم بدون توقف، وأكدت عليه أن ينقل كلامي هذا إلى الوكيل، وفهم أني فهمت ما جرى.

ومثل هذه المسائل كانت تؤلمني كل الألم، ولطالما هممت بالاستقالة لولا أن كان يحول دون إمضاء ما أرغب فيه صديقاي الأستاذان مصطفى تمر وشفيق جبري، وكانا من أعظم رجال الوزارة ويدي اليمنى فيها، فأرجع عما قصدت حباً بالمصلحة، وكان الخير في هذا التصبر والصبر، لأن المستشار أقيل بعد مدة، وتفرغت للعمل على ما أحب بدون عائق حتى آخر أيام الوزارة[٢]».



تولية المستخرب أذنابه:

حرص الاستخراب العالمي أن يولي أذنابه، فلما انقلع لم نستفد ولم نتعظ، وما زلنا نولي أذنابه في الفكر، أو أنصاف المتعلمين، أو فاسدي الذمم:

---

(١) أي: الدرج ـ هنا ـ.

(٢) «المذكرات»: ٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨.

«ما اهتم رجال الانتداب على سورية ولبنان بانتقاء الكفاة للمناصب بقدر اهتمامهم بتقريب من كان قلبه مربوطاً بهم، وكانوا ممن يحسنون مصانعتهم، كان فيمن اصطفوهم الأكفياء وكان فيهم دون ذلك. جعلوا من سمسار صعلوك وزيراً للمعارف، واتخذوا من مستخدم صغير في الاستخبارات ومن مطرود في شركة ماكنات[١] وزيرين. وأكثرهم لم يتخرجوا في مدرسة، وكان منهم رؤساء وزارات لا يحسنون فناً من الفنون، ولا يتكلمون لغة من اللغات.

كان هذا أيام الانتداب، فما عذرنا اليوم في تولية الجهلة الفاسدين أرقى المناصب، ونعتذر عن خطئنا بأن الحق على الحزب الذي اختار الوزير، فولى بلا خجل (الحاج حمدو) وزارتين وهو عاجز عن إدارة ديوان صغير، ولا تمرن في أقل وظيفة إدارية أو سياسية، خالي الذهن من معرفة القوانين والفنون، ويزيد إلى ذلك فساد ذمته»[٢].

✽ ✽ ✽

بعض الفظائع التي ارتكبها المستخرب الفرنسي:

ذكر الأستاذ كرد علي فظائع الفرنسيين في دمشق حال دخولهم، وكان منهم الرهبان والراهبات، فقال:

«كنت إلى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الراهبات والرهبان قوم استهواهم دينهم فتطوعوا في بث دعوته، وأخذوا على أنفسهم خدمة الإنسانية وتخفيف آلامها، فأثبتت الكارثة الأخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار، وأن دعوى بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور، وكيف لعمري زينت لهم تعاليم السيد المسيح القائمة على الرحمة والشفقة إزهاق أرواح الأبرياء من مخالفيهم في الدين؟

ظهرت أديار الرهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير،

---

(١) أي: آلات.

(٢) المذكرات: ٢/ ٨٣٧.

وأن بعض من أووا إليها لا يختلفون عن القتلة واللصوص. روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت إلى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضَح النهار أن يطلق عياراً نارياً على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع، وشوهد أحد رهبان الإخوة المريميين[١] يطلق من مدفع رشاش ناراً حامية على حي قريب من قرية المزة وهو متشح بلباسه الأسود، ثم دخل بيتاً ينهب لما تراءى له أنه خال من أهله. ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هذه الفظائع من أناس يدينون بدين المحبة[٢]، وأخبرت أيضاً أن المستشفى الفرنسي يوم الوقعة الكبرى لم يقبل أحداً ممن جرحوا يوم العدوان. وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني، فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم إلى الشوارع، وأن بعض جنده اعتدوا على بعض الممرضات. وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الأهالي، وهم يعدون أرقى فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا أصول الحكم، ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل وطني إلا الحرمة والاعتراف بجميلهم.

هذا ما جوز لأنفسهم فعله أبناء ثورة سنة ١٧٨٩ المتشبعون بروح روسو وفولتير في عاصمة من أعظم عواصم الإسلام، انهزموا أمام عدوهم في أرضهم أقبح هزيمة، وانقلبوا يعتدون على الآمنين في أرضنا. كانوا أمام الألمان كالنعامة يوم دحروهم، واستأسدوا في عقر دارنا. وما كان أكثرهم في الواقع إلا قتلة ومتشردين.

حدثني صديقي الأستاذ فخري البارودي، وكان وكل إليه أمر رد المنهوبات إلى أربابها في عاصمة سورية أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم كانت ملأى بالأمتعة التي سرقوها من بيوت السكان، وأن دار القائد العام (الجنرال أوليفاروجه)

---

(١) كيف يكون أخاً لنا من هذه حاله؟!!

(٢) دين التحريف والتخريف، وهو الدين الذي أجبر ملايين البشر على الدخول فيه بقوة السلاح، وقام الرهبان على محاكم التفتيش التي قتلت مئات الآلاف، فكيف يكون دين محبة؟!

كانت مثالاً مخجلاً في هذا الباب: سرق كل ما طالت يده إليه من دور الأهلين، ومن دار المجلس النيابي، وسرق في جملة ما سرق صندوقه الحديدي وحمله إلى منزله وحاول فتحه بمطرقة عظيمة فما استطاع نزع قفله، وكان فيه ستون ألف ليرة سورية، وقد سرق مقداراً كبيراً من الكتب النادرة من خزانة المجلس إلى غير ذلك من النفائس التي استحل أخذها، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد اللصوص، وقلّ أن نجا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام والمال الحرام، ولا عجب أن تجري حكومة فرنسا على هذه الخطة العوجاء في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب، وأن يستحل أفراد جيشها أموال الضعفاء، فإن حكوماتها ما زالت تتآمر على أموال رعاياها أنفسهم. وفي اختلاساتهم في شركة باناما وستافسكي مثال مصغر من أخلاق رجال السياسة والمال في فرنسا، اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات العظيمة، فأتوا ببرهان آخر على انحلال أمرهم.

كنت أظن وأنا على أميال قليلة من القلاع التي كانت تطلق حممها على السكان خلال هذه الغارة أن القائد الذي يأمر بالضرب على البيوت والمصانع ما كان إلا سكراناً أو محششاً، فأكدوا لي أنه كان يعاقر الخمرة منذ شرع يضرب دمشق، ويصدر أمره إلى زبانيته وهو في تلك الحالة المضطربة[1]».

ذكر الأستاذ كرد علي جملة من المآسي ـ أيضاً ـ التي فعلها المستخرب الفرنسي لما دخل الشام فقال:

«مثلت فرنسا في ضربها مؤخراً دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من القصبات الشامية صورة من صور الوحشية تظهر بها أمة مسلحة إذا حاولت أن تنال من شعب ضعيف غرضاً ترمي إلى الحصول عليه. ضربت فرنسا أمة عزلاء ضرباً قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالإرهاب والقوة. وادعت أنَّ العامة في دمشق

(١) المذكرات: ٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢.

استفزوها بإحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان، فما وسعها إلا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب والحامية، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبته، ولكن الحكومة كانت اطلعت على ما كان يُبيَّت لها من الشر، واتفق أنه لم تحصل أكثرية في المجلس يومئذ، فتحول الحاضرون من أعضائه إلى دار زميلهم الأستاذ خالد العظم في سوق صاروجة، فبادرت الحامية إلى قذف قصره العظيم بحممها فلم تصبه، وأصابت قذائفها داراً من دور جيرانه فأفنت أهلها.

يراد من دعوى المنتدبين استفزاز العامة لهم أن فرنسا كانت على حق في تدميرها المدن وإهلاكها السكان، وقد أثبتت التحقيقات إثباتاً لا مجال للشك فيه أن فرنسا ضربت ما ضربت ظلماً وعدواناً، فكان ما ارتكبته سبباً في إخراجها من ديارنا. وكانوا ارتكبوا مثل هذا العمل الأخرق في الجزائر فقتلوا ألوفاً من الآمنين، ولطالما أتوا هذه الأفاعيل المنكرة في الأقطار التي استعمروها، ومع هذا ما زالت تحكم تلك الأصقاع.

والجزائر في العرف الدولي مستعمرة، حكمها حكم الأرض الفرنسية، وللمستعمر أن يهلك من استعمرهم! كما كان الحق لمن استرق إنساناً قبل الإسلام أن يميته أو يستبقيه[١]».

❁ ❁ ❁

من الاعيب الاستخراب الصليبي وظلمه وقهره المسلمين:

كان للاستخراب الصليبي عدة طرق في تثبيت قواعد حكمه، أو التمهيد للاستيلاء على البلاد، وهذه أمثلة مما ذكره الأستاذ كرد علي رحمه الله تعالى:

«سألت سائحاً حضرمياً من ساكني جاوة عن سياسة حكومة هولاندة مع الجاويين يوم كانت تستبد بحكمهم أبشع استبداد، فقال: إن هولاندة كانت إلى قبيل الحرب العالمية الأخيرة إذا تعلم بعض شبان أندنوسيا العلوم العالية في هولاندة أو في غيرها تفرض عليهم الإقامة القسرية في إحدى جزائر أندنوسيا، ولا تترك لهم مجالاً

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٥٣٩.

للاختلاط بأبناء وطنهم حتى لا ينشأ من اجتماعهم أمور لا ترغب فيها الحكومة المستعمرة. قال: وقد أصبح عدد المحكوم عليهم بهذا التغريب العجيب ألوفاً (وأظنه قال عشرون ألفاً) من الشبان المثقفين. وهذا من أفظع ما عرف من تحكم الإنسان بحرية الإنسان، ومن ظلم الإنسان للإنسان[١].

❁ ❁ ❁

بقي رجل إنكليزي اسمه لنجمان يتعبد في مسجد من مساجد دير الزور[٢] زهاء سبع عشرة سنة، ويعتاش من ألعاب يعملها من الورق ويبيعها من الصبيان بقطع من الخبز، وعندما احتل الجيش الإنكليزي دير الزور عُيِّن حاكماً سياسياً على المدينة برتبة كولونيل. ما أصبر الإنكليز في خدمة إمبراطوريتهم[٣]».

❁ ❁ ❁

سألت هولاندياً في هولاندة: أصحيح أن أبناء وطنك في جاوة يكرهون الجاويين في الطرق ليمدوا ظهورهم فيركبوهم كما تركب البهائم؟ قال: صحيح، وإذا نحن امتنعنا من هذا لا يستقيم أمرنا هناك، لأننا قلة تضيع في الكثرة.

ووجهت مثل هذا السؤال لقاض هولاندي من قضاة جاوة فسكت، وما جسر أن يكذب، والسكوت إقرار.

ظلم الهولانديون الجاويين ثلاثمئة وخمسين سنة، ثم ساعد هؤلاء الزمن فتحرروا من سلطة الهولانديين الغاشمة.

❁ ❁ ❁

ما برح المستعمرون يقللون من عدد المسلمين في الصين ينزلونهم إلى الخمس أو

---

(١) هؤلاء هم الذين يدعون مراعاة حقوق الإنسان، وها هي فظائعهم إذا تعارضت مع مصالحهم، فحينئذ يضربون بحقوق الإنسان عرض الحائط، ولا زالوا يفعلون هذا إلى اليوم في فلسطين، والعراق، والشيشان، وكشمير، والفلبين، وغيرها من بلاد المسلمين.

(٢) محلة في سورية.

(٣) المذكرات: ٤/ ١٠٥٧.

إلى العشر من حقيقتهم، وظلوا زمناً على هذا الرأي يدونونه في أسفارهم، ويتناقلونه في مجلاتهم وصحفهم، وقد ألف أستاذ من جامعة باريز كتاباً في الصين عُني فيه بحفنة من الكاثوليك هناك، ذكرهم وذكر أوضاعهم بكل خير، وربما بالغ بعددهم، وأغفل الكلام عن خمسين مليوناً من المسلمين الصينيين كانت لهم مدينة جميلة، وربما كانوا أرقى من جيرانهم في الجملة[1].

❁ ❁ ❁

ومن ألاعيبهم إحداث فتن بين الطوائف وأهل الملل والأديان في البلد الواحد، فمن ذلك ما قاله الأستاذ كرد علي:

«نشرت جريدة المساء الدمشقية ما يلي:

اكتشفت في حلب مؤامرة خطيرة حاكها موظفو شركة «الآي. بي. سي» البترولية الإنكليزية بإيعاز من رؤسائهم، وكانت غاية هؤلاء إثارة الفتنة الطائفية في حلب، إلا أن مؤامرتهم هذه أحبطت بفضل العقلاء من المسلمين والأرمن معاً، وتتلخص هذه المؤامرة فيما يلي:

استيقظ سكان حي الميدان ـ وهو من أحياء حلب النائية التي يشكل الأرمن أغلبية سكانه ـ استيقظ السكان في صبيحة أحد الأيام ليشاهدوا باب مسجد الحي قد لوث بالأقذار. وانتشر هذا الخبر في كافة أحياء المدينة انتشار البرق، وما لبث الاستياء الشديد أن شمل المدينة بأجمعها، وأخذ الغليان ينتشر بين صفوف الناس لإهانة مسجد إسلامي على هذا الشكل الإجرامي. وكاد الحادث يتمخض عن أشياء لا تحمد عقباها لولا أن سارع العقلاء من المسلمين والأرمن إلى عقد اجتماع فيما بينهم للبحث في أمر هذه الجريمة، وخلال هذا الاجتماع أعلن زعماء حي الميدان

---

(١) «المذكرات»: ٤/ ١٧٢. وإنما ذكرت الخبرين الأخيرين ـ مع انفصالهما ظاهراً عن موضوع الكتاب ـ لشدة اتصالهما بحال المستخرب العالمي في كل مكان، وتكريره فعل ذلك في كل البلاد التي لهم صلة بها من مصلحة أو غيرها.

من أرمن ومسيحيين لإخوانهم المسلمين أنهم على تمام الثقة واليقين بأن أحداً من رجال الطائفتين لا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل القبيح المنكر، وتم الاتفاق بين المجتمعين على مراقبة مسجد الحي مراقبة دقيقة، وكذلك مراقبة الأشخاص الغرباء الذين يدخلون هذا الحي، وبالفعل فقد رتب أمر المراقبة من قبل مندوبين عن العناصر الثلاثة بشكل محكم.

وبعد يومين من وقوع هذا الحادث شاهد المراقبون سيارة جيب تدخل الحي في الظلام، وتقف أمام باب المسجد ليترجل منها اثنان من ركابها، ويقوما بإعادة العمل المنكر «تلويث باب المسجد» وخلال قيامهما بهذا العمل وجدا نفسهما قد طوقا مع سيارة الجيب من قبل عدد من سكان الحي، وهكذا تم القبض على المجرمين متلبسين بالجريمة. وبعد التحقيق الدقيق تبين أن هؤلاء الشباب يعملون كموظفين في شركة «الآي. بي. سي» الإنكليزية في حلب، وأنهم قاموا بهذا العمل مرتين بناء على توجيه رؤسائهم»[١].

✿ ✿ ✿

فرنسا في شمالي إفريقية

ذكر الأستاذ كرد علي مثالاً على ما صنعه الفرنسيون في شمالي إفريقية من هول تشيب له الولدان، وهذا غيض من فيض، والأحداث المسطورة عما صنعه الفرنسيون في المغرب وتونس والجزائر أعظم من هذا بكثير، وهذا مثال فقط، فإليكم ما قاله:

من أفظع أنواع الاستعمار استعمار فرنسا، قام في كل قطر احتلته على نزع الثروة من أيدي الوطنيين، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة، ليكون لها منهم إلى الأبد عبيد وخَول يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد. قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها

---

(١) المذكرات: ٤/ ١١٥٨.

الإسلامية، وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأقطار فما شهدت ـ شهد الله ـ إلا الظلم المجسم وإرهاق الخلق باسم المدنية. وآخر ما قرأته في مجلة الثقافة المصرية (العدد ٤٣٨) مقالة للأستاذ عبد الجبار جومرد ذكر فيها تاريخ استعمار فرنسا للجزائر، وأتى نقلاً عن المضبطة الرسمية على نتائج فتنة الجزائر (١١ تموز ١٩٤٥) ونقل ما دار في المجلس الاستشاري، وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من أن الانتقام كان فظيعاً، ذلك أن قتل بعض الأوربيين أدى إلى إعدام تسعة وأربعين مسجوناً، ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لإتمامه أحد عشر شخصاً أيضاً أخذوا من صفوف المسجونين من أتموا به العدد، وقتلوهم كلهم رمياً بالرصاص.

قال: إن الوالي العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه إليه فقال: إن إحدى وأربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية فلم ينج منها ديّار ولا حيوان، وبما أن معدل سكان القرية الواحدة على الأقل ألف نسمة إن لم نقل: ألف وخمسمائة، فلا مغالاة إذاً أن نقرر أن عدد من قتلوا من المسلمين يختلف بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً، هذا إذا فرضنا أن نصف السكان قد فرَّ واعتصموا بالجبال.

تلك شهادة أفرنسي مسؤول في مجلس رسمي، وهذه عقلية الفرنسيس في كل بلد نزلوه وطمعوا في استعماره، هكذا كانوا في إفريقية وآسيا وأميركا، وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين.

ذكرني هذا بما نقله إليّ أحد أصحابي على لسان أحد أحباب فرنسا من اللبنانيين قال: إن في الفرنسيس الصالح وغيره، وأنه رأى برقية بالأرقام حلّت بحضرته أرسلها الجنرال ديغول المسيطر على فرنسا يومئذ إلى ممثلها في سورية ولبنان عندما توترت العلائق بين حكومة الجمهورية السورية وحكومة فرنسا، قال: يأمر المفوض الفرنسي أن يدمر ثلثي سورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها. وقال: إن هذا المفوض الفرنسي اكتفى بإهلاك بضع مئات من الأبرياء في مدن سورية، فأثبت صاحب فرنسا أن رجالها كانوا بين ظالم وأظلم، أما المسلمون فكانوا من هذه السياسة الخرقاء في

بلاء ليس بعده بلاء، وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن بلاد الإسلام ستخرج من حكم فرنسا إن لم يكن عاجلاً فآجلاً، ذلك لأن ظلمها بلغ أقصى حد لا تطيقه النفوس البشرية، ومهما استحلت فرنسا خنق الحرية في الأقطار التي استولت عليها؛ لا بد أن ينفض أهلها عنهم غبار الذل يوماً فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل إنسان فيه روح الإنسانية[١].

وقال الأستاذ أيضاً مبيناً تضارب فعل المستخرب الفرنسي الشنيع مع قوله الناعم:

«تناولت من فرنسا نشرة اسمها إيزوب *(Esope)* على اسم القصاص اليوناني الذي جاء قبل المسيح بستة قرون، وقرأت فيها ما اعتدت أن أقرأه في كلام من يخدمون الأغراض السياسية تحت ستار العلم، وخلاصة ما يدعو إليه هذا البيان الذي تدرأ ناشروه وراء أسماء مشهورة عندهم أن نشرتهم هذه لسان حال الاتحاد الدولي للفنون والآداب والعلوم، وزعموا أنه انضم إليهم ٤٧ عضواً عن سبع وأربعين دولة. وغايتهم أن يكون الحق لكل إنسان في مراسلة المعاهد العلمية عامة ومفاوضة أبناء كل أمة، وأن تطلق له الحرية في تناول الكتب والمطبوعات والرواميز وأدوات الصناعة، وأن يسمح لكل فرد بدخول خزائن الكتب ودور الآثار والأماكن التاريخية ومعامل الأبحاث التي تهم الطالب، وتُعنى بها أُمته والدول الأخرى دون أداء رسم، وأن يمنح كل إنسان حق الترجمة والنسخ وتحليل النماذج وغيرها مما فيه فائدة للثقافة العامة، وأن يخول الرحلة إلى الممالك بلا تشديد كبير، ويسمح له بالإقامة في كل مملكة المدة التي يراها ضرورية، وأن يستمتع بحريته في الأرض التي يحلها يكتب ويخطب ويلقي من المحاضرات ما طاب له، ويقيم كذلك الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية والأعمال الرياضية، وينشئ المعارض ويأخذ ما يشاء من أفلام

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٣٦ - ٧٣٧.

السينما، ويقوم بما يروقه من الحفريات والأبحاث، قال كاتب النشرة: إن الغاية المقصودة من ذلك بلوغ الكمال، وكل أولئك لا دخل للماديات فيه.

وكنت وأنا أترجم هذا أقول في باطني: ترى هل يقتصر أحرار فرنسا وغيرها من الأمم إذا تحققت لهم هذه الأماني على الأمم المستعمرَة، أم يعم خيرها الشعوب المستعمِرة فقط؟! وفرنسا الغالية في دعوى الحرية وخدمتها منذ وضعت أقدامها في شمالي إفريقية تحرم على أهلها أن يكونوا على اتصال مع إخوانهم في الأقطار الأخرى، لم تسمح لابن الجزائر ولا لابن تونس ولا لابن مراكش بأن يتراسلوا أحراراً ويتكلموا أحراراً ويعلموا أولادهم أحراراً ويجتمعوا أحراراً، ولم تسمح لأحد من أبناء هذه الأقطار الإسلامية الثلاثة أن يكاتب أحداً من أهل الإسلام في كل بلد نزلوه تحت أي داع كان.

وأظرف ما في هذه النشرة دعوة مؤسسها إلى إصلاح كتب التاريخ في كثير من الممالك؛ لأن ذلك هو المرحلة الأولى في كل حملة سلمية. ومعلوم أن فرنسا أول دولة أوربية أخذت عن العرب وغمطتهم حقهم في كتبها، وأول دولة بدأ تعصبها على المسلمين، فكانت أرضها أتون التعصب الديني انبعثت منه الحروب الصليبية المعروفة، وعم بلاؤها أوربا وهذا الشرق القريب مئتي سنة، وأول دولة أصلت من دانوا بالبرتستانتية ناراً حامية وقتلت منهم في يوم واحد مئة ألف إنسان، وشردت الباقي وهم عشرات الألوف في هولندة وألمانيا وغيرهما[(١)]».

❁ ❁ ❁

عتب ماسينيون على الأستاذ كرد علي:

ماسينيون من غلاة المستشرقين الذين افتقدوا الإنصاف في مواطن كثيرة من تقييداتهم وكلامهم على ديننا وبلادنا، ولما نشر الأستاذ كرد علي شيئاً من مساوئ

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٣٨ ـ ٧٣٩.

المستخرب الفرنسي الكثيرة بلغة هادئة «دبلوماسية» ـ كما يقولون ـ عاتبه ماسينيون!! وسبحان الله العظيم ماذا يريد منا هؤلاء بعد أن فعلوا بنا ما فعلوا، وإليكم كلامه:

«عتب علي الأستاذ ماسنيون لطعني في المذكرات باستعمار فرنسا، ونعيي على ظلمها المسلمين في شمالي إفريقية، وعجب أن ختمت صداقتي مع دولته بهذه الحملة المنكرة التي ما كانت تتوقع مني. وأنا أيضاً آسف أن يضطرني ظلم الظلمة إلى استعمال هذا اللسان مع فرنسا، خصوصاً وأنا أحبها، وأحب شعبها ولغتها وأدبها وعلماءها، ولي منهم أصدقاء أباهي بمحبتهم، ولا أنسى لطفهم ووفاءهم، وفي مقدمتهم العلامة ماسنيون[1].

وأنى لي أن أختار السكوت عن أعمال الفرنسيين في بلاد الإسلام والعالم المتمدن، ومنهم بعض أهل فرنسا، تألموا يوم ضرب جندهم دمشق، وخربوا دار ندوتها، وكانوا تحينوا وقت انعقاد مجلس النواب فقذفوه بحممهم ليقضوا على المجلس ومن فيه، دع ما أتوه من الفظائع في سائر مدن هذه الديار، وكل ذلك ليكرهوا سورية على قبول معاهدة تنافي مصلحتها. ولا أعرض هنا لما ارتكبه جيشهم في الثورة السورية، فقتلوا الأبرياء في بيوتهم وحقولهم وفي الشوارع والساحات، وخربوا بقنابلهم وقذائفهم جزءاً مهماً من مدينة دمشق، ودكوا كثيراً من معالمها التاريخية، ودمروا قراها وأريافها، فكانت الخسارة عظيمة لا تعوض.

سار الفرنسيس في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم، لم يغيروها منذ هبوا يعتدون على الشعوب الضعيفة، يزهقون أرواح السكان بلا رحمة، ويستصفون أرضهم بغير الحق، ويمنعون التعليم عنهم ليبقوهم بهائم في صور آدمية. ومن هنا أتت كراهية المسلمين للاستعمار الفرنسي، ولعنهم زبانيته في السر والجهر. ومتى أحب المظلوم ظالمه؟ ومتى صفا قلب المستعبَد لمستعبده؟[2]».

---

(١) وهذا مستشرق خبيث حاقد، فكيف يحبه كرد علي!!

(٢) «المذكرات»: ٤/ ١٠٠٣.

كراهية المسلمين للمستخربين الفرنسيين وغيرهم

كانت فرنسا قد فعلت أفعالاً شنيعة في الشام وشمال إفريقية مما استوجب كراهية المسلمين لها، وإليكم تصريحاً عجيباً لأحد مشايخ الأزهر، يمجد فيه فرنسا، فإن ثبت أنه قال فهذه سُبَّة في جبين الأزهر ـ ولا شك ـ أن يتفوه شيخه بمثل هذا الكلام، وقد رد عليه الأستاذ كرد علي بعد أن أورده قائلاً:

«نشرت الأهرام لمراسلها في باريز (٩ فبراير ١٩٤٦) تصريحات زعمت أنه أفضى بها شيخ الجامع الأزهر الأستاذ مصطفى عبد الرازق لمكاتب جريدة (الموند) الباريزية قال فيها: إن فرنسا اكتسبت لنفسها مكانة ممتازة بما بذلته من الجهود الكريمة في الحقل الثقافي خلال العالم الإسلامي، وأنه يرجو ألا تتخلى عن تقاليدها لكي تحتفظ بما يكنه لها العالم الإسلامي من حب.

هذا الحديث ذو شقين أحدهما صحيح في الجملة والآخر ليس كذلك في التفصيل. أما أن فرنسا بذلت جهوداً في ثقافة العالم الإسلامي فهذا صحيح من بعض الوجوه، وإن كانت الأغراض التي ترمي إليها من وراء ذلك ظاهرة معروفة، وقد أتت في هذه السبيل ما تأتيه كل دولة استعمارية، فكان من مدارسها خير وشر.

أما الشق الثاني فهو الذي ترد على عدم صحته براهين كثيرة، ونظرة في حال مسلمي شمالي إفريقية وأهلها؛ الذين اختلطوا بالفرنسيين كثيراً ندرك بها هل يحب أهل مراكش والجزائر وتونس فرنسا، أم يكرهونها كراهة ليس بعدها كراهة، وكيف يحبونها وقد اغتصبت أراضيهم من أيديهم يوم دمرت على ديارهم وأعطتها للمستعمرين من أبنائها. وسعت منذ وطئت أرض الجزائر في سنة ١٨٣٠ أن تحل جامعتهم، وتقضي على لغتهم، ثم حاولت أن تجنسهم بجنسيتها، وتلقنهم تربية لا تبقي على مشخصاتهم. وليس في مسلمي تلك الأقطار ـ ولا سيما في الجزائر الطويلة العهد بحكمهم ـ من يعد من عظماء الرجال في العلم والسياسة والفنون على نحو ما ترى في مصر والشام مثلاً، وليس لهم من الثروة ما يعد شيئاً بالقياس إلى ثروة أبناء

هذين القطرين، بل إن مستوى المعيشة فيهم أقل من مستوى المعيشة في أحط الأقطار العربية، فالقول بأن العالم الإسلامي يكنّ لفرنسا الحب بعيد كل البعد عن الواقع؛ فإن ما اجترحته فرنسا في سورية من التدمير والقتل في السنة الماضية ما زال ماثلاً للعيان، وكل ما ذكر ترتجف منه الأعصاب.

ولقد أكد لي أحد العارفين أن مكاتب الجريدة حرف كلام الأستاذ الأكبر، وبادرت فرنسا بإهدائه وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير، وما أدري إن كان المهدى إليه قبل هذه الهدية، وقد أحدثت هذه التصرفات ضجة في الصحف المصرية والشامية، وسكت صديقنا الشيخ مكرهاً على ما يظهر[(١)]».

✿ ✿ ✿

طمس الحق

قال لي صديق عزيز عليَّ أنه قرأ كتابي الأخير «دمشق مدينة السحر والشعر»، وكان يود لو أغفلت ذكر ما قامت به فرنسا من الإصلاحات في سورية في عهد الانتداب، فإن تسجيل ما سجلت ـ وإن كان حقاً ـ هو مما يضر بنا، وما كل حقيقة تقال، هذا رأي أشبه بآراء رجال السياسة والناقد الحبيب منهم، أما المؤرخون فقلما يجوزون السكوت عما يعتقدون أنه الصواب، وقول الحق من أهم شروط المؤرخ، والتاريخ يسجل الخير والشر. ثم إن غمط حق عدوه كان حرياً أن يتهم بالعصبية لصديقه، ومقترف ذلك يزيل بصنعه مسحة الصدق من كلامه، ويفقد ثقة الناس، ويكسب سبة الدهر.

الفرنسيون في آخر أيامهم في الشام أساؤوا إساءة ليس بعدها إساءة، قذفوا مدننا بحممهم فقتلوا الأبرياء وهدموا البيوت، وأتوا على المصانع، فأنكر العالم وأنكر عقلاؤهم هذا العمل المشين، وتضاف هذه الإساءة على جريدة جنون أهل الغرب في

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢.

هذه الحرب، وكل هذا لا يستلزم أن ننكر ما تم على أيديهم من الإصلاحات في الشام أيام انتدابهم عليه.

وقد ارتكب الفرنسيون سبة أعظم في الأثر من القتل والتدمير، ارتكبوا العار بإفساد الأخلاق بنشر الجاسوسية بمقياس واسع، وجعلوا من بعض التلامذة والمعلمين جواسيس نمامين. وأغرقت فرنسا في جاسوسيتها فكانت لا تقر تعيين آذن أو فراش إلا إذا شهدت دوائر الاستخبارات بحسن حاله، والويل لمن كان في جزازته الخاصة شيء لا يرضيهم من سيرته؛ فإنه يحارب في رزقه ويبقى من المغضوب عليهم حتى الممات، والفرنسيون أجرموا في العهد الأخير مع أنفسهم، فلا يتوقع منهم إلا أن يجنوا على غيرهم، ومع كل ما أتوا ليس هناك ما يحول دون قول الحق فيهم فيما أحسنوا»(١).

❋ ❋ ❋

---

(١) ٢/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

المبحث الثالث:

فساد الولاة والرؤساء والحالة السياسية

أفاض الأستاذ كرد علي في بيان حال الولاة والرؤساء قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها إلى الحرب العالمية الثانية وبعدها، وذكر لهم من المآسي والمخازي ما نعلم معه لماذا سقطت البلاد سريعاً بيد الفرنسيين، ولماذا أيضاً تردى حالها أثناء وجودهم وبعد انقلاعهم، فقد كان همهم الثبوت على كراسيهم، وجلب المصالح لأنفسهم ومن يدور في فلكهم، وإضاعة شعائر الدين أو في أحسن الأحوال عدم الاكتراث بها، وعدم تطبيق شرع الله في الناس وفي أنفسهم، والاختلاس من مال الدولة، وتقريب غير أولي الكفاءات، ومحاولة إبعاد كل ذي علم أو كفاءة أو إخلاص واستثقال وجودهم إلى آخر ما ذكره من أمور، اصطفيت لكم منها ما يلي:

❁ ❁ ❁

تبذير بعض الولاة

وهذا من الأمور المرذولة، خاصة إن كان الناس في فقر وفي حاجة، وإليكم ما قصه علينا الأستاذ كرد علي من حال أحد الولاة العثمانيين لما زوج ابنته، حيث قال:

«لما احتفل أحد عمال الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر بدمشق (١١٥٦) بزواج ابنته خص كل يوم بجماعة ـ فكأنه قسمهم إلى طبقات ـ فكان اليوم الأول للوالي، والثاني للعلماء والمشايخ، والثالث للأغوات، والرابع للتجار والباعة، والخامس للنصارى واليهود، والسادس للفلاحين، والسابع للقينات والمومسات.

قال أحد المؤرخين: إن صاحب العرس أكرم هذه الطبقة إكراماً زائداً، وفرق

فيهن الذهب والفضة. وكان قبل يوم العرس عمل تهليلة لجميع مشايخ الطرق حضرها الخاص والعام»[١].

✿ ✿ ✿

حال مجلس النواب (البرلمان)

أرادت بعض الدول العربية أن تسير في طريقة حكمها على الطريقة الغربية حذو القذة بالقذة، فمن ذلك أنها أنشأت مجلساً للنواب، وليت المجلس سار على هيئة المجالس الغربية في نزاهة الانتخاب، والإتيان بالأفضل - غالباً - لا، لكنه كان كالغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحمامة، فما أتقنها وما استطاع العودة إلى مشيته.

وإليكم معاشر القراء صورة على هذه المجالس المضحكة صورها لنا الأستاذ كرد علي، وهي ما زالت بعد قرابة ثمانين سنة منطبقة على أكثر مجالس النواب في الدول العربية اليوم:

✿ ✿ ✿

مجالسنا النيابية

«لما عهد إلى السيد سالازار بوزارة مالية البرتغال اشترط شرطين أحدهما: ألا تعتمد الحكومة في موازنتها مالاً لتصرفه في الانتخابات، والثاني: ألا تنفق وزارة من الوزارات شيئاً دون إشرافه على صرفه، وبذلك استقامت موازنة البرتغال، وكانت منذ مئة سنة من الموازنات التي لم يتعادل دخلها وخرجها. وشرع الوزير ورصفاؤه بمشاريع شغلوا بها اليد العاملة، فعمرت مملكتهم، وصلحت حال أهلها.

---

(١) المذكرات: ٣/ ٧٢٦ - ٧٢٧.

إنا لله وإنا إليه راجعون، هكذا انهزم المسلمون، وفتحت أبواب بلادهم أمام المستخرب الصليبي.

والتهليلة هي قول لا إله إلا الله، يجتمعون ليرددوها آلاف المرات!!

أما حكومات الشرق العربي السارية على النظام النيابي فتعتمد مبالغ عظيمة للانتخابات لتضمن لها الأكثرية في المجلس، ويدوم حكمها ويخفق منافسوها، ولا يفوز بالنيابة فيها على الغالب إلا الجاهل الذي يستجدي الأصوات أو يبتاعها، وعند نفسه أنه يفادي بالمئة ليحصل على الألوف، وغايته أن يقعد على مقاعد المجلس، ويرفع يده بالموافقة على آراء جماعته.

رأيت أصنافاً من النواب كان من أعظم الجرائم توسيد هذه المهمة الشريفة لهم، فمنهم الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ومنهم من دأب طول حياته على التجسس لكل صاحب سلطة، ومنهم من سعى بشباب قومه وشهد فيهم الشهادات التي ساقتهم إلى حتفهم، عين نائباً مراعاة لخاطر أحد ذوي قرباه من ساسة لبنان، فجلس بضع سنين في كرسي النيابة ولم يؤثر عنه أن قال كلمة في المجلس، وقصاراه أن يقبض الراتب، وإذا عهد إليه أمر أفسده، وإذا وصلت إلى يده أموال ابتلعها، وكان سمساراً لطلاب الوظائف يعين لكل وظيفة ثمناً، ورأيت نائباً آخر غرق في الجاسوسية للغريب، وكان آلة شر في إحدى الثورات، وقتل كثيراً من الأبرياء بأيدي سادته الذين تطوع في خدمتهم، ولا شأن له اليوم إلا إمداد بعض المقامات العالية بالأخبار التي يرتاحون إلى سماعها كأنه بعض رجال الأمن والمباحث. ومن خلا ذهنه من معاني الحرية كيف تطالبه بإقامة صرحها والعمل لما يصلحها؟! ويكفي أن يقال إن هذا النائب لا يعرف الغرض الذي جاء لأجله، وليس له مزية من مزايا الرجال.

ولو قد كتب لك أن تطارحه الحديث في أبسط المسائل لتبينت مبلغه من العقل والمعرفة، ولأيقنت أنه ممن تملكته العامية وليدة الأمية البغيضة.

حقيقة أن الحكم النيابي الذي أتانا به الغرب ينطوي على سخف كبير، وحكم يقوم على مثل هؤلاء النواب لا ينشأ عنه غير الخلل في إدارة الدولة وسياستها، وفي الغالب إذا اجتمع جماعة لأمر عام أن يضلوا طريق الصواب، ويتبع قويهم ضعيفهم، وعالمهم جاهلهم، وإن كان الحق مع هذا القوي وهذا العالم، ويكون القول الفصل

للثرثار لا لصاحب الأناة والتعقل، ومجالس مؤلفة من مثل هذه الأعضاء المؤوفة يملي فيها الشياطين إرادتهم والباقون يؤمنون على كلامهم بلا فهم من أضعف المجالس.

حاول أحد النواب وضع اقتراح في المجلس يفيد العدالة، وذلك بإمتاع القضاة بالحصانة القضائية، ووافقه على رأيه خطأً أكثر من أربعين نائباً، فلما نظر وزير العدل إلى المتآمرين ساعة المناقشة في الموضوع نظرة فهموا منها التهديد امتنعوا عن إعطاء الرأي، ونسوا تعهدهم لزميلهم، ذلك لأن لهم قضايا في المحاكم إذا أغضبوا الوزير يخسرونها، وهم ممن لا تهمهم غير مصالحهم الخاصة، ولو كان ما يقررونه قميناً[1] بأن يعيد العدل العمري إلى الأرض.

فأي نفع يأتي على مثل هذه الأيدي؟ وهل يطيب لحكومة تحترم نفسها أن تصل إلى الحكم بواسطة أمثال هؤلاء الجهلاء ومن اختاروهم من العامة في المدن والقرى؟ وأقسم بالله أن جزءاً من النواب لا يدركون مغزى المناقشات التي تدور في المجلس، ومنهم من ينام أو يتناوم ويرفع يده متى طلب منه إعطاء الرأي، وأحب التزلف إلى رئيس حزبه أو زعيم جماعته، ومنهم من لا ينتبه عند التصويت ويغلط فيعطي رأيه للحزب المخالف له. ومن الغريب أيضاً أن مثل هذه الطائفة من النواب لا تحضر الجلسات النيابية بصورة مطردة، تفر من واجبها كما يفر الأطفال الكسالى من المدرسة[2]».

❁ ❁ ❁

حال بعض الرؤساء وفساد سياستهم وسوء فعالهم

كان كثير من الرؤساء غير مخلصين، وبعضهم كان عميلاً للاستخراب العالمي،

---

(١) أي: جديراً.

(٢) المذكرات: ٣/ ٦٦٢ - ٦٦٣.

وبعضهم كان مغروراً إلى آخر القائمة المزعجة من الصفات غير المرغوبة، وإليك حواراً جرى بين الأستاذ محمد كرد علي والشيخ تاج الدين الحسني رئيس وزراء سورية آنذاك يوضح ما أريده، حيث قال الأستاذ:

«ما كان الشيخ تاج في الواقع يرغب في كتابتي كثيراً، لأنها لا تعبر عن كل ما يجول في صدره، رجاني أن أكتب له ترجمة حياته فكتبتها له في صفحة واحدة، فلم ترضه، وبعد أيام ضحك وأخرج لي ورقة وقال:

انظر ما كتبوه لي، وإذا بترجمة حياته كتبت بمبالغات مدهشة، كان أقل ما فيها أن دمشق لم تخرج من عهد معاوية بن أبي سفيان رجلاً من عيار تاج الدين بن بدر الدين، بدهائه وحلمه وعقله، فضحكت وقلت له: من كتب هذا؟ فتلكأ ولم يجب. فقلت له: أخبرني فقال: فلان، أحد أرباب الجرائد، فقلت له: لا عجب، فالكتابة عند هذه الطبقة على مقدار المنفعة. افهم هذا عني، إن هذه الترجمة سخيفة جداً وأعداؤك ينالون بها منك. ما معنى قول من تبرع لك بهذا الكذب أنك أحلم وأعقل ممن جاء بعد معاوية بن أبي سفيان؟ وهل ترضى أن يخدعك مخادع بمثل هذا الكلام؟ إن على هذه الأرض مشى خلفاء وملوك وعلماء وعظماء ما أخرج التاريخ أعظم منهم، على هذا الصعيد «يا شيخي» مشى سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وعليها مشى الرشيد والمأمون، وعليها مشى نور الدين وصلاح الدين، وعليها مشى ابن تيمية وابن عساكر. فإذا نشرت هذا كنت محل نقد العقلاء، فطواها، وأظنه لم ينشرها.

كما نقش اسمه على كل مخفر وحائط ودار حكومة وجامع وجسر ومدرسة بنيت أو رممت في أيامه، فلما جاءت حكومة الكتلة حطمت كل ما ذكر اسمه عليه من الأحجار.

كدت أخشى أن يقول من يقرأ بعض فصول هذه المذكرات: إني جعلتها كتاباً أنال به من بعض المنظور إليهم. إنها الحقيقة التاريخية أدونها، وإذا ثلجت نفسي

بقول الحق، لا أبالي أن أقول ما قاله أبو ذر الغفاري: «قول الحق لم يدعْ لي صديقاً»، وإذا كان القوم لم يعتادوا سماع الكلام على الرجال بهذا الأسلوب، وهذه الحرية، فأنا لا أستطيع أن أقول فيهم غير الذي عرفته، ولا أن أبتدع لهم قرائح لم يرزقوها، وغاية ما أتحراه ألا أتقوّل عليهم. فاسمع هذه القصة تتمة لهذا الباب العجيب الذي طال إلى ما لا أريد.

حقي بك رئيس وزارة، ووكيل رئيس مجلس الشورى ما أظنه على طول مقامه في الرياسات خالف المنتدبين(١) في مسألة واحدة، وكان يجيب على كل مسألة تعرض عليه بالإيجاب والقبول، حتى لقد قال أحد رجال الانتداب، وقد أضجره باستكانته، وسرعة موافقته على المسائل المعروضة: إنا نريد رئيس وزارة يقول لنا تارة نعم، وتارة لا، لا أن يقول لنا نعم دائماً فإن هذا لا فائدة فيه. ولذلك سماه وأمثاله بعض الظرفاء بالواوية أي الذين يقولون أبداً «وي» *oui*، ويقال في أميركا لهذا الصنف من الناس الذي يجيب إلى كل ما يطلب (يسْ مان)». وظل حقي بك منذ أول الاحتلال إلى عهد قريب في منصّة الحكم حتى تقاعد.

ومن مزايا حقي بك أنه مهذب تهذيباً تاماً، وأقرب إلى الخير منه إلى الشر، وعفيف عن أموال الدولة، ويعتقد بصحة مذهبه لا يوارب فيه.

فقد قال منذ أول يوم أتى الشام من مصر، وكان ينزلها من سنين طويلة: أنا إفرنسي، وكل ما يصدر عن الإفرنسيين صواب، وظل ثابتاً على رأيه لم ينافق كغيره ممن يعمل إذا وظفت له وظيفة كأعظم الانتدابيين، وإذا صرف من الخدمة شاغب وادعى الوطنية وبكى وناح على حقوق سورية الضائعة.

ومن خطيئات حقي بك تذرعه أحياناً بتوظيفه أشخاصاً في سيرتهم ما ينفر منهم، وكنت في القريتين فاتصل بي أنه عين أو كاد قائم مقام عليها رجلاً حرص على تعيينه في خدمة الحكومة، فكتبت له أذكر ما أعرفه من سيرته، فصرف النظر عن تعيينه.

---

(١) أي: الاستخراب الفرنسي.

وبعد سنين أصر على رئيس الجمهورية لجعل صاحبه مدير شرطة دمشق فقال له الرئيس محمد علي بك العابد: يمكن تعيين هذا الرجل وزيراً ورئيس وزارة ورئيس جمهورية ولا يمكن أن يكون مديراً للشرطة، فأصر حقي بك على تعيين مرشحه، فقال له رئيس الجمهورية، على فرط حلمه وتهذيبه: أنا لا أقدر أن أعمل مع من لهم مثل هذه العقلية، وكان رئيس الجمهورية على حق في هذا الرفض، لأن الموصى به على غاية الاقتدار في القوانين، وقليل البضاعة من الأخلاق»[1].

وقال الأستاذ كرد علي في أحد الرؤساء ـ وهو شكري القوتلي ـ:

«كان الرئيس يعبث بالقضاء، فمن يحكم له من القضاة بما يروقه يرقيه ويرفع مقامه، ومن يجري مع القانون يوبخه وقد ينحيه، أو يحول دون ترقيته.

فقد حكم على أحد أرباب الصحف بإهانة الرئيس، ولما لم يحكم القاضي النزيه بالقانون العثماني أي لم يقس القذف في الرئيس على القذف بالملك، ولم يعتبر رئيس الجمهورية ملكاً أقصاه ونبذه، أما الذي تفوه بما يسقط من قدر الرئيس وحكم القاضي عليه حكماً جائراً فأعلى الرئيس مرتبته وأرضاه.

وله أشياء من هذا القبيل لا يليق صدورها من المهيمن الأول على القانون، فقد اختلف مع بعض جيرانه على حدود أرض، فاضطر الموظف المختص أن يرضيه بالباطل ومستندات خصومه شاهدة أن لهم الحق دونه، وأكره وزارة الأشغال أن تفتح طريقاً ليتصل من مزرعته بأرض له بعيدة وهي سبخة ونزة لا تصلح للزرع، فاستلزم قطع أشجار مثمرة من جانبي الطريق، وكذلك ألزمها بفتح طريق بيت أمه، فأنفقت في ذلك نفقات باهظة كانت طرق أخرى أحق بهذه العناية.

ومنها أنه كان يستعمل بضع سيارات على حساب الحكومة يخص بعضها بركوبه، وأخرى بحرمه، وبعضها لأولاده، وبعضها لبناته، وسيارتين لصهريه.

---

(١) المذكرات: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٩.

ومنها إعطاؤه لأحد شعراء المهجر خمسة عشر ألف ليرة سورية، وأنفق عليه ما يقرب منها مدة إقامته في عاصمة الجمهورية، وأعطى عشرات الألوف من الليرات لمن مدحوه أو كتبوا رسالة أو كتاباً باسمه، ومن تغنوا بمحامده فيما كتبوا من كتب أغناهم.

وكان يعطي بعض الصحافيين بلا حساب لأنهم رضوا أن يكونوا أبواقاً لتمجيد سياسته، ومن غلط غلطة واحدة من أرباب الصحافة أوعز إلى المحاكم أن تشدد عقوبته وتغرمه الغرامات الثقيلة. وكان يصرف جانباً من أوقاته في مثل هذه المسائل.

ولما كان من طبعه حماية أهل الطبقات النازلة لم يجوِّز إزعاج من كان يشملهم بلطفه وعطفه ولو كانوا من الجناة الأشقياء، ومنهم أحد المفاتي في قضاء ثبت أنه لص كبير، وجان تعددت جناياته، بتحقيق قاضيين نزيهين، فلم يرض أن ينحيه لأنه كان ينادي يوم الجمعة من أعلى المنبر: اللهم انصر أمير المؤمنين شكري القوتلي، وكان هذا الخطيب يدعو بمثل هذا الدعاء البارد على عهد الانتداب الافرنسي فيقول: اللهم انصر فرنسا وجيوشها.

ولعل هذا المفتي السخيف كان ممن يمهد للسيد القوتلي دعوى إمارة المؤمنين.

ويتلخص ما أتاه الرئيس من الأعمال النابية عن القوانين في المواد التالية:

(١) العبث بالدستور وقد أقسم أن يحافظ عليه.

(٢) انتخاب نواب حزبه بالتزييف والضغط.

(٣) إفساد بعض النواب ليتم الإجماع على انتخابه.

(٤) اعتماده على أرباب الدعارة وإعطاؤهم الأموال والسكر والأرز والحنطة والبترول والمازوت من مال الدولة بمقادير عظيمة جداً حتى اغتنى أكثرهم.

(٥) إفساد طلبة المدارس بإعطائهم رواتب من الدواوين، وهم لم يتموا دروسهم ولم يوظفوا على الأصول.

(٦) استهزاؤه بنصح العقلاء من الوطنيين وثقته العمياء بالجهلاء.

(٧) إسرافه البالغ بأموال الجمهورية، وحمله البرلمان على اعتماد أموال عظيمة لم يعلم محل صرفها.

(٨) إدخاله في خدمة الحكومة الأفاقين والأميين من أسرته وأنصاره، ومنهم من كان يعطيهم عدة رواتب، وكذلك يعطي بعض الوزراء الراضي عنهم تعويضات باهظة.

(٩) أخذه بيد شاب من النواب حتى ألف حزباً خطراً من برنامجه القيام بثورة، وقد أعد لها عدتها بالفعل.

(١٠) لم يحقق مدة حكمه شيئاً يعتد به من أعمال الإصلاح على كثرة ما دخل خزانة الأمة من الأموال الجسيمة.

وكان على الرئيس وهو يعرف أنه مصاب بمرض عضال، أن يتنحى عن الرئاسة من تلقاء نفسه، فالمريض يحتاج إلى من يدبره ولا يرجى منه أن يدبر مملكة.

كان الرئيس قبل رياسة الجمهورية يتكرم من ماله فيحمد أو يذم، فلما تولى الرئاسة غرف في الجود من مال الأمة فتبرمت بإسرافه.

كان الرئيس ثورياً يحب الثورات ويمتدح الثائرين ويبالغ في إكرامهم، وشاء القدر أن يُصرف بثورة، وما ظلمه أحد، بل هو الذي ظلم نفسه بإهماله ما عهد إلى أمانته.

كان خروجه على القوانين بادياً لكل ذي بصيرة، حتى خيل لنا أنا عدنا إلى العصر التركي أيام كان الوالي يحكم بلا محاسب ولا مراقب. وأصبح الحكم الجمهوري الذي يراد به رفع تسلط الأفراد حكم الهوى لا حكم القانون.

الشكل دستوري مدني والفعل استبدادي عامي.

ولطالما نصح له العقلاء، ومنهم من كتب له التقارير في بيان طرق الإصلاح،

وجاءته عدة وفود تصارحه في سوء مغبة السياسة المتبعة في الإدارة، فكان يؤلمه أن يسمع ما يخالف أغراضه، ويقلب الحديث من جد إلى هزل، وقد يبتسم ويسكت ويتأفف من مخاطبه ويتجهم له، ويود لو عجل الانصراف من حضرته.

كان رئيس الجمهورية الثالث ضعيفاً في إرادته، قوياً في حزبيته، مسرفاً بماله ومال غيره، حريصاً على تحقيق رغائبه الخاصة، أخطأ طريق المجد، وما عرف اختيار الأسباب التي تعين عليه. ومن الإنصاف أن يقال: إن له فضلاً على القضية الوطنية، وقد ثبت أنه في الأمور السلبية أقدر منه في الأمور الإنشائية الإيجابية.

وقال أيضاً واصفاً حال هذا الرئيس:

«اختلس مدير المؤسسة التعاونية نحو ثلاثة وعشرين ألف ليرة، وثبتت سرقته بمعرفة مفتش نزيه، فلم يرض الرئيس بمعاقبته على سرقته وقال: إنه ليس في حكومته عشرة شبان من عياره، وأمر أن يتركوه له ليوليه منصباً في السلك السياسي، أي: أنه أزمع أن يرسل إلى الخارج لصاً يمثل سورية.

كان الرئيس مغرماً بالدخول في كل أمر من أمور الحكومة والرعية حتى ولو كان مما لا يدخل في خصائصه، ولا يليق أن يتذرع به. وكان بعض معتمديه يتلاعبون ما طاب لهم التلاعب، ويشاركون في أمور لم تجر عن رأي سيدهم، أو كانت في نظرهم من المسائل التي لا ينكرها إذا اطلع عليها، بما فطر عليه من سعة الصدر مع بطانته. حدث أن أرسل أحد صنائعه إلى أوربا في مهمة سياسية، فسرقت منه مومس مفتاح المفاوضة بالأرقام وغير ذلك من الأسرار، فعفا عنه وأعاده إلى الخدمة بعد هذه الخيانة المخزية.

ومما خالف به الروح الدستوري جهاراً طلبه اعتماد أربعة ملايين ليرة سورية، فقررها النواب وهم لا يعرفون وجه صرفها، ثم تبين أنه كان ينوي السفر إلى العراق، ولما لم يذهب بقي المبلغ معلقاً في الفضاء ولم يعرف أين صرف بعد ذلك.

وكانت توصيات الرئيس إلى الوزارات والدواوين لا تنقطع، وقلّ أن يكون للمحق نصيب من عنايته كما كان للمبطل، ذلك أن صاحب الحق موقن على الأغلب أنه يصل إلى حقه بمراجعة الطرق القانونية.

وكلمة واحدة يرسلها أحد مستخدمي قصر الرئاسة في الهاتف أو في بطاقة تقدم وتؤخر في مستقبل شخص، أو تقضي على حق ظاهر وتقر غبناً وتستر عسفاً، والسابق إلى الشكوى هو الفائز أبداً. والويل لمن لا يرق له قلب الرئيس أو أحد حاشيته أو بعض أفراد أسرته وأتباعه.

أراد الرئيس مرة أن يُدخل فتاة جميلة من بنات الأعيان إلى القصر الجمهوري يعهد إليها أمر التشريفات مع الأجانب، بحجة أنها تحسن لغة أجنبية، على أن تتناول راتبها من وزارة المعارف. ولما كان القانون يمنع من انتداب السيدة على هذا الشكل غضب الرئيس على مدير المعارف، وما وقاه الله شر غضبته إلا سقوط الرئيس.

وأتاني مرة كتاب من أحد المستخدمين في القصر الجمهوري يقترح انتخاب أحد المتشردين من لبنان عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي، قائلاً: إنا إذا انتخبناه عضواً يكون رئيس المجمع اللبناني العتيد ـ والمجمع اللبناني لم يؤسس ولم يجتمع إلى اليوم ـ وكان الرئيس يكتفي لو أنصف بما يعرض عليه من جواب أن يعرف صاحب الإدارة أعرف بما يصلح إدارته وما لا يصلحها، ولو كان في ديوانه من يعرف قانون المجمع في اختيار الأعضاء ما كتب على لسان سيده هذه الوصاة المخجلة.

قلنا: إن الرئيس كان يعطف على أناس يرى في اصطناعهم قوة له، ومن الأسف أنهم خذلوه يوم عزله، وتناسوا أياديه عليهم، وراحوا يعرضون خدمتهم على خلفه متخاضعين متذللين، ولطالما انخدع هو بظواهرهم، وجاز عليه هذيان من كانوا يختلفون إلى مجلسه ويغرونه بسلطاتهم، ومنها أن الأمة كلها لا تتخذ عنه بديلاً، فنام مغتبطاً بأكاذيب الكذابين.

وما كان يرضيه من عماله إلا من ينافقه على النحو الذي يبتغيه، ومن يجرؤ عليه

فيصدقه الحقيقة ينبذه ويقصيه، لذا كان من سياسة جماعته أن يدهنوا له إلى أقصى ما يسعهم من ضروب الدهان، وأن يكتموا الحق عنه لأن نفسه لا تحتمل وقعه فيها. وإذا فاتحوه بما لا تهوى نفسه نصب لهم عداوة تنمو أبداً ولا تنقص.

ومن البلية أنه كان محاطاً بموظفين يخلصون فقط في قبض الرواتب وما وراءها من هدايا وعطايا، ولذلك يتفانون في الإبقاء على حسن العلائق معه، ليبقوا في مناصبهم أكبر مدة، ومنهم السيد محسن البرازي من وزرائه. سمعته في حفلة أقيمت في مدرج الجامعة السورية برئاسة الرئيس يخطب فيمتدحه مدحاً لم يبق بينه وبين الألوهية إلا خطوة واحدة، حتى خجل الحضور من سماع هذا النفاق البايخ، وكاد بعضهم يصفر استهجاناً، وما خجل الوزير من قوله لأن الرئيس لا يرضيه منه غير هذا، والله أعلم بما كان يقول له في الخلوة حتى يستديم عطفه. ويقال: إنه خانه بعد أن متعه بثقته زمناً وأعطاه من مال الدولة كثيراً، وكان يفرضه على كل وزارة تؤلف، وينتدبه في المهمات، ويرى فيه له الإخلاص الكامل.

كان عقلاء الأمة والرئيس في منصبه يصونونه عن النقد بعض الشيء مخافة أن يؤدي ذلك إلى التشهير به، والرئيس رمز الأمة. وكان إلى ذلك في مقام يسهل عليه الانتقام ممن يغضب عليه، أما وقد ذهبت الخشية من بطشه، فالعقل يقضي أن يصارح بما أتى، ويذكر شذوذه في الحكم من دون تزيد ولا غلو. وليس بدعاً أن يسأل الآن عما اقترف، فقد جرت العادة أن يحاسب صاحب المهمة عند انتهاء مهمته، ومهمة الرجل تمت يوم اعتقل في قلعة المزة[١].

وقال الأستاذ أيضاً ـ مبيناً حال بعض المسؤولين:

«عمل الوزير عظيم لا يضطلع به إلا من جمع إلى العلم تمريناً وإلى السياسة خلقاً. ويتخرج الوزراء عندنا في مدرسة الأحزاب والمحافل والأندية وأروقة المجالس النيابية، ومن كانت لهم دراسة خاصة وتجربة سابقة هم الصدور المقدمون.

---

(١) «المذكرات»: ٤/ ١١٤٥ ـ ١١٤٧.

والأحزاب قد تختار نوابها وتجيد الاختيار وبالعكس. والنائب قد يصل إلى كرسي النيابة بكفاءته وفي الأكثر بجربزته وواسع حيلته، ومعظمهم يطلب رضا المحافل الماسونية، وما زال مغروساً في العقول أن الماسونية قوة لا يستهان بها يصل منتحلها إلى المناصب، وبها يحمي نفسه من القوانين وسيطرة الرؤساء.

المستوزرون إلا من كان على شيء منْ عزة النفس يتحسسون المرجع الفعال في تنصيبهم فيتقربون إليه بما يقنعه بحسن بلائهم، ويحمله على استدعائهم في حالة شغور المنصب، وعندنا أن من تقلد الوزارة مرة حق له أن تكون له الأولوية أبداً، والعامل الأكبر في تكرر مجيء الوزير إلى الحكم أن يرضى عنه من بيده تعيينه، والأمة تختلف درجة حظوته عندها، وفي الأغلب أنها لا ترضى كل الرضا عن الرجل ما دام قابضاً على السلطة، فإذا اعتزل أو أقيل برد حقدها عليه، وربما عادت فاختلقت له المحامد. وما برح الرأي العام في ديارنا يتحرك بحركة الأغراض لا يعرف الثبات والاستقرار، والمرضي عنه اليوم مغضوب عليه غداً، والناس أبداً أقرب إلى الطعن المبرح فيمن كان لهم نصيب من الحكم منهم إلى المدح المعقول.

ورأينا بعض من اختارتهم السلطة المنتدبة للوزارات في سورية ولبنان من الأكفياء لمناصبهم، وكذلك من جاؤوا بعدهم على عهد الجمهورية، وتولى الوزارات من تنقصهم أشياء كثيرة، وأهم ما كانت تعوزهم الأخلاق، ومنهم العجزة الذين لا يستطيعون أن يحلوا مسألة واحدة بأنفسهم وقد اعتادوا ألا يسيروا إلا تحت يد من سيرهم، وغرامهم أبداً بقضاء مصالحهم الخاصة[١]».

ومن أحوالهم الأليمة ـ أيضاً ـ ما ذكره الأستاذ كرد علي، وهو على طوله مفيد جداً في بيان أحوالهم، وبها نفهم لماذا تغلب علينا الكفرة وداسوا بلادنا:

اتفق أن وسدت رياسات الوزارات لأناس لا عهد لهم بالحكم والإدارة، فمن

---

(١) المذكرات: ٣/ ٨٥٧.

حقي بك العظم إلى صبحي بك بركات إلى أحمد نامي بك إلى الشيخ تاج الدين الحسني إلى السيد جميل مردم بك، كلهم قفزوا إلى الرياسة قفزاً، وارتجلوا لها ارتجالاً.

وجاؤوا بالسادة جميل الألشي وعطا الأيوبي ونصوحي البخاري من المتمرنين على الإدارة أشهراً قليلة، لغرض اقتضى ذلك.

وأتوا بوزراء مختلفة درجاتهم، ومنهم المتعلم ومنهم العامي، وبعضهم كالموتى لا يفتحون أفواههم بما يتوهمون أنه يؤلم مرجعاً عالياً على الأغلب.

وكذلك الحال في لبنان ارتجل الوزراء والرؤساء، ومنهم من كانوا معروفين بفساد أخلاقهم وسرقاتهم قبل الانتداب[1]، وظلوا في عهد الانتداب على فسادهم وسرقاتهم، ومنهم من كانوا لصوصاً ويجاهرون باللصوصية، فجمعوا بذلك ثروات طائلة صرفوها في القمار وغيره. ولو حسن الانتخاب لجيء بأقرب من هذه الطبقة إلى الصدق والأمانة، وإدراك معنى التعاون.

عملت وزيراً مع حقي بك والشيخ تاج الدين خمس سنين وسبعة أشهر، وكان أكثر من معنا من الوزراء مقتدرين، وكانوا بانتخاب المفوض السامي.

وكان الرئيسان على مثل ما كان عليه أكثر رؤساء الحكومات، يستوحون المندوب والمفوض في المسائل الكبرى. وغاية ما كان يطمع فيه رئيس الوزارة ألا يعمل وزيره ما يغضب الجماعة، وأن يكون على اتفاق مع مستشاره، وهو ينصرف إلى التشريفات، واتقاء خصومه، والتمويه على أوليائه، وإرضاء مستخدمي الانتداب وكل من له صلة بهم.

وقلما كان الرئيسان اللذان اشتغلت معهما يوقفان لي عملاً، ويرضيان مني فقط أن يأتيا للخدمة في المعارف بأناس قد لا يجوز استخدام أمثالهم فيها، فتحصل

---

(١) أي: الاستخراب الفرنسي.

مشادة قليلة بيني وبينهما، أريد اختيار الكفاة وأصحاب الأخلاق السليمة في الجملة، ومن كانت لهم شهادات، وهما يحبان مراعاة سياستهما، وحماية صنائعهما.

أبى الشيخ تاج[١] مرة أن يصادق على قائمة المعلمات والمعلمين الذين عينتهم، وكانوا كلهم يحملون شهادات تؤهلهم للخدمة، أو أُدمج له معهم اثنين لا يحملان شهادة، واقترب وقت فتح المدارس، وأنا أتوسل إليه أن يعفيني من تعيين هذين الشابين المقترح تعيينهما، حتى لا يقول المنتدبون: إني أخالف القوانين المعمول بها، ولا أفتح المجال لتصديق ما قاله فيَّ المستشار السابق، ولما نفد صبري من إلحاحه أشرت إلى المستشار أن يطلب المندوب أوراق التعيينات الجديدة مصادقاً عليها، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي التجأت فيها إلى المندوب. ذلك أن الرئيس ما كان يسمح لنا أن نزور المندوب إلا في الأوقات الرسمية مدعياً أن ذلك أدعى إلى حفظ كرامتنا، مع أنه كان ليل نهار يطلب رضا أقل واحد من جماعة الانتداب، والغالب أنه كان يخاف على منصبه من بعض وزرائه، ومنهم من لو جوز لنفسه بعض ما جوزه هو لتركه جانباً واستأثر بالرياسة دونه.

حرص رؤساء الوزارات في كل دور على استخدام ذويهم وخواصهم والإفضال على أنصارهم وصنائعهم. وأعظم من كان له الغرام العظيم بحماية الأهل والأقارب السيد حقي العظم، فقد حاول إملاء الدواوين بأناس من ذوي قرباه وفيهم الصالح وغيره. وكان الشيخ تاج يكثر من استخدام الضعاف لأعمال الحكومة، ولطالما بينت له مضار هذه السياسة، فكان يورد عليَّ حججاً لتفضيل الدمشقيين في التعيين، وأنا أقول له: إن المملكة ليست عبارة عن دمشق فقط، وإن هذا التخصيص سيدعو الحلبيين إلى الانفصال، إذا ظل المركز يحرمهم الوظائف.

حاول الشيخ وقد فُرضت عليه فرضاً، أن يتخلص مني غير مرة، وأراد منذ

---

(١) رئيس وزراء سورية تاج الدين الحسني.

الأشهر الأولى أن يخرجني من الوزارة مع الأستاذ سعيد المحاسني وزير الداخلية، فحدثت أزمة وزارية كان المقصود في ظاهرها إخراج ثلاثة وزراء، ومنهم السيد جميل الألشي، ولكن هذا كان معنا نحن الاثنين في الظاهر، والحقيقة أنه كان من أخلص المخلصين للشيخ، ثم سمحت المفوضية بإخراج المحاسني، ولم توافق على إخراجي.

وحاول الشيخ في رأس الوزارة أن يورثوه رواتب والده من الأوقاف، وهو عارف أنه لا يحسن التدريس، ولا يستطيع المواظبة، فأخفق على ما بذل من وعد ووعيد.

وممن هددهم الأستاذ الشيخ عبد المحسن الأسطواني قاضي دمشق ورئيس التوجيهات العلمية، فرده وفرق هذه الأموال على عشرات من القراء العميان، وحاول الشيخ تاج الدين بكل ما لديه من حيلة أن يقنع السيد الأسطواني بتوجيه دروس أبيه إليه، وهدده بالعزل إن لم يجبه إلى طلبه، فقال: إنك مقتدر على تنحيتي من المنصب، ولكنك لا تحكم على قلبي وديني. وتذرع رئيس الحكومة بإقالة الأستاذ الأسطواني، فلم تجبه السلطة الفرنسية إلى طلبه.

كان بعض رؤساء الوزارات والوزراء من الآخذين بمبادئ الماسونية، يستعينون بقوة هذه الجمعية السرية على الوصول إلى المناصب، وقلَّ أن رأيت موظفاً كبيراً لم يدخل الماسونية، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندنا كانوا من الطامعين في حمايتها، وهم موضع نظر بسيرتهم، دخلت الماسونية أرضنا منذ العصر الماضي، وقلما تم على يدها شيء ينفع، ذلك لأن المقدمين فيها لم يقوموا بما تدعو إليه قوانينها من الخير، ورأينا معظم الرؤساء منهم يستحلون أكل أموالها، وإذا كان الخير في فطرة بعضهم؛ فإنهم لا يلبثون أن يبتعدوا عنها كاتمين أسرارها، آسفين على ما أضاعوه من المال والوقت مدة ارتباطهم بها.

مسألتان مضحكتان حدثت إحداهما في أيام رئيس الوزارة حقي بك، والثانية في عهد الشيخ تاج الدين، وبعرضهما هنا فكاهة وتسلية:

حرص الأول أن يكسو الوزراء والموظفين ألبسة مزركشة بالقصب أيام التشريفات، وأن يصنف خدام الدولة أصنافاً، يجعل لكل صنف منهم بذلة خاصة وقصباً خاصاً. وكانت تساوي البذلة يومئذ نحو ثمانية عشر جنيهاً مصرياً، إذا عزم صاحبها على بيعها لا تساوي جنيهين، وكان السيد حقي العظم للوصول إلى ما يحرص عليه من ذلك وللسرعة في إنفاذه، يأتي إلى مجلس الوزراء بالرسام والخياط وصانع القصب، يعرض على وزرائه النموذجات، ويشاورهم في الطراز الذي يقع اختيارهم عليه. والمجلس يضيع وقته في هذه الأمور، وأرباب المصالح ينتظرون منه البتَّ في أشغالهم. وقد استعملت كل ما عندي من حجة حتى أقنعه بأن ابتداع هذه الكسوات مجحف بالموظفين وأكثرهم فقراء، فأصرَّ على إنفاذ مشروعه. ولما صنع لنفسه بذلة قلت له: الآن حصل المقصود؛ فإن اكتساء رئيس الحكومة بالقصب يجزئ عن اكتساء الموظفين كلهم، على نحو ما قلت له لما عرض عليَّ وسام جوقة الشرف:

لما كنت دولتك تقلدت الوسام فكأن الوزراء كلهم تقلدوه، ونحن إلى الآن لم نأت ما نستحق به هذا التشريف، فاقتنع وأعفاني. وانتهت معضلة القصب بعد أن أضعنا بها بضع جلسات من جلسات مجلس الوزراء، وما انتهت في الحقيقة إلا لما شكاني الرئيس إلى المندوب، وسألني: هذا عن سبب الامتناع، وعن استنكافي من لبس القصب؟ فقلت: إني لم ألبس هذا القصب أيام الدولة العثمانية، وسلطنتها الضخمة سلطنتها، فأنا لا أرى أن ألبس بذلة رسمية في هذه الحكومة الصغيرة، وإني مستعد للتنحي عن الوزارة أو يلغى المشروع، فألغي.

أما المشروع الثاني في وزارة الشيخ تاج فقد كان الخطب فيه أسهل، لأنه كان محصوراً بالوزراء، ذلك أنه حرص على إلباس وزرائه (الفراك)، وسألته لما عرض علينا أن يقتني كل وزير كسوة منها: وما هي الفراك، أليست البذلة التي يكتسيها غلمان الفنادق؟ فقال: نعم. هي من هذا النوع فقلت له: وما الفائدة من اقتنائها؟ فقال: إذا دُعيتم إلى المفوضية وغيرها لحفلة راقصة تجدونها حاضرة. فقلت له: أنا

لا أعرف الرقص، وما اعتدت أن أرقص للقرد في دولته، فأرجوك إعفائي من هذه الكسوة، ومن هذه النفقة الضائعة. واستحسن على ما يظهر بعض رصفائي قولي، ونجونا من بذلة الفراك. أما رئيس الوزارة فاستصنع واحدة منها، كان يلبسها في الحفلات الراقصة والساهرة؛ وما كانت تلبق له وهو بدين قصير القامة أعرج وعلى رأسه عمامة، وثوب الفراك مقطع من أمام ومن وراء.

وبلغني عن أحمد نامي بك أحد رؤساء الحكومات في سورية، أن حب الأناقة بلغ منه أن كان يُبدل بضع حلل في اليوم والليلة، وله في الأزياء والتأنق غرام، وهو لا يكاد يفارق المرآة ينظر فيها إلى هندامه ونظامه أبداً، ويسأل خلصائه عما يرون في كسوته من نقص يمكن تلافيه. ونامي بك كان من أصهار سلاطين العثمانيين، ولذلك سمي الداماد أي الصهر، وكان أبوه فخري بك شركسياً مصرياً عرفته، وكان رئيس بلدية بيروت زمناً، وكانت له مشاركة في الآداب، وعلى جانب من الأخلاق، ورأيت نامي بك في داره يوماً وقد تليت أمامه قصيدة في مدحه لأحد متشاعري بيروت جاء فيها ذكر التاج، وكان في المجلس أحد وزرائه السيد يوسف الحكيم ـ وهو الذي رأى أن يحيطه بسور يحول بينه وبين الناس ـ لما ورد ذكر التاج أقسم بالله أنه لا يليق هذا التاج إلا لهذا الرأس، يعني: نامي بك.

وكان يوسف الحكيم في إبعاد صاحبه عن القوم مثل ما كان من السيد إحسان الجابري حاجب الملك فيصل بن الحسين لما بويع ملكاً على سورية، فكان حرصاً على جلال هذا الملك، يعين لمن يواتيه الحظ بالمثول بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً، ويقول للملك أن ينهض لواحد، ولا ينهض لآخر، ويقلل من الكلام أو يكثر، على حسب ما يرى. وكذلك فعلت الحكومة الوطنية فحظرت على رئيس جمهوريتها ابن الأتاسي ألا يخرج من قصره، ولا يظهر لأحد، ولا يسأل عن أحد، وأحاطوه ببضعة أفراد من الدرك في حبسه المزوق.

في الفترة التي مضت بين اشتغالي بوزارة حقي بك واشتغالي مع الشيخ تاج، كان

رئيس الحكومة السورية التي سموها حكومة الاتحاد السيد صبحي بركات، وهو من أهل أنطاكية، لا ينطق بجملة واحدة صحيحة باللغة العربية، وقد وصل إلى الرياسة بطريقة عجيبة، كان يقاتل الفرنسيين مع إبراهيم بك هنانو صاحب ثورة الشمال، وتوسط له أحد أقربائه ممن يعتمد عليهم الفرنسيون، فعدوه من المؤلفة قلوبهم، وعهدوا إليه برياسة اتحاد سورية، وكان صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي يعد رفعت آغا والد صبحي بركات من أعظم رجال سورية لأنه كان يقاوم الأتراك في عصره.

قال ابن بركات في دار الحكومة علناً: إنه لم ير أحداً خدمه مثلي، ولم يطلب منه جزاءً على عمله بالتلميح ولا بالتصريح. وكان كلما فتح لي موضوع الوزارات ليرضيني، أقول له: تعاون كما يجب مع المنتدبين، وسير الأشغال بما يفرض عليك، ولا تذكرني في هذا الموضوع لأني لا أطمع في وزارة، وأنا راض بمركزي، وأريد لك النجاح. وقال مرة في حلب لأحد أصدقائي عمر نبهان، بعد أن أقيل من منصبه بمدة: إن كل ما فعله في دمشق لم يأسف على صدوره منه إلا ما كان من مشاكستي.

ذلك لأنه كان يتخيل أني أطلب منه وزارة، فكذب ظنه لما رآني في الثورة تعرض عليَّ الوزارة أربع مرات وأرفضها. ولما جعل رئيس مجلس النواب، وطلب من فرنسا مطالب نافعة، وذهب إلى باريز للمطالبة بها حمدته على ما فعل أمام أصحابي، وقلت: إنه كفر بذلك عما سبق له عند تولي الأمر، فواجب الكتلة الوطنية الآن - وقد استلمت الحكم - أن تكافئه لأنه أضاع بما صرح به منصبه، فبلغه ما فهت به وأحب أن يزورني ليشكر لي ويعود إلى التواصل بعد التقاطع، فأبيت، وبقينا متباعدين.

كان صبحي بركات يشارك في بعض الموضوعات، ومن طبعه أن يطيل لسانه في وزرائه وفي غير وزرائه، وإذا غضب اختلَّ توازنه. غضب علي مرة فلما لم يستطع أن ينتقم مني، أحب القضاء على المجمع العلمي العربي، وسبب غضبه أن وزير المعارف في حكومته الدكتور رضا سعيد الأيتوني أقام في رمضان مأدبة لرئيسه

وللوزراء ودعاني معهم، وكتب بطاقاتٍ باسم كل مدعو وضعها على الأطباق، يعين بها لكل إنسان مكانه الذي يجلس فيه. فكان المقعد الذي اختاره لي صاحب الدعوة بعد شقيق رئيس الحكومة. فقلت لأحد أخصاء الداعي وأنا خارج من الدار: إن صاحبك بلغ من المصانعة مبلغاً عظيماً. إنكم تعرفون مبلغ احتقاري للتشريفات، ولكن الرجل تعمد تحقيري بوضعه لي بعد أخي صبحي بركات، وسني ومقامي يؤهلاني لأكون فوق شقيق الرئيس على كل حال، وليس لأخيه من المزايا إلا أنه شقيق رئيس الحكومة، وما زاد على كونه فلاحاً من فلاحي أنطاكية. فنقل صاحب الدعوة كلامي إلى رئيس الحكومة، فغضب غضباً عظيماً، وتجهم لي فقاطعته، ودام التقاطع أشهراً، ثم أرسل لي أحد وزرائه السيد جلال زهدي بعد مدةٍ يسترضيني ويدعوني إلى معاودة الاجتماع مع الرئيس، فقلت له: أسألك بالله وبكل عزيز أن تقول له: كفاه إدلالاً علينا بمنصبه، وما مكانته إلا من طريق هذا المنصب فقط، وليعلم أنه إذا استقال غداً لا يبقى له أحد من كل من يصانعه اليوم، ليلزم داره وألزم أنا داري، لنرى من يقرع بابه كل يوم. وأظنه يوم مفارقة الحكومة لا يختلف إليه إلا من يأملون عودته إلى الحكم، وقليل ما هم.

فغاظه هذا الكلام أكثر مما غاظه كلامي الأول في أخيه، وأقيل ابن بركات، وبقي في حلب ودمشق كما تنبأت له لا يقترب منه أحد.

والدكتور الأيتوني وزير المعارف يومئذٍ من أكبر من خدموا السيد صبحي بركات، قام له مدة وزارته بمثابة وكيل خرج في داره، يشتري له حاجاته البيتية، وإذا مرض أحد عنده بات عنده ممرضاً لمريضه، ومع كل هذا غضب عليه مرة، فقال في الملأ يوم الجمعة في قاعة الاستقبال: كنت أظن رضا سعيد شيئاً فإذا هو كرش مملوء.

وقد أرسل لي ابن بركات في الثورة السيد لطفي الحفار ليأخذ رأيي في وزارة جديدة نؤلفها، ونترك له حبيبه جلال زهدي فيها، وإذا لم نقبل به يتركه، على أن

يكون هو الرئيس، فقلت له: إني في أشد الضيق، وتا لله لو أعطيت خمسمئة ليرة ذهبية كل شهر على أن أكون وزيراً معه لا أقبل، وكيف أرضى برياسة من قال منذ أيام علناً: إنه لم ينم ليله نوماً هادئاً مثل الليلة التي ضربت فيها دمشق، وخربت على رؤوس أهلها[١]، وذكرهم بكل قبيح، وشتم أعراضهم، وهو الذي احتفل بعرسه ودمشق تلتهب بالنيران، وأتى بالراقصات والمغنيات يرقصن ويغنين في داره، فكان هو يطرب ومن ورائه وأمامه يصعد أنين المظلومين، وبكاء المنكوبين، فإن كان نسي ما قال فأنا وأهل بلدي لا ننسى. وأقام مثل هذا الفرح في دار فؤاد بك المدرس بحلب وأتى بالراقصات، والبلاد تذوب بالثورة كما يذوب الملح. وقد نصحت له بالكف عن هذا الاستهتار الذي يأتيه في بيروت، من الجلوس في الحانات، والراقصات من حوله، فقال: أنا أتمتع بحريتي؟

فقلت له: رئيس حكومة إسلامية لا يستطيع أن يكون حراً على هذه الصورة، فهل شهدت رئيس حكومة لبنان أو رئيس جمهوريتها، يجلس مثل هذه الجلسة في مكان عام، إن كان لا بد من الاجتماع إلى هذه الطبقة فاعمد إلى دارك، وليكن ذلك على الأقل بدون تبذل.

ونشأت لي صداقة مع الجنرال أندريا قائد موقع دمشق أيام الثورة، وقال لي عند أول اجتماع معه: إنكم كلكم ثوّار.

فقلت له: إن الثائرين منا خرجوا إلى الغوطة يقتتلون مع جماعتكم.

فقال: لا، إن منكم الثائر بالسلاح، ومنكم الثائر بالفكر.

فقلت له: أنا لا أقول بقولك.

فقال: إن كان الأمر على ما تقول فلمَ لا تعينوننا على إظهار الثائرين.

فأجبته مرتجفاً: يا جنرالي ليست هذه صنعتي. فانتبه وغيَّر مجرى الحديث.

---

(١) أيام الاستخراب الفرنسي.

وقلت له ذاك اليوم: أتطمعون في استبقاء سورية أم في الاحتفاظ بصبحي بركات؟

فقال: اللهم سورية.

فقلت: نحّوا إذاً صبحي بركات عن منصبه فالنفوس حانقة عليه.

ومن الغد قصد الجنرال إلى المفوضية في بيروت، وبعد ثلاثة أيام كان ابن بركات في داره كأحد الأفراد، لا سلامات، ولا شرطي، ولا حاجب، وأنصاره أمثال وزيره الحلبي نصري بخاش الذي ما كان يعرف إلا خدمة المراجع العليا بما يكتب لها، وكالذي جعله عضو محكمة التمييز، وهو رومي هاجر حديثاً من الأناضول، ولا يتكلم كلمتين بالعربية فضلاً عن أن يقرأها ويكتبها ويتفهم أسرارها، واسمه نيقولاكي أفندي.

دخلت على الشيخ تاج الدين في مكتبه الرسمي فرأيت عنده صديقي الأستاذ سامي العظم يلتمس منه أن يوافق على تعيين شخص من بني العظم أعرف أنه لا يصلح لشيء. فقلت له: يا سامي، إلامَ تستعملون هذه الخرق البالية؟ وتحشون دواوين الحكومة بمن كان عليكم رحمة بهذه الأمة أن تتركوهم في بيوتهم، وتأخذوا للخدمة من الشباب حملة الشهادات العالية الذين ملؤوا المقاهي، وهم لا يجدون عملاً لهم بعد الدراسة، والتفتُّ إلى رئيس الوزراء وقلت له: كما فعلت بفلان، وأنا أعرف أنه قريبه، وجعلته مدير ناحية داريا وهو أمي يكتب له كاتب القرية أوراقه الرسمية، ثم إنه غني يملك مزرعتين، فلماذا لا تتركونه لمزرعتيه، وإني لأفضل أن أملك مزرعتين على أن أكون وزيراً، ولو أمكنني المقايضة لقايضته. فسكت. ثم قلت له: وفلان الذي جعلته مدير ناحية دمر؟ فقال: إن بني فلان افتقروا وليس عندهم ما يأكلون، فقلت له: وهل الحكومة رباط أو زاوية دراويش يقصدها أرباب البطالة والجياع، فترى من واجبها إطعام كل من جار عليه الدهر، أو جلب لنفسه الفقر بسوء تصرفه. ثم إنك جعلت مدير ناحية تدمر رجلاً دخل مستشفى المجاذيب مرتين، وفي

عقله شيء إلى اليوم، فهل يجوز أن يتولى مثل هذا العمل؟ فقال: وهذا افتقرت أسرته.

فقلت: تا لله تفتأ تقول لي افتقرت وأنك ترحمها بتعيين أحد أفرادها لتعيش، فإذا كان الأمر يسير على هذا الشكل؛ فلماذا نفتح المدارس ونربي الشبان؟ ونحن لا نختار للوظائف إلا من يرقّ قلبنا عليهم، وعندي أن تقتصدوا من هذه الموازنة الضخمة التي تخصون بها وزارة المعارف كل سنة، وتأخذوا موظفيكم حيث شئتم، وليمت هؤلاء المتعلمون جوعاً حتى يُطعم من يؤثر بالرحمة، فاضطرب الرئيس لهذه المجاهرة، وقال لي: تفضل إلى غرفتك»[1].

وكتب الأستاذ محمد كرد علي كلاماً مراً عن سياسة أحد رؤساء الجمهورية في زمانه، يجدر بالقارئ أن يطلع عليه ليعرف حال هؤلاء:

«كتبت إلي أحد أصدقائي في مصر كتاباً في الدواعي إلى الثورة السورية الأخيرة أقتطف منه ما يلي: تدارك الزعيم[2] بحكمته وحنكته الجمهورية السورية من الانحلال، ولم تخدش إصبع وطني واحد في العاصمة والأقاليم، وتمت الثورة على أحكم ما يكون من السرعة والشعب يصفق ويهلل.

وتسألني: وهل من داع لهذه الثورة؟ نعم إن لها عدة دواع؛ لأن حكومة الجمهورية أصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية؛ فبما ارتكبته من المساوئ تردت الأخلاق وعمت الفوضى، فكان من اتجروا بالوطنية زمناً وبها باعوا واشتروا وجعلوها وقفاً مؤبداً عليهم يسرقون الدولة بأسلوب مفضوح مخجل، كانوا من قبل يسرقون الألوف فأصبحوا يسرقون بمئات الألوف ولا يشبعون ولا يكفون، وكيف لا

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٣٢٣ - ٣٣١.

(٢) هو حسني الزعيم، وفي انقلابه ١٩٤٩ وعمالته للأمريكان كلام طويل، لكني سقت المقالة لأهميتها ولدلالتها على حال بعض الرؤساء.

يسرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل ويهدي هو لمن يريد استتباعهم من مال الأمة؟ ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد إليه بتأليف وزارة. ومن الغريب أن من كان يقدسهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حسابهم فكانوا من أكبر الخونة واللصوص، وزور في انتخاب النواب من حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياسة، وبذلك خان الدستور الذي لا يجيز انتخاب الرئيس مرتين إلا إذا تخللهما رئيس آخر، وكان عليه تفادي كل هذا لأنه مريض، ولا يكاد يمضي شهر واحد إلا ويقضي أياماً في السرير منقطعاً عن كل حركة ومن تداعت صحته لا يرجى منه أن يدبر صحة أمة.

ومما يؤخذ عليه اصطناع السفلة والأوغاد، يغدق عليهم الأموال والعطايا، ويختصهم بالامتيازات والإعفاءات الرابحة، ويوزع عليهم قسطاً عظيماً من الحنطة والأرز والسكر وغير ذلك من الحاجيات، وفقراء الأهلين بل المتوسطون منهم لا يصلون إلى حاجتهم منها إلا بالبذل الكثير، وقد جعل الرئيس من أولئك الرعاع عشراءه وجلاسه، وقد شوهد قبل يوم اعتقاله في قريتنا في طريقه إلى مزرعته وإلى جانبه اثنان من هذه الطبقة، فما استغرب القرويون ذلك منه لأنهم طالما شاهدوا أمثالهم معه يرفع مقامهم، ويأنس إليهم، ويتقزز من مجلس فضلاء القوم ولا يقبل لهم نصحاً.

واستكثر الرئيس من الموظفين الفاسدين ومنهم أهله وأبناء حزبه يجود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر، وفيهم الأميون الذين ما دخلوا كتاباً حياتهم، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفي ما كانت والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعرف وجوه صرفها، وكان بعض من ولوا الوزارة ممن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها، فتسلط أهلهم وأنصارهم على الناس، وهتكوا الأعراض واستصفوا الأرض من مالكيها، وكان أبداً متمسكاً بهم حتى إن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من سوء إدارته، وعلت

الأصوات بالشكوى من إضاعته الحقوق، لم يتخل عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة وأهرقت دماء الأبرياء.

ولقد عطل رئيس الجمهورية الحدود عملاً بنصيحة أمه؛ لأنها أرادته على أن يتجنب القتل؛ لأنها تخاف على ابنها أن يصيبه شر من ذلك، فأدخل بهذا النساء في مصالح الدولة. وكان الموظف الذي له امرأة حسناء يملي إرادته على القضاة ورجال الإدارة فيفسق ويسرق، وهو في حل مما يأتي لأنه من حاشية الرئيس معدود في أتباعه، والرجل «الموصى عليه من القصر» كان كأهل بدر، وفني الرئيس في سياسة الإرضاء والمصانعة كأن البلاد إقطاع له ولآله ومن والاه. وكان يتدخل حتى في تعيين الفراشين والآذنين؛ لأن امرأة أحدهم أو والدته سبقت فشكت ظلامتها لامرأة الرئيس أو لأمه فصار لزاماً عليه أن يعينه، وإن كانت المصلحة تقتضي استخدام منافسه، وكان بعض الوزراء يتبرمون بهذه السياسة الخرقاء ويعدونها اعتداء على حقوقهم، ومنهم من استقال من رئاسة الوزراء بمثل هذه التحكمات فيه على ما بلغني... إلخ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) المذكرات: ٣/ ٩٠٠ ـ ٩٠١.

المبحث الرابع:

حال المشايخ والعلماء

العلماء والمشايخ في كل زمان ومكان تبني عليهم الأمة آمالاً عراضاً في توجيه أفرادها إلى الحق والخير، والعناية بكل ما يتصل بدينهم وعبادتهم، والمنافحة عن الخلق الكريم، وتعليم العامة أمر دينهم، ونصحهم وتعهدهم، وتقويم مسيرة الأمة وتوجيهها.

ولقد كان للعلماء والمشايخ زمان سلفنا الصالح أثر عظيم في المجتمع، وتعدى ذلك إلى زمان الخلف، وبعضهم كان يقف في وجوه الولاة الظلمة، ويردعهم عن ظلمهم، وبعضهم كان يقود المعارك، وبعضهم كان له جاه وقدر عند العامة أعظم من جاه الخلفاء والسلاطين؛ وذلك لصلاحهم وتقواهم وعنايتهم بأمر الأمة.

لكن برزت طبقة من المشايخ والعلماء نسيت وظيفتها العلية، وتكالبت على الدنيا، وارتضتها، وفرحت بها على وجه فرطت فيه بواجباتها والتكاليف الملقاة على كاهلها، وكلما تأخر الزمان كثر عدد هذه الطبقة، حتى ابتلينا في العصر الحديث منها بعدد كبير فرط في وظيفته، وقصر في العناية بأمته، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، وإليكم هذه الأمثلة من هؤلاء الذين نكبت بهم الأمة:

❁ ❁ ❁

المشايخ الحسدة:

والشيخ إن كان حسوداً كان ذلك طامة كبرى، وذلك لأنه يخالف ما يدعو إليه، ولأنه ينبغي له أن يصلح لا أن يفسد، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده الأستاذ محمد كرد علي قائلاً:

«لما ضعف العلم الإسلامي حاول بعض الأسر القديمة - التي استحلّ أبناؤها

الاستئثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينية بدون أن يكون لهم شيء من العلم ـ أن تبقى لهم هذه المغانم والمظاهر وقفاً أبدياً على الدهر.

وفكروا في أسهل حيلةٍ تُديم عليهم نعمتهم، فكان منها منع الشبان من التعلم، ليكون القضاء والإفتاء وأعمال التدريس والوعظ والخطابة والإمامة حُكْرَةً لهم ولأعقابهم من بعدهم، وممن دأبوا على هذه الدعاية شيخان من دمشق، كان يعزُّ عليهما أن يتعلم إنسان، وما كان عيشهما يطيب إلا إذا صدَّا الطلبة عن العلم.

وكان الشيخ طاهر الجزائري يكرههما كراهة عظيمة، وسألته ذات يوم عن سبب كراهته لهما، وعما حدث بينه وبينهما فأدى إلى هذا العداء العظيم، فقال: إنهما ما زالا يحولان بين الناشئة وبين التعلم، وبعملهما انقطع أربعون شاباً عن طلب العلم، فقلت له: هذا حقٌّ وقد حاول أحدهما أن ينصح لوالدي، وأنا في أول نشأتي، ليخرجني من حظيرة الدرس إلى التجارة، وقال له وأنا أسمع: وهل تَرانا نحن العلماء في حالة حسنة، وإن أحدنا لَيطلب العلم ثلاثين سنة، وغايةُ ما يحصل عليه راتبٌ ضئيل في إحدى المدارس، أو إمامة في أحد الجوامع، قد لا يتجاوز راتبها المئة والخمسين قرشاً، فإن كنت تريد الخير لبيتك، فاقطع ابنك عما شُغِلْنَا به قبله أعواماً، وما عاد علينا بِغنىً ولا رفاهيةً.

وكان شيخنا يقول: لولا أن شُغل كلا الأخوين أحدهما بالآخر للاختلاف بينهما في قضية، وكان الواحد يتغيب سنة في الآستانة لملاحقة دعواه، ويعود في السنة التالية إلى بلده، فيسافر أخوه فيتذرّع بمثل ما تذرَّع به شقيقه؛ وظلاّ على ذلك طول العمر، وماتا ولم يُبَتّ في تلك الدعوى المباركة، لولا أن شُغلا بأنفسهما لنزل الناس منهما شرّ كثير.

وكبرتُ وصرتُ أكتب بالصحف، وأصبح لي أصدقاء وأعداء، وكان ذاك الشيخ الذي سوَّلت له نفسه أن يَمنعني من ورود حياضِ العلم، يوم كنت طالباً صغيراً، ينظر إليَّ نظر من آمن لمن كفر، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق.

قال لي يوماً: بلغني أن عندك خزانة كتب. قلت: صحيح ما بلغك، منها ما كان اشتراه والدي لي ومنها ما ابتعته أنا. فقال: أريد أن أزورها، فقلت له: لا تزورها ولا تراها. قال: ولِمَ ذلك؟ قلتُ: لأنك تسرق الكتبَ على ما أكد لي غير واحد، ولذلك لن تراها. فبهت من قولي وتفارقنا، فكان في شيخوخته يطعن عليّ وعلى الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري وغيرهما، وأنا ما قلت له ما قلت إلا لأنه كان حقيقة يسرق صفحات وأحياناً كراريس من الكتب المُدبَّجة المُذَهَّبة، واستحل مجموعات دار الكتب الظاهرية بدمشق، وخزائن الأفراد في كل مكان دخله، فشوّه الأصل ولم ينتفع كثيراً بالفرع.

وبعد ذلك يُعْتَب علينا، لأنا لا نحترم هؤلاء الذين ينسبون زُوراً إلى الخواص، وعلم الله أن العوام أكثر منهم عملاً بالدين، والوقوف عند مناهي الشرع»[(١)].

وذكر أيضاً ما يدل على حسد المشايخ فقال:

«نبغ في القرن الماضي في دمشق رجل من أولاد التجار، طلب العلم وظهر نبوغه فيه، ومالت نفسه إلى التأليف أواخر العقد الثاني من عمره، فبلغ شيخه ما يحاوله فقرَّعه على جرأته، فلم يعبأ بتقريعه، ودام على ما أخذ من نفسه، فجاء منه فقيه عُدَّ من أعظم فقهاء الملة وهو لم يبلغ سن الكهولة، عنيت العلامة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية، وعليها المعوَّل في الفتيا في بعض بلاد الإسلام اليوم.

ونشأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وفي دمشق أيضاً رجل درس العلوم الإسلامية، وزاد عليها شيئاً من العلوم العصرية، وبدا له أن يؤلف، فألف رسالة وهو في الثامنة عشرة، وعرض ما ألف على شيخه فغضب وقال هازئاً به: لم يبق إلا أنت حتى تؤلف. فانقطع الطالب وقطّع ما ألفه، وبقي ممتنعاً عن التأليف إلى آخر حياته، لم يكتب فيه إلا ما لا بال له، وهذا هو الأستاذ سليم البخاري، وكان رفيقه الأستاذ

---

(١) المذكرات: ١/ ٢٧ ـ ٢٨ .

الشيخ طاهر الجزائري يقول: إن انقطاع الأستاذ البخاري عن التأليف خسارة، ولو اطرد عمله لكان مؤلفاً ينتفع به»[1].

❁ ❁ ❁

فساد بعض القضاة

لم أر فيما رأيت من أنواع العداوات أشد من تعادي المشايخ، ولا أكثر من غمط بعضهم حق بعض، ولا أشدَّ من تهالكهم على أبواب الأمراء والحكام، ولقد رويت لي روايات عنهم ما كنت أصدقها لولا أن رُواتها لم يُعرفوا بكذب، ولما أخذت أتعرف إلى الرجال رأيت ما هالني، وأيقنت أن القليل منهم عَرَفوا الكرامة وعزة النفس، وهم الذين جعلوا صناعتهم بصنعهم علامة ضَعةٍ، وكانت آية الشرف. ولقد أُصيبت جمهرتهم بغرور ظنوا معه أن سلطانهم القديم على الملوك فمن دونهم يبقى لهم بهذا الجهل، وهذا الفساد.

قلت يوماً لعالم درس تاريخ الإسلام درس تَدَبُّر وعرف استخراج عبره: أما كان في العصور الماضية قضاة جاهلون فاسقون سارقون، فكتب الأدب تتعرض لذكر كثير مما كانوا يُتَّهمون به، أليس ما رُوي عنهم بصحيح أم صنعوه للنكتة؟ فأجاب: أكثر ما رُوي في سيرة القضاة قديماً صحيح، والجهل وسوءُ الخلق ما انقطع دابرهما من الأرض، ولكن إذا فرضنا أنه كان في المملكة الإسلامية ألف قاض في الدهر الغابر، وألف مثلهم في هذه الأيام، فإن الألف السابقين كان فيهم عشرة فاسدون لا يصلحون، أما الألف اللاحقون فالفاسدون منهم يُعدُّون بالعشرات.

وما زالت حال القضاة في تدهور، العصر بعد العصر، حتى كانوا هم السبب الأعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية، والحكومة المصرية والإمارة التونسية، لكثرة ما أساؤوا إلى الشرع، وعبثوا بأصوله وفروعه، وبقلة دينهم وقلة

---

(١) المذكرات: ٤/ ١٢٠٧.

علمهم، أمست أحكام المحاكم الشرعية سلسلةً من الخلل والعلل، فأكرهت دول أوربا الدولة الإسلامية على قبول قوانينها، ظناً منها أن الفساد آتٍ من الشريعة، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها، وفساد أخلاقهم.

وقد شاهدنا تحسناً ظاهراً في قضاة الشرع لما أنشأت الدولة مكتب النواب في الآستانة، وكان المتخرجون على أساتذته إلى الاستقامة والعلم أكثر ممن سبقوهم، وعلى مثل ذلك شاهدنا القضاة في مصر لما أنشؤوا يختارون الصالحين، وكان في الجيل الماضي يتولى الأغمار القضاء. أما أنا فقد بحثت سيرة من أهمني أمرهم من القضاة منذ خمسين سنة، فرأيت من نعدُّه مستقيماً قد لا يتعفف عن قبول الهدايا من أرباب المصالح.

فأنا أعلم من نفسي أن معظم القضاة لعهدنا لا يخافون الله، وهم لصوص تحمل رؤوسهم عمائم بيضاء، وأن طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم من أموال اليتامى والأيامى.

وبلغني عن قاض ولي صفد فارتشى قبل أن يصل إليها بمبلغ عظيم، ونزل مدة في دار من تناول مالاً من خصومه ليسلبه ملكه ويعطيه لمن رشاه، وقد خلف ثروة طائلة أنفقها أولاده بعده في سنتين.

ورأيت عشرات ممن جمعوا أموالهم من القضاء خصوصاً، رأوا في حياتهم خروج ما كسبوا من أيديهم، وهذا من الجزاء العاجل[1].

❁ ❁ ❁

تقصير كثير من المشايخ في أداء مهمتهم:

أزعم أن أكثر مشايخ العالم الإسلامي في العصر الحديث قد قصروا تقصيراً بيناً في أداء مهمتهم التي ينتظرها منهم الناس، وصار المهندسون والأطباء وسائر

---

(١) المذكرات: ١/ ٢٩ ـ ٣١.

المتعلمين من غير المشايخ يتصدرون الساحة، ويخطبون الناس، ويصنفون المصنفات، ويلقون الدروس والمحاضرات، وأكثر المشايخ قد اكتفى بالفرجة!! وكذلك كان حال المشايخ زمان الأستاذ كرد علي الذين تخلوا عن واجبهم، وأفسحوا الساحة لدعوات القومية والإلحاد بسبب سلبيتهم المفرطة، وقد أزعج هذا كثيراً من المثقفين وصرحوا بذلك، وجاهروا به، ومنهم الأستاذ محمد كرد علي حيث خاطب أحد كبار المشايخ قائلاً:

«نُقِل لي أنك قلت يوم نعيتُ على رجال الحكم تقاعسهم في تنفيذ الأحكامَ على الغَشَشَة من التجار والباعة والفلاحين، وآخذت المشايخ على تقاعدهم عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن فلاناً قام اليوم بوظيفتنا، وكلامك هذا يتأول على معنيين: الأول: إقرارك ضمناً أنك وجماعتك مقصرون في وظيفتكم وأنا قمت عنكم بها، أو أنك تقصد أني اعتديت على وظيفتكم وما كان من حقي ذلك، وشهد الله أني كنت أحب أن أراك وجماعتك تقومون بواجبكم، ولا يفتح مجال لي ولا لغيري للتعرض لكم، أترككم تتمتعون بوظائفكم وجميع ما يتبعها من الفوائد، بَيْد أن القصور الذي لمسته ولمسه العارفون في هذا الباب دعاني إلى سد هذه الثُّلمة، وأنا مقر أن ليس لي أن أشرك الوعاظ في مواعظهم لأنها مما يتوقف الاضطلاع به على علم لدني وعلم كسبي، وكلاهما في نظركم وقف على طَغَمتكم. وسواء كنت على استعداد للكلام في هذا الشأن أو غير مستعد فحسن نيتي يشفع لي في هذا التعدي على مقامكم، وسواء قمت بواجبي أو تعديته فليس فيما جرى ما ينكر ما دام قد مضى على محاضرتي بضع سنين، ما سمع أحد منكم خلالها ولا قبلها موعظة ولا خطبة ولا درساً، ولا نشرتم كتاباً ولا رسالة ولا بحثاً، وكذلك كنتم طوال حياتكم الشريفة.

العلم كما لا يخفى على ثاقب ذهنكم ينضج في صدر صاحبه كلما علت به السن، وأنتم قد عُمِّرتم ما شاء الله أن تعمروا، واتجرتم ما شئتم بما جمعتم من مال،

فماذا دعا إلى توقفكم عن إلقاء الدروس النافعة ووضع التآليف الممتعة، على حين ترون البدع عن أيمانكم وشمائلكم، والمسلمون الذين بهم عزتكم تقرضهم أمراض اجتماعية كثيرة، فهل فكرتم يوماً في مداواة بعضها، والناس ألحدوا وطغوا وهم يتحللون من كل قيد، فهلا دللتموهم على طريق النجاة، وتحت إشرافكم كثير من الموظفين هل قاموا بما أسند إليهم، أم كأن الأمر لا يعنيهم يقبضون الرواتب ويدعون للسلطان بالنصر؟

وظيفتكم تدور على التعليم والهداية، وساعدكم القانون فقضى ألا تخرجوا من الخدمة إلا بالموت، وطال أمد حياتكم على ما ليس من مصلحة هذه الأمة، فمن علّمتم أنتم وجماعتكم ومن هديتم؟ أنا لا أتطاول إلى أن أبيع منكم بضاعتي، وأرغب في أن يطلع الخلق على بضاعتكم، وأغتبط ويغتبط كل عاقل إذا أفدتم البر والفاجر والصانع والزارع والتاجر، نفع الله بإرشادكم الإسلام والمسلمين، إنه سميع الدعاء، فعال لما يريد[1]».

وقال الأستاذ كرد علي ـ أيضاً ـ مبيناً هذا التقصير:

«ما تعفف بعضهم عن التصريح باتهامي بالغلو في الإشادة بأستاذي الشيخ طاهر الجزائري، وما خجل حساده أن يدّعوا أنه لم يكن من العلم على ما وصفته. ومنهم من هزأ في قوله أن من العادة أن يحب التلميذ أستاذه ويبالغ في الغَناء فيه. أنا لم أُغال بمناقب الشيخ، ولا اخترعت له مناقب ليست له، وغاية ما عرفت فيه صفات غرّاً لا يهتدي كثير إليها إلا بطول عشرة وكبير تأمل.

أدعو كل من يثقل على أنفسهم قول الحق أن يقارنوا بين عمله وعمل أكبر المقدمين في عصره، هل يجدون فيهم ما يجدونه فيه بعلمه وأخلاقه؟!

لنمثل برجلين عاش أحدهما في عاصمة الساحل وعاش الثاني في عاصمة

---

(١) المذكرات: ٢/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧.

الداخل من أرض الشام: الأول كتب كتباً أكثرها تخريفات ومنامات، وعددها كبير وفائدتها تافهة؛ لأنها من مضعفات العقول، والمسلمون انحطوا لما أخذوا يتلون أمثالها. والثاني ادعى علم الحديث وروى منه كثيراً، وكان في درسه العام يطبق بعضه على المناسبات، وعمّر طويلاً، وفتن به العامة، ولم يترك كتاباً ولا رسالة، ولم يخلف تلميذاً أخذ العلم عنه ونفع به. أما الطبقة الثانية من العلماء فكانوا متوسطين في علمهم، أتقنوا بعض فروعه، وما أتوا بجديد، ولا عرفوا معنى الإصلاح والتجديد.

نحن نحكم على علم العالم بنتائج عمل صاحبه، فالشيخ طاهر الجزائري أسس المدارس الابتدائية في معظم الديار الشامية، وألف لها الكتب، وعلّم المعلمين أصول التعليم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها، أما ما يطلق عليه اسم الأدب فسخيف النظم والنثر، ولم يبق للبلاغة في الخطب والدروس شيء يذكر، ولا لكلام الوعاظ والقصاص ما ينفع العامة. وآض كل فرع من علوم العقل إلى تفاهة[(١)]».

وقال أيضاً:

«بقي أن نقول شيئاً في علم المشايخ، وقد رأينا أكثرهم يجمدون على ما تعلموا، ويكتفون بما تيسر لهم أوان الطلب، خصوصاً إذا كانت بلادهم تتقاضاهم شهادات رسمية كمصر، والشهادة جماع المعرفة عندهم لا يحتاج صاحبها إلى غير ذلك. ورأينا أكثرهم إذا بلغوا درجة توهموها رفيعة يضربون عن كل ما ينير عقولهم، ويزيد في ثروتهم العلمية والأدبية، وقد لا يهتمون للنتائج اهتمامهم بالظواهر.

وكنا نرجّي من الأزهر أن يخطو خطوة إلى الأمام في عهده الأخير بعد أن قال شيخه في تقريره لأول أمره: إن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين

---

(١) المذكرات: ٢/ ٦٤٣.

سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم، وإن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه، وصار من المحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغير التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة الأولى إلى ذلك جريئة لا يبالي فاعلها بما تحدثه من ضجة وصراخ. ا هـ.

ولما جاءت ساعة الوفاء بالوعد توقف الشيخ الأكبر عن المضي في إصلاحه، مع أن الظاهر أنه يجد معاونة من أكبر سلطة في مصر، ويصفق له كل عاقل، ولا أزال أعتقد أن من نبغوا من جماعة المشايخ وعملوا أعمالاً عظيمة أمثال الشيخ محمد عبده في مصر والشيخ طاهر الجزائريّ في الشام كانوا فلتة من الفلتات.

وبالله عليك ـ أيها القارئ ـ لا تحرجني لتخرجني إلى التصريح بما أنتج هؤلاء المشايخ لخير الإسلام، فقد صدرت في العهد الأخير نحو عشرة تآليف في سيرة رسول الله كتبها كتاب مصريون من أرباب الطرابيش، ولم نر تأليفاً واحداً لشيخ أزهري ولا لغيره من أرباب العمائم، وشهدنا المستعربين من علماء المشرقيات في الغرب يحيون تراث العرب والإسلام بنشرهم بعض المخطوطات العربية، ويعلقون عليها ويعارضونها على النسخ المختلفة، وقَلّ أن شهدنا لعالم أزهري عناية تشبه عناية هؤلاء الغرباء، أليس هذا عنوان ضعف الأزهريين وإهمالهم ما يفترض عليهم؟ ألا يعد في باب العجز المطلق أن الأزهر إلى اليوم لم يوفق إلى وضع فهرس علمي منظم لخزانة كتبه العظيمة؟ كأنه في انتظار أحد علماء المشرقيات من الإفرنج ليضع له فهرست كتبه أيضاً. الأزهريون ومن تابعهم وشايعهم من المشايخ يعملون بعقلية قديمة، لا يرغبون كثيراً في المعنويات، وكان الرجاء ألا تكون رغبتهم في غيرها.

كتب الأستاذ محمد علي علوبة باشا في كتابه «مبادئ في السياسة المصرية» صفحة جميلة في هؤلاء الأزهريين تصدق على المشايخ عامة، نعى عليهم توانيهم في خدمة دينهم ولغتهم، وتساءل عما أنتجوه في مئة عام في أصول الدين والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والأخلاق والتاريخ والفلسفة، قال:

«وكنا نرجو من رجال الأزهر أن يخرجوا معاجم اللغة العربية للناس سائغة متفقة مع حاجة العصور الحاضرة فضاع رجاؤنا، واضطررنا إلى الالتجاء في لغتنا لغة قرآننا إلى معاجم المستشرقين والآباء اليسوعيين، وكنا نرجو أن يخرج لنا الأزهر ـ وقد مضى على تأسيسه ألف سنة ـ من المؤلفات والبحوث الدقيقة في علومه المختلفة ما يحقق أطماع العالم الإسلامي، بل إنا نرجو ونطمع أن يخرج لنا أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد في الفلسفة، والطبري وابن خلدون والمقريزيّ في التاريخ، وعبد الله ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب في الأدب، وغير هؤلاء في التوحيد والفقه والتفسير والحديث والمنطق، وما إلى ذلك مما يمارسه الأزهر ويقوم به».

ونحن لا نقول أكثر مما قال صديقنا الأستاذ المراغي شيخ الأزهر نفسه ـ عليه الرحمة ـ من أن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة، وظنوا ألا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه، ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الجديد، وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس، فلم يؤدوا الواجب الدينيّ الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حَمَلة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين[١].

❁ ❁ ❁

التكالب على الدنيا والإخلاد إلى الأرض:

وهذا من أكبر المصائب التي أصيب بها كثير من المشايخ، حيث فتنوا بالدرهم والدينار، واستطاعت كثير من الدوائر إسكاتهم وإغراءهم والعياذ بالله، نعم إن عدداً لا بأس به من المشايخ سلم من هذا الأمر، لكن عدداً كبيراً منهم فُتن وانزلق، وعبر عن ذلك الأستاذ محمد كرد علي قائلاً:

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

«طال تفكيري في حال المشايخ الفقهاء، فما رأيت أكثر من عاصرتهم إلا شبه العامة؛ بحرصهم على شهواتهم، وتحيلهم لاقتناص الدرهم والدينار، واستحلال كل ما يوصلهم إلى رغائبهم، وزادوا العامة بأن تلفقوا أشياء من العلم يستخدمونها لمنافعهم وللإبقاء على مظاهرهم، فهم لا يعدون العامة في كل ذلك مهما أحسن الظن بهم، ومن لا يعمل بعلمه موته وحياته سواء.

وبعد أن كان من المشايخ إلى أواخر القرن الماضي من ينكر المنكر ويدعو إلى المعروف، قَلَّ جداً عدد من كان على هذه السيرة، وغدوا لا يهتمون لغير راحتهم ورفاهيتهم، وهذا لا يتهيأ لهم إلا بمصانعة الملوك والحكومات ليفيضوا عليهم من إحساناتهم، ويرقوهم إلى أعلى مراتبهم ودرجاتهم، كأن العلم لا ثمرة له إلا نفع من تعلمه فقط، لا نفع من تستدعي الحال هدايتهم ورفع أصواتهم عند الاقتضاء بما يدفع بالأمة إلى الأمام خطوة أو خطوات»[1].

وقال أيضاً:

«وأعرف شيخاً دلس على الأمة ستين سنة، وجاز على العامة وبعض الخاصة تدليسه، وجمع مالاً كثيراً من طرق شتى، ومن دول رأت استمالته، فما إن دُلي في حفرته حتى استولى أولاده على إرثهم، وبددوا ما ورثوه في الطرق التي يبذر فيها المستهترون أموالهم، وفي أقل من أربع سنين اضمحل الإرث بتمزيق أموال الأشرار تغتبط نفوس الأخيار[2]».

وقال أيضاً:

«كان لي صاحب من أعظم رجال الدين، وكنت أعجب بأوليته وبما فطر عليه من حب الحق والعدل، وفي سبيل ذلك أوذي وما التوى، فلما تقدم به الزمان، وتربع في

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٢٨.

(٢) «المذكرات»: ٣/ ٨٥١.

دست السلطان، هان عليه ـ بغية جلب المغانم لمن يحب، ووضعهم مواضع ليسوا لها بأهل ـ أن يحلل لنفسه سلب الحق من صاحبه ليلقيه إلى يد من لا يستحقه مدفوعاً بعامل الشفقة والعطف. وسالب الحق من صاحبه وحامله إلى غير أهله سارق، والسرقة أنواع كما أن الرشوة أنواع. ولطالما اشتهيت أن أرى في رجال الدين من يعملون حقيقة بما علموا. وشهدت بعضهم قد عفوا عن أشياء لقصور فيهم أو عجز أو لتوقع مظهر أكبر ومغنم أوفر، حتى إذا فتحت أمامهم سبل الانتفاع أفتوا لأنفسهم بجواز ما اجترحوا.

وما برحنا منذ الزمن الأطول بين عالم ذكي يدور مع الأيام كيف دارت، ويدوس كل ما يمنع عنه منافعه ويصده عن شهواته، وعالم غبي يعتقد الخرافات ويعف عن المحرمات، الأول: شيطان متحرك، والثاني: غبي أخرس، وفتوى كل منهما تكيفها أهواؤه[١]».

❁ ❁ ❁

تزلف بعضهم للساسة:

الشيخ إذا تزلف للساسة ضاع، وضعف تأثيره في الناس، وقلّ بهاؤه، ولم يستطع النطق بكلمة الحق، وإذا داهن ونافق فقد اكتمل شقاؤه والعياذ بالله، وهذا الأستاذ كرد علي يصف طائفة من هؤلاء مبيناً أثرهم في المسلمين بأنهم: «ينيمون أفكارهم باسم الدين، وهم كانوا من العوامل في تضييعه؛ لسكوتهم عن الحق وإقرارهم الباطل، وأصحاب الخلافة التركية[٢] يكافئونهم على قلة دينهم، ويُنَغّلونهم الرواتب والرتب، ويخلعون عليهم السِيم والقصب[٣]».

---

(١) المذكرات: ٢/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٢) كلامه عن الخلافة التركية المقصود به جمعية الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية التي كانت تتحكم في الدولة العثمانية زمان محمد كرد علي .

(٣) ملابس مزخرفة .

وكان الذين يبيعون ذممهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون إلى من جاء بعد الترك، يتجسسون لهؤلاء كما كانوا يتجسسون لأولئك، ويصانعون القادمين بمثل ما كانوا يَدْهنون للراحلين، ومنهم من يمدون أيديهم اليوم فيقبضون من صناديق الاستخبارات ما يسدون به نهمتهم، ويزيدون به راتباً آخر إلى رواتبهم، ويصدعون بما يؤمرون بالدعوة إلى تفريق القلوب، وتمزيق الأمة شيعاً حتى إن منهم من قالوا ـ وما خجلوا ـ لكبير من ساستهم: إنهم رأوه في الحلم يرتع في الجنة مع الصالحين من المؤمنين، ومنهم من قال: احمدوا الله على وجود الأجانب عندنا[١]؛ فإن بوجودهم حفظ الدين، وكان قبل أشهر ينادي بالقيام عليهم من أجل الدين[٢]».

❁ ❁ ❁

تزلف بعض المشايخ للكفار!!

ذكر الأستاذ كرد علي حوادث لمشايخ يتقربون إلى الفرنسيين المحتلين وإلى النصارى تقرباً عجيباً، وإليك كلامه لتعلم كيف انحطت أمة هؤلاء بعض صفوتها:

«عرفت شيخاً كان معلماً في كتّاب يأتي ما يأتيه المُجّان، ويغتاب وينمُّ، ويلقى الشغب بين أصحابه، فقلت لشيخه: رأيت من اختلفوا إلى مجلسك قد حسنت أخلاقهم بعض الشيء حتى الباعة والصناع إلا صاحبنا فإنه يسمع كلامك ليل نهار، ولم يأخذ من سيرتك شيئاً. وهذا الرجل عرض عليَّ بدخول المحتلين[٣] أن أعرفه إليهم، وقال: إنه مستعد ليأتيهم بما ينفعهم من الأخبار، فقلت له: أنا لا أعرفهم، وليذهب بنفسه يعرض عليهم هذه الخدمة.

وقد ارتكب في الوظائف التي وليها ارتكاباً لا يصدر إلا عمن عري من كل خلق

---

(١) أي: الفرنسيين أيام استخرابهم الشام.

(٢) المذكرات: ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) أي: الفرنسيين.

ودين، ورأيته يقبّل ركبة رئيس أحسن إليه ويطلب رضاه ويذكر جميله معه، فلما سقط قام يقدح فيه على المنبر في المسجد، ونسأل الله السلامة.

لم يخجل شيخ آخر وهو شيخ معمَّر يدعي الشرف، وصاحب منصب علمي كبير من تقبيل الباطن والظاهر من كف المفوض السامي[١]، وهذا الشيخ تولى القضاء، فكان يدوس الشريعة في سبيل دراهم يجتعلها. عهد إليه في محنة من المحن توزيع مقادير من الحنطة على العلماء؛ فأعطى من أحب إعطاءه، وممن خصهم بمؤنته من الحنطة بقّاله وقصّابه وخادمه وبائع الدخان، عدّهم من العلماء وحرم كبار العلماء، وجمع من هذا الاحتيال مبلغاً ابتاع به عقاراً جديداً، وادّخر الباقي للأيام السود.

وأدركت شيخاً كان على علم ومعرفة بزمانه، تحدث الناس فيه واختلفوا في أمره، وربما حسده بعض أبناء صناعته لانهيال المال عليه في صور مختلفة من مرتبات وهبات وتجارات. كان سمته سمت الزهاد والعباد، وعمله عمل أرباب الدنيا. ما كان كبعض شيوخ الأزهر لعهدنا يلبسون الحرير ويتختمون بالفضة والذهب، ويركبون السيارات الفخمة، ويبنون العقارات والدور، صرف في التعليم والإرشاد حياة طويلة يغبط عليها، ولم يضع كتاباً ولا رسالة، ولا عرف له رأي ولا مذهب، اللهم إلا ما كان من دروسه التي أشبهت دروس القصاص، لو دُونت لرأى فيها أهل العلم صورة عقله وحقيقة أمره، وشأنه في ذلك شأن المشايخ عامة في عصرنا يحفظون ولا ينتجون، أما هو ففاقهم بسعة محفوظه وحسن إلقائه، وإلباس علمه لباساً يلوّنه حسب الأحوال.

وكان هذا الشيخ من أغرب من عاصرت، روى أحد ذوي قرباه أنه صحح في بعض دروسه أحاديث المهدي وهي موضوعة ضعيفة[٢]. وقال: إن المهدي المنتظر جاء البلد منذ أيام وضاف عند بعضهم، ولما انتهى الدرس لحق به أنجب تلاميذه

---

(١) أي المفوض الفرنسي!! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) ليست كلها ضعيفة بل فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع.

وسأله عما إذا كان عليه نزل المهدي فابتسم، وأوَّل بعضهم ابتسامته بأنها إشارة إلى أن الأمر كان كذلك.

وادعى هذا الشيخ الخلافة لما رأى حبلها يضطرب، ثم عدل عنها لما هُدّد.

وكانت له منذ نشأته علائق مع بعض ساسة الغربيين، ويعطف كثيراً على أبناء الذمة. وأنكر على أحد تلاميذه تساهله مع إحدى الطرق وأبان له أنها تنافي الإسلام، وما تعدى إنكاره حدَّ المذاكرة بين شيخ وتلميذه، وما أحب أن تشيع أفكاره لئلا تصل إلى مسامع من يحب رضاهم. وأنكر مرة الإسراف في بيت المال، فلما أعطي منه راتباً ضخماً سكت، وأثار الأفكار على أعداء الدين حتى نشبت الثورة عليهم[1]، فلما رضي عنهم حمد الله في مجلسه على وجودهم، وقال: إنه بوجودهم حفظ الدين[2]».

❁ ❁ ❁

جهل بعض المشايخ الرسميين:

كان بعض من يسمون مشايخ وتعينهم الدولة جهلة، ولذلك لم يستطيعوا القيام بما كان منتظراً منهم، ومثال على هذا ما ذكره الأستاذ محمد كرد علي من محاورة جرت بينه وبين رئيس وزراء سورية آنذاك تاج الدين الحسني رحمهما الله تعالى، فقال:

«قلت للشيخ تاج الدين[3]: إن الوعاظ قد جرى تصنيف درجاتهم، ونالوا رواتب ما كانوا يحلمون بها، ودفعت لهم الحكومة المتأخرات من المشاهرات[4]، فمن

---

(١) أي الفرنسيين.

(٢) «أقوالنا وأفعالنا»: ٢٥٨ ـ ٢٦٠.

(٣) هو الشيخ تاج الدين الحسني، رئيس وزراء سورية.

(٤) أي الرواتب الشهرية.

الواجب أن يعلموا الأهلين دينهم، وما ينفعهم في دنياهم، ومن أخذ الأجرة طولب بالعمل. وزينت له أن يأمرهم بالتدريس لشدة الحاجة إلى ذلك، وضربت له مثلاً بسكان الشاغور ـ أحد أحياء دمشق ـ وقلت له: إن عددهم لا يقل عن ستة عشر ألفاً، وقلما تجد بينهم من يعرف الحلال والحرام، لا يحسنون التطهر ولا التعامل، ولا إقامة الشعائر على الأصول، فإذا كان من سكان الحاضرة من هم على هذه الشاكلة فما بالك بالقرى البعيدة؟ فقال: سأذكر ذلك للمفتي. وبعد أيام عدت فسألته هل أوعز إلى المفتي ليشرع الوعاظ بالتدريس، فأجاب: إن المفتي يحاذر أن يشغبوا عليه، فلا يجرؤ أن يدعوهم إلى ما تريد، فقلت: إن المفتي إذا أمرته يأتمر حالاً بأمرك، وجماعة الوعاظ مرتبطون بمقامك مباشرة، فأنت تدعوهم إلى واجبهم فيطيعونك. فقال: سنرى. وعدت بعد أيام وذكرته بالموضوع فتململ، وقال: وأنت ماذا تنتظر من هؤلاء المشايخ؟ فقلت: لأنا بتعليم العوام دينهم تقتصد الحكومة من السجون ومن الشرطة والدَّرَك، وتجود الصحة وتخف الأمراض، ويقل الشغب ويرتاح السكان. فقال: دعك من هذا وهل يعلمونهم غير الخرافات؟ فقلت له: وهل دين الإسلام خرافات؟

وقصصت ما وقع لي مع الرئيس بعد حين على أكبر علماء البلدة فقال: كان عند الشيخ جواب سؤالك لكنه تعمد ألا يجيبك، ذلك لأن الخمسة والأربعين واعظاً الذين أخذوا كما قلت رواتب جيدة، ما كان العلماء يقبضون مثلها، لا يقتدر على التدريس منهم سوى سبعة، والباقون من العوام، لا يحسنون التدريس ولا الوعظ، وهم المصفقون له ولأبيه، فقلت له: كنت أحب وقد دخلت الدسائس في السياسات، أن يكون الدين عنها بمعزل، وبقي هؤلاء المدرسون الجهلة إلى اليوم يقبضون الرواتب فقط.

واقترحت على الشيخ[١] أن تدرس العلوم الإسلامية في المدرسة السميساطية،

---

(١) هو الشيخ تاج الدين الحسني، رئيس وزراء سورية.

وكانت خراباً فعمرت، وذلك بأن يختار لها بواسطة وزارة المعارف في مصر عالم مصري، يديرها ويتولى تدريس بعض الفروع التي يؤثرها، وينتخب لمعاونته في التدريس من يشاء من أساتذة السوريين. ومما ذكرت أن هذه المدرسة إذا خرجت كل سنة عشرة من الطلبة يتولون المناصب الدينية، لا تمضي أعوام حتى يكثر الكفاة من أهل هذا السلك، فيصبح علم الطالب بعد ذلك شرطاً أساسياً في تقلد الوظائف الدينية، وأكدت له أنه إذا تم هذا، وجعل أحد رجال المعارف عضواً دائماً في مجلس المدرسة، والمعارف لا تخلو في كل زمان من علماء، يعود هذا عليه بسمعة طيبة، خصوصاً وأبوه شيخ وجده شيخ وهو شيخ، وسلسلتهم في المشيخة كالحلقة المفرغة لا يعلم أين طرفاها.

وذكرت للرئيس أن هذا المشروع لا يحتاج أول الأمر إلى أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية تؤخذ من أموال الأوقاف، فقال: إن مدير الأوقاف لا يرضى بإعطاء هذا المبلغ الضخم، فقلت له: إن مدير الأوقاف قريبك وصنيعتك، ولا يتأخر عن إعطائك ما تأمر به من مال الوقف؛ الذي لم يقفه المسلمون إلا على إقامة الشعائر وتعليم الدين، والغالب أنه لم ير من مصلحته أن يتعلم أحد التعليم الديني، ويفضل أن يكونوا من الجهلة ليسوقهم إلى إنفاذ أغراضه[1]».

❁ ❁ ❁

مخالفة بعضهم قولَه فعله:

قال لي صديق له دالة عليّ: إنك تنظر في حساب المشايخ الفقهاء بتدقيق يزيد على تدقيقك في حساب سائر الطبقات، وأنت إنما حصلت على ثقافتك الأولى من المشايخ؛ فهلا رعيت طبقتهم على نسبة ما ثقفت عنهم؟ وما نخالك تنكر أيادي الأجلّة الذين أخذت عنهم وتأدبت بأدبهم.

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

فأجبته بأن غيرتي على مقدساتنا تدعوني إلى أن أُحاول بكل ممكن إدخال الإصلاح على سلك المشيخة، لعلمي بأن أصحابها هم رجال المدرسة الأولى للأمة، وأن معظم الناس يستجيبون لنصحهم وإرشادهم.

أنا لا أُبغض المشايخ لأنهم مشايخ، وأمقت بعضهم لأنهم عبثوا بواجباتهم، وكان المأمول أن يكونوا أحسن مما هم لأنفسهم ولقومهم، فقد تمت شرور على أيدي الحكام الظالمين كان المشايخ العلة الأولى فيها. وأنا أحب على البعد والقرب من كانت نفسه بعيدة عن المطامع الخسيسة، والظاهر والباطن من سيرته سواء، وليس بيني وبين المشايخ ثارات، وكنت ولا أزال أنكر ما بدا من جشعهم، ولا يناسب دعواهم ودعوتهم.

أحببت كثيرين ممن عاصرتهم من مشايخ الشاميين والمصريين والعراقيين، وأُعجبت بسيرتهم ونوهت بفضلهم، لأنهم عملوا الخير وعلّموا أُمتهم ما علموا، وترفعت نفوسهم عن سفساف الدنيا إلا ما لا بدَّ منه لمعايشهم. أنا أعرف أن للمشايخ كغيرهم واجبات لا بد من قضائها، يعوزهم المال، وتحدثهم أنفسهم بالظهور، ولكن طريقتهم تخالف ما يقرؤون في كتب الدين، ومنهم من كانوا أبداً أجرأ ناس على انتهاك حرماته، وهذا ما يزيد كراهتي لهم، واحتقاري لثرثرتهم، وتزييفي لخططهم.

أنا أكره كل منافق فكيف بمن ينافق في دينه، والنفاق في الدين ألا يعمل به وهو يدعي أنه المحافظ الأمين عليه.

وأكره من يدلس في الدين فكيف يكون كرهي له إذا كان من رجال الدين، وأكره من يظهر للعالم غير ما يبطن ليخدعهم وينفق عليهم بالباطل، والعلم بالدين أن يدخل هديه شغاف القلب، وتتهذب النفس بأدبه حقاً وصدقاً لا رياء ونفاقاً[1]».

❁ ❁ ❁

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

حسن حال بعض المشايخ:

لم يكن كل المشايخ سيئين، لا، وأعوذ بالله أن يكونوا كلهم سيئين، وكان منهم من هو كالشامة في صفاته وأفعاله، ومعاذ الله أن يخلي الأرض من قائم له بالحجة، ومن هؤلاء الشيخ سعيد الحلبي حيث قص علينا الأستاذ كرد علي قصته مع إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر، وكان قد أرسل ابنه إبراهيم فاستولى على الشام وأكثر أراضي تركيا اليوم، ثم ردّته الدول الأوروبية مراعاة لمصالحها بعد أن كاد يستولي على إسطنبول لضعف العثمانيين، فقال الأستاذ:

«أراد إبراهيم باشا[1] أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده في نزع القطر من العثمانيين، فاعترض كبير علمائها الشيخ سعيد الحلبي على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات، فأخفق القائد في الوصول إلى غرضه، وغضب، وزاد في غضبه أنه ما سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ كما هي العادة. فسأل: أين يجلس الشيخ؟ فقالوا له: في الجامع الأموي، وله غرفة فيه يقرئ فيها تلاميذه، فتحين الباشا وقت وجود الشيخ في حجرته ودخل عليه وجلس، فما التفت الشيخ إليه ولا قام إجلالاً له حتى أتم الدرس وهو يمد رجله، ثم حول وجهه إلى الباشا وسلم عليه سلاماً عادياً ولم يغير جلسته، فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد، ومن الغد أرسل إلى الشيخ صرة جنيهات فردها وقال للرسول: إني أشكر الباشا على عنايته، وأرجو أن تقول له: إني غنيٌّ، ومن يمد رجله لا يمد يده. قال الباشا لخواصه: لو قبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته؛ لأني أعرف عندئذ أنه منافق ظاهره غير باطنه[2]».

---

(١) هو إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ملك مصر، دخل الشام في القرن الثالث عشر الهجري، وطرد منه العثمانيين، وتعقبهم إلى أطراف إسطنبول، وكاد يقضي على الخلافة العثمانية لولا أن ضغط الأوروبيون على أبيه فردّه .

(٢) المذكرات: ٣/ ٩٧٣ .

وقال أيضاً عن عالم العراق المشهور محمد شكري الآلوسي رحمه الله تعالى:

«ولما دخل الإنكليز العراق بعد الحرب العامة[1] زار حاكمها البريطاني السيد محمود شكري الآلوسيّ ـ العالم المشهور ـ في منزله ببغداد، ودفع إليه صرة من الورق النقديّ، ورجاه أن يتقلد أرقى منصب دينيّ في بلاد الرافدين، فأبى الآلوسي قبول ذلك، وادعى أنه في سعة من العيش ولا حاجة به إلى المال، ولا أَرَب له في تولي عمل، وكانت سيرة صديقنا الآلوسيّ سيرة السلف الصالح، لم يسف حياتَه إلى مال، ولا ركض وراء جاه، وخدم أمته بعلمه حتى الممات[2]».

وقال مبيناً حسن حال الشيخ سليم البخاري رحمه الله تعالى:

قوي الجهل في الولايات العربية على العهد العثماني، والدولة ترغب في امتداد أيامه وتقوية أواصره؛ لأنها تعتقد أنها تبقى حاكمة على العرب ما داموا جهلاء، وإذا تعلموا واستنارت عقولهم خرجوا عن حكمها. وساعد على نشر سياسة الجهالة من لا يخافون الله من أرباب المناصب الدينية الكبرى، وما كان هؤلاء إلا أرباب الوجوه الصفيقة من ورثة المناصب، أو من ابتاعوها بالدراهم.

وتولى رئاسة العلماء في مدينة دمشق أستاذنا العلامة سليم البخاري، فشق عليه أن يشهد شرع الإسلام بأيدي الأميين الجهلة، فبدأ بإخراج السقيم من بينهم والإبقاء على السليم منهم. وبدا للشيخ أسعد الصاحب، وكان نشر كتباً ورسائل استكتبها بالأجرة؛ أن يقنع شيخ العلماء بأنه عالم ومؤلف، فتأبط نسخاً من تآليفه وشخص إلى مقام الرياسة، فصادفه أحد أقرانه وهو على مستواه من العلم، فسأله عن وجهته وعن الكتب التي يحملها، فأجاب أنه ذاهب إلى رئيس العلماء ليطلعه على بعض مصنفاته. فقال له: أنا أنصح لك أن ترجع من حيث أتيت أنت وما تحمله من كتبك، فإني

---

(١) أي الحرب العالمية الأولى، وذلك سنة ١٩١٨ .

(٢) «أقوالنا وأفعالنا»: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

أخشى أن يفتح لك الرئيس، وهو يعرفك معرفة جيدة، صفحة من تأليفك هذه، ويطلب إليك أن تقرأ له، وأنت لا تستطيع أن تتلو مقطعاً واحداً دون أن ترتكب عدة غلطات. فقبل المؤلف نصيحة زميله وعاد أدراجه.

ذكرت هذه القصة لما استعرضت تآليف بعض المحدثين من المؤلفين، وكيف يحاول بعضهم أن ينفقوا على الأمة ببضاعة مزجاة، وينشروا سخافات وترهات، ويساعدهم رخص الطبع والورق، وإعفاء الكتب من المراقبة[1].

وبين الأستاذ أيضاً حال الشيخ محمد بخيت المصري الأزهري، والشيخ عبد الله المنجد شيخ قراء دمشق، فقال:

«سمعت الشيخ محمد بخيت من كبار علماء مصر يقرأ بعد صلاة العصر في شهر رمضان بمسجد سيدنا الحسين بالقاهرة درساً دينياً لم أفهم إن كان موضوعه وعظاً ورقائق، أو فقهاً، أو تفسيراً، أو حديثاً. وكان الشيخ تجاوز التسعين فيما أحسب، وصوته ضعيف، وهو يحرص على تعليم قومه، وقد بلغت منه الشيخوخة أن يحمل من سيارته حتى يجلس على مقعده في الجامع، وقومه لا يتلكؤون عن الحضور عليه والتبرك بما يقول. وكانت سيرة الأستاذ تنعي على معظم العلماء من بني وطنه أنهم جد مقصرين في تثقيف العامة، ومن عادتهم أنهم متى أحيلوا على المعاش وتقاعدوا عن خدمة الحكومة يقبعون في بيوتهم ذاهبين إلى أنهم قاموا بواجبهم، وانتهت مهمتهم في خدمة العلم والدين، أما الشيخ بخيت عليه الرحمة فظل يكتب ويؤلف ويدرس إلى آخر أيامه.

قلت ذات يوم لصديقي الأستاذ الشيخ عبد الله المنجد شيخ القراء بدمشق: أراك ملتاث المزاج، فلماذا لا تصطاف وتريح نفسك من عناء الدرس أياماً، فكان جوابه: إن ما تقوله سديد، والأمور ميسورة، لكنني أرى أن أتريث الآن لأن تلميذي الشيخ

---

(١) المذكرات: ٣/ ٩٧٩.

عبد القادر قويدر العربيلي بقي له من القرآن أشياء يسيرة يجب أن ألقنه إياها، وأخاف إذا تغيبت مدة عن المدينة أن تفوت الفرصة وأموت قبل أن يختم ما أرى تختيمه إياه. ومات شيخ القراء خلال الأشهر القليلة التي مضت على هذا الحديث بعد أن أتم لتلميذه كل ما يجب أن يلقنه إياه.

فهل بعد هذا إخلاص أعظم من إخلاص هذين الشيخين العظيمين للدين والعلم؟[1]»

❁ ❁ ❁

نهضة دينية جزيئة

رأيت في العقد الأخير نهضة دينية تهللت لها، قام بعض الغُير على الدين بعد أن رأوا ضعف مشخصاته في كل مظهر من مظاهره. أدركوا أن ليس لهم مخرج مما صارت إليه الأمة إلا بتعليمها أصول دينها، فأنشؤوا مدارس ودروساً في حلب وحماة ودمشق، وأرادوا إرجاع الناس إلى الجوامع، وقد هان عليهم الاختلاف إلى الحانات والملاهي، وممن قام بكبر هذا الأمر المهم العلامة الشيخ سعيد النعسان في حماة، والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار في دمشق وغيرهما في غيرها، فتخرج بهذين العالمين عشرات من الطلبة تلقنوا الشريعة على أصولها، وقام في دمشق عالم من طراز آخر علَّم العامة تعليماً لا يخلو من جمود وحشو، ولكنه ينفع من بعض الوجوه لأن طلابه انبثوا في القرى الشامية، وكان بعض أهلها على وشك الخروج من الإسلام بفعل الجهل كما حدث منذ سنين، وقام العلامة الشيخ عبد القادر القصاب رحمه الله في دير عطية في جبل قلمون وعلم كثيراً من الطلبة انبثوا في أنحاء الجبل، فأعادوا الضالين إلى حجر الإسلام.

وكما فعل صديقنا العلامة عارف النكدي ففتح مدارس وكتاتيب لأبناء الدروز في

(١) المذكرات: ٤/ ١٠٤٧.

عبية وما جاورها من القرى في لبنان، وأخذ يدرس أبناءها القرآن الكريم، يريد أن يعيدهم إلى السنة، كما كان من العلامة جمال الدين التنوخي من أهل القرن الثامن بما وقفه من الأوقاف العظيمة على هذه الغاية. وتعليم أبناء الدروز وبناتهم خطوة مباركة يخطوها أبناء هذه الطائفة نحو الإسلام الصحيح؛ وذلك بفضل بعد نظر الأستاذ النكدي وذكائه النادر.

ثم أسست إدارة الأوقاف في عاصمة الشام مدرسة العلوم الدينية، وأخذت تخرج طلبة منورين من طوائف إسلامية مختلفة، وانصرفت همم أفراد من أبناء فلسطين ولبنان والعلويين وبلاد الشمال والجنوب في سورية فدرسوا في الأزهر وفي كليات الاختصاص فيه، ومنهم من عاد إلى وطنه بشهادات تدل عن دراساتهم النافعة مثل السيد أنور سلطان، والشيخ علي الطنطاوي ويزيد هذا إلى علمه وفقهه أنه كاتب من الطراز الأول، وهو من الطبقة التي تحسن أدب العربية إحساناً يساعدها على فهم الشريعة أكثر من الجاحدين ومن قلت عنايتهم بهذه الفروع.

كل هذا حسن ويشير إلى خير عميم، لكننا لم نجد من تعلموا قد وُسِّدت إليهم الوظائف الدينية التي استعدوا لها، وما زال بعض الجامدين الجاهلين الذين تلوثوا بالرُّشا، واشتهروا بإضاعة الحقوق قابضين على أزمة القضاء والإفتاء، ومن مصلحة الرؤساء منهم ألا يتركوا مجالاً لظهور الشباب وهم ينبذونهم من كل وجه حتى تكون المنافع وقفاً عليهم وعلى جماعتهم على ما كانت عليه الحال في القرن الماضي والقرون الثلاثة قبله. فعلى من يفرقون بين الصحيح والبهرج أن يتخلوا عن كل اعتبار، ويطرحوا الجهلة الفاسدين جانباً، ويستعيضوا عنهم بالفئة الصالحة من مثل هؤلاء، وبذلك فقط تخدم الشريعة[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

آراء سديدة للشيخ طاهر الجزائري الدمشقي:

كثيراً ما سمعت الشيخ طاهر الجزائري يقول:

إن أفضل الطرق في إنهاض شعب: تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة ولكنها أمينة الغائلة، لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي، أما القول بالثورات وطرق العنف فقد تنجح، ونجاحها قليل، وليست مضمونة.

كان يقول لخاصته:

إذا أردتم النجاح فلا تلقوا آذانكم لما يقال فيكم من مدح وقدح، وسيروا إلى الهدف بقدم ثابتة تُفلحوا، وتوقوا إضاعة الوقت بالقال والقيل وما لا ينتج فائدة من قول وعمل.

كثيراً ما نصح لبعض من يحب:

إياكم أن تَخُطّوا في رسائلكم إلى إخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة، فكل ما يكتب لا يؤمن نشره، ويفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه.

سأله أحد شيوخ الحشوية رأيه في كتبه، وكانت كلها كتب خرافات وشعوذات بعيدة عن روح الدين الصحيح، فقال له: يا فلان اشتغلوا ونحن نشتغل، وسنرى لمن تكون النتيجة.

كان يقول لبعض تلاميذه:

تعلّم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيراً، فلا خير للمرء بإكراهه على معاطاة أمر تضيق به نفسه.

وكان يقول لهم:

تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة، فقد يجيء زمن تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا إنها لا تدخل في نطاق اختصاصنا، فالعلم كله نافع، والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة.

كان يقول لخواصه:

من سوء بخت المسلمين أن استولت الدولة العثمانية على أجمل أقطارهم، وحكمتها قروناً بالجهل والجبرية، فأفسدت الدين وما نشرت إلا الجهل[١].

قال:

فروا من الموتورين والسوداويين فراركم من الوحش، فهذا أحسن.

❁ ❁ ❁

الأمير شكيب ارسلان وبعض جهوده:

«كتبت إلى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التي تصلح للانتفاع بها في المستقبل، يطبعها في كتاب برأسه، وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي، فأجابني من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي: «أما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع فواجب، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب؟ لكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب. كلما قرأ الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليَّ بالاقتراحات، ولا أبالغ لك إذا قلت إن الجرائد والمجلات التي تبغيني أن أكاتبها تزيد على أربعين، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن أجيبها إلى رغبتها، وبعضها إذا كررت الطلب ولم أبادر إلى إرضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استياءها. ولا أعلم لماذا كرم الأخلاق يؤدي بالإنسان إلى العبودية، فأنا على ثقة أني لو لم أكتب في بعض جرائد وبعض مجلات، وكنت قابعاً في زاوية أقرأ لنفسي وأكتب لنفسي ما كانوا يطمعون هذا الطمع بي، لكنهم ما داموا يقرؤون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتي، تشتد بهم رغبة المطالبة والإلحاف في سؤالي مقالات. ومن الغريب أن

---

(١) أبقيت هذه الفقرة حفاظاً على حرية الرأي، وإلا ففيها تجاوز واضح، وغَمْط كبير لمحاسن الدولة العثمانية خاصة في طوريها الأول والوسط، وهو الطور الذي حكمت فيه البلاد العربية.

هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحياً، ولا يقال لها كوني فتكون، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهاراً تاماً من الشروق إلى أن تتوارى في الحجاب، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر في أقل من ساعة، وأن على هذا المسكين الذين يتقاضونه كل هذي المشاق أشغالاً أخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه، وأن عنده كتباً لا بد أن يطالعها. . . إلخ.

هذا لا يهمهم أصلاً، بل يعرفون جملة واحدة من جميع بضائع الطلب: تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال.

وفي أوروبا يطالبون الكتاب بمثل ذلك لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى، فالوقت نقد وكل وقت عندهم له ثمن. وأنا مضى عليَّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي، وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً، وأدفع أجرة البريد من كيسي، فلو حسبت لا ثمن وقتي بل أجر البرد من ٤٠ سنة إلى اليوم لكانت مبلغاً لا يستخف به، فأنا أسامح بكل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي، وإنما أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا إلى رجل وطئ ساحة الستين، وصار محتاجاً إلى الراحة.

ولقد يقال لي: إذا كان الأمر كذلك فلا تبال بطلب زيد، ولا باقتراح عمرو، وامض في شغلك، وأنت حر لست مقيداً بخاطر أحد.

والجواب: نعم كل هذا ممكن، ولست مضطراً أن أرضي الناس بكل ما يريدونه مني، ولكن الحصة التي أريد أن أستخرجها من هذا، على رأي الترك، هي قصور أمتنا في معرفة أصول الاجتماع، وسيرهم إلى الآن على الطريقة البدوية. فكما أن المسافر في الفلاة يدخل أيَّ بيت يراه فيها، ويرى حقاً على صاحب البيت أن يتلقاه، وأن يَقرِيه، كذلك كل إنسان منا يرى له الحق أن يستبد بوقت الآخر، ويستثمر عقله وعلمه وجميع وسائله، ولا يرى في ذلك عجباً. فهذه لا أجد منها شيئاً عند الأمم

الأوربية التي لا تفهم كيف أن الإنسان يطالب الآخر بسطر واحد يكتبه مجاناً، فضلاً عن المقالات الكثيرة والحوائج الثقيلة، والتي لا تفهم من كرم الأخلاق أن الكريم يجب أن يصير عبداً لمن يكرمه، بل الحرية عندهم هي فوق كل شيء.

وتشيرون بأن نجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه، وهو أمر يحك في صدري دائماً، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك؟ إني لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فإنه يملأ أجلاداً وأجلاداً، ومن يقرأ هذا كله؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا؟ ولكني أفكر في انتقاء الأحسن وجمعه، وإعادة النظر عليه، وتصحيح شيء، وحذف شيء، وإضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً، وهذا كله يستلزم وقتاً. فأما طبع كل ما خطته بناني فغير مستطاع، لأنه مفقود منه الشيء الكثير، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم، فإني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ففي السنة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة، فإذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة أي ثمانية مجلدات كبار، وهذا عن ١٢ سنة، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة، وأنا أكتب، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل.

كلا هذا لن أقدر على طبعه. وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة، وهذا كله أنفقت فهي جوهر حياتي، وكفنته بأجرة البوسطة، من كيسي وأجره على الله. وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي سيقولون في ترجمة حالي:

كان - رحمه الله - يكتب كثيراً جداً سبعاً أو ثمانياً من الساعات كل يوم، ولم يكن يساويه في ذلك إلا المرحوم كرد علي. فلذلك أيضاً كان من الأفذاذ في هذا الباب. لا تحزن لقولي المرحوم كرد علي، عسى لا يكون ذلك قبل مئة سنة، ولكن ينبغي أن تعلم أنك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا، وما دام المرء حياً فقلوب معاصريه قاسية عليه، وأنا أفضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حي، من أن ترثي لك وتكثر من إنصافك وقد مضيت بعد زمن طويل....».

وكتب الأمير بعد سنتين أنه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل ما يكتبه من مكتوب خصوصي أو مقالة أو غير ذلك. وعندما انتهت سنة ١٩٣٢ جمع منتوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً و(١٠٨) مقالات وقصيدة واحدة ونحواً من ألف صفحة من علاوات على حاضر العالم الإسلامي [1] وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى. قال: وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين، والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الألفين، وقد كان يمكن أن تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير، وكذلك ما أزعمه من التآليف، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الإسلامي، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي، ولا مندوحة لي عن الجواب لأني أعد ردَّ الجواب كردِّ السلام، وأرى عدم الرد نقصاً في المروءة. وإني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمس أو ست منها فقط تأتي على النهار كله، ولكن ما العمل؟ كنت مرة في برلين فكان أخي عادل يرسل لي من لوزان مجموع ما يأتي به البريد باسمي، فكتب لي مرة على سبيل المداعبة: جاء بريد سورية، وبريد مصر، وبريد الحجاز، وبريد العراق، وبريد المغرب، ولم يبق إلا بريد خراسان وما وراء النهر.. إلى أن قال: والكتاب المعروفون في أوربا عاملون بقاعدة «الوقت نقد» فلا يضيعون أوقاتهم بالجواب على الكتب الخاصة إلا ما ندر؛ لأنهم ينفقون بصائرهم وأبصارهم على الكتابات التي يبيعون منها ويعيشون بها، أما نحن الشرقيين فلا نعرف هذا الحد من حب الذات، والضيافة عندنا مقدسة حتى على العيون، وقصارى ما يرجوه الواحد منا هو عدم المعاتبة إذا تأخر الجواب لأنه متى كثر الشيء لم يكن بد من التدريج في تسريحه. ا هـ.

وكتب إلي يصف عمله في كتبه وما يعد للنشر منها، وختم قوله بهذا: (كتب الله لك ولي السلامة حتى نشفي غليلنا نحن الاثنين مما نريد أن نكتبه ولا نموت إلا وكل واحد منا قلمه في يده). ا هـ.

---

(١) كتاب مهم للأمير شكيب أرسلان حشّى فيه كتاب الأمريكي لوثروب ستودارد، فجاءت حاشية الأمير أضعاف الأصل وأعظم قيمة، والكتاب مطبوع متداول.

كنت أذكر مرة لصديقي مصطفى باك العظم بعض صفات الأمير شكيب فقال لي: إنا معاشر الشبان لا نعرف كل هذا، فهل لك أن تمن علينا بكتابة فصل في مذكراتك، تثقفنا بسيرته، وتعلم أبناء الجيل القادم فضل الرجال الذين عملوا لنا طول حياتهم، فكتبت هذا وما هو في الحقيقة ترجمة مستوفاة لحياة شكيب الحافلة بجلائل الأعمال، بل هو مثال مصغر من جهاده وإخلاصه في خدمة الغرب والإسلام، توخيت ألا أخرج به عن أسلوب المذكرات، ولكل مقام مقال[١]».

❁ ❁ ❁

ما آل إليه حال الأمير شكيب ارسلان:

حدثني الأستاذ محمد علي الطاهر أنه أرسل من القاهرة إلى السيد شكري القوتلي يوم كان رئيساً للجمهورية يخبره بما آل إليه حال الأمير شكيب أرسلان أيام الحرب الأخيرة من الضيق، وطلب إليه إسعافه، فما أجابه الرئيس بشيء مع تكرر الطلب، ثم توفي الأمير وساءت حال زوجه في سويسرا؛ حتى إن السلطات هناك حجزت أثاث دارها، فأرسل الأستاذ الطاهر يخبر الرئيس القوتلي بما صارت إليه حالها ويرجوه أن يمدها بالمال فما أجابه أيضاً.

إن الرئيس القوتلي ضن على الأمير شكيب الذي خدم العرب والإسلام، خدمة لم يخدمها إلا أفراد قلائل جداً، في حين كان ينفق الأموال جزافاً على من كان يسميهم «زعماء الأحياء» لاكتساب تأييدهم في الانتخابات، ولو كان الأمير شكيب نظم قصيدة أو كتب مقالة في مدح الرئيس لخفَّ إلى نجدته أيام عسرته، ولكن الرئيس اعتاد ألا يعاون إلا من يعاونونه في سياسته، وبهذا العمل أثبت ما للعلماء من قيمة في نفسه.

---

(١) «المذكرات»: ٤١٩ ـ ٤٢٣.

ولقد كُتِبت كُتُبٌ عديدة في ترجمة الأمير شكيب منها رسالة ماجستير من مجلدين للأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي.

المبحث الخامس:

الصوفية

قضية التصوف في البلاد العربية قضية طويلة معقدة متشابكة، والقول العدل فيها بعد دراستي لها دراسة طويلة من بطون الكتب القديمة والجديدة، ومناقشتي لبعض أربابها، والوقوف على بعض أحوالها، وسماعي لعدد من أخبارها أن الصوفية الأولى كانت أقرب إلى الصفاء والنقاء، وأن رجالها كانوا ممدوحين ـ في الجملة ـ من مؤرخي وعلماء السلف والخلف، وأنه يقل فيها البدع أو تندر، أما الصوفية المتوسطة فقد غزتها البدع، وابتدأت العقائد الباطلة ـ كالاتحاد والحلول ـ تغزوها، وأما الصوفية المتأخرة فقد كانت إلى البدع أقرب منها إلى السنن، وبعضها مالأ الاستعمار كالتيجانية والدرقاوية ـ على أن بعضها ناوشه كالنقشبندية والسنوسية ـ وكثر في الطرق الصوفية في الأزمنة المتأخرة علاوة على ما ذكرت الادعاءات الفارغة والمزاعم الباطلة، على أن بعض المتصوفة ـ وهم قلة ـ تمسكوا بأذيال الشرع وكانوا إلى السنة أقرب، هذا القول فيهم أزعم أنه قول عدل، منصف لهم.

أما الصوفية في بلاد الشام فقد كانوا كثيرين، وإن لم يكونوا في أحوالهم وأعدادهم كالصوفية في مصر، ولهم انتشار في طبقات المجتمع كافة، وقد تناولهم الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته بقسوة بالغة كانت كقسوة مبضع الجراح حين يجول في جسد المريض طلباً لشفائه، وشملهم في الشام ومصر بالنقد اللاذع، وربما رأى من أحوالهم وأمورهم ما استوجب هذا، لكن لا بد للمرء من العدل والإنصاف في كل أموره وأحواله، ولقد أمرنا بالعدل حتى مع الكافرين فكيف بالمسلمين المخالفين؟!.

وتناثر في مذكراته الحديث عن الصوفية، وجمعت لكم بعضه ها هنا مما أرى فائدة ذكره، والله المستعان.

❁ ❁ ❁

موقف كرد علي من الصوفية:

كان الأستاذ كرد علي بعيداً عن الصوفية، لا يريد سلوك مسلكهم، وإليك حديثه عن حاله معهم فيقول:

«من دواعي التوفيق أن من أخذت عنهم العلم العربي كانوا من طبقة ما عرفت الغش والخديعة، وكانوا من الأحرار المجددين وإن كان ظاهرهم لا ينبئ عن ذلك. ومنهم أستاذي السيد محمد المبارك، وكان متصوفاً، ومريدوه أخلاط الزمر، وتعرفت بالضرورة إلى بعضهم، فاغتنم أحدهم فرصة هذا التعارف وتقدم إلى الأستاذ وقال له: ولماذا يا مولاي لا توعز إلى تلميذك أن ينضم إلى جماعتنا ويدخل في طريقتنا، وتكرر هذا الطلب منه، وفي آخر مرة كثر الإلحاح فعبس الشيخ وقال بوجه منقبض:

هذا طالب علم ويكفيه ما هو فيه مَشغلة. ولو لم يقطع الأستاذ على هذا الفضولي سلسلة هذيانه لانقطعت عن درسه، ولكان من ذلك الضرر العظيم على مستقبلي، ومن الغريب أن هذا الملحاح لإدخالي في الطريق ـ على قلة استعدادي له ـ ظهر بعد مدة خلل في عقله وقتل امرأته.

وحدثني ابن شيخي هذا، الأستاذ عبد القادر المبارك أن بعض جماعة والده أسروا إليه أن ابنك يعاشر (كرد علي) فيخشى أن تسري أفكاره إليه وتفسد عقيدته، فالأولى منعه عن مخالطته، فما كان من الشيخ إلا أن قال لنجله: رجائي ألا يؤثر فيك ما يشيعه بعضهم من أني غير راض عن صحبتك (كرد علي) أنا راض عن هذه العشرة، وأنت حر يا بني أن تصحب من تحب. وكنا ندرس مع ابن شيخنا بعض كتب الأدب التي ما اعتاد المشايخ قراءتها.

رأى أستاذي عدم ميلي للتصوف، وما أحب إدخالي فيما لا يعنيني، ذلك لأنه لا يغش ولا يدلس. ولو كتب لي أن أتصوف لاخترت الخطة التي خططتها لنفسي في الدرس والبحث، وكان مما زهّدني في تصوفهم أني طالعت بعض كتبهم فمنها ما فهمته وأكبرته، ومنها ما لم أحلّ رموزه كالفتوحات المكية؛ فإن في هذا الكتاب الذي لم يفتح الله صدري لفهمه قطعاً تعد من الأدب العالي ونبذاً جميلة في الأخلاق، وإلى جانبها قطع لا يمكن حلها إلا بإلهام إلهي، وبعض ما جاء فيها من المعاني مناف لما ورد في الشرع ووافق عليه العقل، وربما كان منها ما هو مدسوس على ابن عربي، أو كتبها في حال غيبوبته، أو تعمد إبهام عبارتها كما يتعمد بعض الفقهاء إدخال الغموض على كتابتهم حتى لا يتلقف الطالب علم الفقه بطريقة هينة لينة[١]».

❁ ❁ ❁

من مساوئ الطرق الصوفية:

والحديث عن الطرق الصوفية يطول، وذكر مساوئها وحسناتها ليس هذا مكانه، لكن حسبي أن أورد كلام الأستاذ فيها، ولها موضع آخر للتقويم غير هذا:

«دعاني السيد سعد اللبان نجل الأستاذ اللبان[٢]، إلى داره في «جاردن ستي» وكان والده حاضراً، وكذلك الحبيبان السيد الزنكلوني والسيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي وغيرهما من الأصحاب، فجرّت محاورات المدعوين إلى ذكر الطرق، وكان الشيخ اللبان يقدس عملها فوافقه السيد التونسي، وأورد علينا ما تحققه من حسنات الطرق في الغرب الأقصى والأدنى والأوسط، فقلت للحاضرين وقد ضاق صدري من هذا الحديث: أنا لا أنكر أن الطريقة السنوسية في صحراء إفريقية نفعت وما أضرت؛ وذلك لأن أربابها يزرعون الأرض، ويعيشون بكدهم، ويقفون في وجوه المبشرين، ويذكرون الله، أما سائر الطرق أو معظمها فما كانت إلا أداة شر

(١) المذكرات: ٣/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

(٢) عميد كلية أصول الدين بالأزهر الشيخ عبد المجيد اللبان.

على الإسلام، يستخدمها المستعمر في أغراضه، واسمحوا لي بالنظر لمعرفتي بالشام والعراق وآسيا الصغرى ومصر أيضاً أن أحدثكم بما فعلته الطرق في تأخير العلم والمدنية، والعبث ببهاء الشرع الإسلامي، وأفضت في ذلك فسكت الحضور، وما بدا لأحد أن يرد عليَّ قولي، وكان إنكارهم في قلوبهم فقط على ما ظهر لي.

ولما خرجنا من الدعوة قال لي الأستاذ الزنكلوني ما معناه: أنت وزير وتكلمت كلام العلماء، وزميلك السيد حسن حسني عبد الوهاب ليس وزيراً وتكلم كلام الوزراء، أي أنه جَمْجَمَ[(١)] وما أبان، مراعاة للشيخ اللبان، ومن يقول بالكرامات من الرجال والنسوان[(٢)]».

وقال الأستاذ ـ أيضاً ـ مبيناً فساد أكثر الطرق الصوفية ومشايخها:

«كان المظنون أن يعمد مشايخ الطرق إلى إبطال ما لم يعد للزمن طاقة بتحمله من جهالة بادية ورعونة غير خافية. وذلك بعد أن طرأ على عقول العالم من التبدل ما أصبح معه رأي الجمهور في المتجرين بهذه الأوضاع أسوأ رأي.

استجاز بعضهم العبث بملكات مريديهم ما طاب لهم العبث، ولما جاء هذا العهد بعلومه وتفكيره حاولوا أن يحتفظوا بمكانتهم على جهل فيهم، وما أدركوا أن ما كان يطلق عليه اسم «عِلْم» في الماضي أصبح لا يساوي خردلة اليوم.

ورأى بعضهم أن يعلموا أبناءهم ليعدّوهم لضرب آخر من ضروب المعايش، أو ليكون لهم من سلاح العلم ما يبقون به على بيوتهم من الدثور، فلم تجنِ الأمة من المتعلمين ولا من الأميين إلا الصاب[(٣)] والحنظل.

---

(١) أي لم يصرح ولم يظهر.

(٢) المذكرات: ٢/ ٣٥٣.

ونحن نقول بالكرامات ونؤمن بها ـ كما هو منهج أهل السنة والجماعة ـ لكن بشرائطها الشرعية، وإنكارها جملة هو من البدع العقدية، ولم يقل به أحد معتبر من السلف والخلف، والله أعلم.

(٣) الصاب: هو شجر مُرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلفتها. «المعجم الوسيط»: ص و ب.

ذلك أن العلم لم يبدل من أرواحهم، وما سلموا من جراثيم منشئهم الموبوء، كما وقع لأحدهم فتلقى العلم في أرقى الجامعات الغربية، وسولت له نفسه أن يتطوع في خدمة أغراض الغريب، ومن السخف أن كان بعض أرباب المظاهر يعرفون ما فيه من خيانة، ثم يمدون إليه أيديهم يصافحونه ويتوددون إليه، ولما سقط كان في مواطنيه أيضاً من يقيم له الأعذار، ولا يستحي من مصانعته.

عرضت بأخرة على إحدى محاكم عاصمة من عواصمنا قضية اتهم فيها شيخ إحدى الطرق بالعبث بعفاف الأبكار اللائي يختلفن إلى زاويته، وكان أهلهن من مريديه وأشياعه، وثبت أنه كان يقول لهن: إنه يقصد بعمله الشائن تنويرهن، وأنهن سيعدن ببركته أبكاراً على نحو ما كن قبل أن يَلِغَ فيهن، هذا الدجّال الأمي نفذ إلى أرواح من انضموا إلى جملته، وبالطبع كان من جازت عليهم دعوته مثله أميين جهلاء.

ومن المفاسد التي تسجل على بعض هؤلاء المشايخ ما لا يصدر مثله عن أدنى الأدنياء، ولا يجوز ارتكابه إلا أرباب المواخير من السفهاء، وقد سمعنا على الدهر أن بعض الطرق ما كانت تتقيد بالآداب الدينية والمدنية، فيبيح الداخلون فيها نساءهم بينهم حتى ليمسين مشتركات بين الإخوان من غير نكير، وكانت مثل هذه المنكرات يفتضح أمرها في بعض الحكومات الإسلامية فتهب إلى معاقبة الرؤساء، وتفرق شمل من ينتهكون حرمة الشرائع[1].

سألت أحد مشايخ الطرق وكان يمت إلى الأدب بصلة: هل أَجْدَتْ عليه رحلته في الريف؟ وكان طاف بعض أرجائه ليجمع من أهل طريقته جُعْله السنوي فقال: ريالات ضئيلة العدد، وأكياساً من الحنطة خفيفة الوزن، فقلت له: وما السرّ في ذلك

---

(١) ذكر مثل هذا الشيخ الورثيلاني الجزائري في رحلته إلى الحج - وهي مطبوعة - ذكر أن عدداً من النساء والرجال في رحلة الحج - فكيف في بلادهم - يرتكبون من الأعمال ما يندى لها الجبين، فراجعه إن شئت.

يا ترى؟ قال: إن القوم قلَّ اعتقادهم فينا، ونحن قادمون على المستقبل المجهول. فقلت في نفسي: حقق الله ظنك.

نعم لم يبق من سلطان هذه الطرق على العوام غير أثر ضعيف بالقياس إلى ما كان لها قبل خمسين سنة، انهزمت ولله الحمد، ومع هذا ما زال بعض الدول يوقد جذوتها في رؤوس السذج، تمدهم بالمال وتحميهم من غضب السواد الأعظم، وتعطف على من يعمل لها بدافع من نفسه، ويكفيها مؤونة تضليل العقول كما كان شأنها في الشام، كما زينت لهذا المستهتر بالأبكار بأنه إمام يهتدى به، وأوهمت ذاك المتعلم أن من تمام معرفة الجميل خدمة مآرب تلك الدولة بما تريد لا بما تقتضيه مصلحة وطنه.

وعلى سبيل الفكاهة نسجل هنا أن أحد ظرفاء الأميين اخترع مؤخراً طريقة جديدة، فانضم إليه حتى بعض من يلاحظ أنهم على شيء من المعرفة والذكاء، وراحوا يزعمون أنه يشرح لهم الفتوحات المكية لابن عربي، وما أكثر ما يدعي هؤلاء المتصوفون فك المُعمَّى من كلام متصوفهم.

اشتهر منذ نحو خمس وأربعين سنة رجل فران كان يعتم بعمامة بيضاء شارة العلماء، فسألت عنه أحد مشايخي ـ وكانت له مشاركة عظيمة في التصوف ـ هل حقيق ما يقولون من أن هذا الفرّان يفهم الفتوحات المكية؟ فأجابني ضاحكاً: نعم هكذا قالوا، وهو أميّ أيضاً. والعجيب ألا يضطلع بسر الطرق إلا الأميون، ولا يفهم كتب القوم إلا الجهلة المشعبذون على نحو ما نرى في الطريقتين اللتين جاءت إحداهما وهي «القاديانية» من الشرق، وكانت اختراعاً إنكليزياً صرفاً، وجاءت الأخرى وهي «التيجانية» من الغرب وهي بضاعة إفرنسية محضة.

ونحن كلما ملنا إلى الاعتقاد بانقراض هذه الحلمات الطفيلية ينشأ لنا جيل آخر يحيي الدجل بطريقة له يبتدعها، فيستهوي قلوب ضعفاء المدارك؛ ولذا حق لنا أن نادي أن الشعوذة ما انقطعت من الدنيا ولن تنقطع، وكل رجائنا أن يبقى العلم على

جهاده في مكافحة الجهل، بغزوه في بؤرته، ويجتثه من أصله، ويدفنه إلى غير رجعة[١]».

❁ ❁ ❁

ضلالات بعض مدعي التصوف:

ومن ضلالات بعض مدعي التصوف ما حدث من رجل ممخرق اسمه طه أبو الورد في دمشق، حيث فعل ما تقشعر من هوله الأبدان، وإليك ما قاله الأستاذ كرد علي في شأنه:

«قام في غوطة دمشق على عهد الانتداب رجل عامي ادعى أنه صاحب طريقة، فكثر أتباعه وأضل العقول وخرج في معظم حركاته على الإسلام، وزاد على ذلك أنه تعدى على الأبكار وسلب أربعاً منهن عفافهن، فحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس عشرة سنة والتغريب مثلها وبعشرين ألف ليرة دية أعراض تلك الأوانس، فوقع هذا الحكم أحسن موقع من نفوس الناس[٢]. ولا شك أن في هذه الأحكام عبرة لمن يخرجون على قواعد الشرع والقانون، ويشعبذون لاكتساب المال واستعباد الخلق[٣]».

❁ ❁ ❁

فساد عقيدة بعض متبعي الطرق الصوفية إلى حد الكفر، والعياذ بالله:

في كثير من الطرق الصوفية بدع خفيفة وغليظة، وفي بعضها ـ وهو قليل ـ يصل الأمر بأصحابها إلى درجة الكفر كالبكتاشية الدجالين في تركيا، وكهذه الطريقة التي أخبر عنها الأستاذ كرد علي قائلاً:

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٣٣ ـ ٧٣٥.

(٢) ليس في هذا الحكم إلا تطبيق جزئي للشرع في التغريب هذا إن لم يكن محصناً، فإن كان محصناً فسبيله الرجم، وبمثل هذا التضييع للأحكام الشرعية يفسد الناس.

(٣) «المذكرات»: ٢/ ٥٩٦.

«منذ عهد بعيد جاء قريتنا الشيخ محمد الدندراوي الصعيدي ينشر طريقته «الرشيدية» وسارع بعض سِراع التصديق من الفلاحين إلى تلقيها عنه، وبعد سنين جاءهم ابنه أبو العباس يتولى من القرية ما كان أبوه يتولاه، وربما كان على شيء من العلم أكثر من أبيه، قيل إنه دخل الأزهر، فكثر مريدوه وكان على ما يظهر يوصيهم وكلهم أميون بعدم الاختلاط بغير جماعتهم، واخترع لهم عمامة جديدة يمتازون بها عن غيرهم، وهي عبارة عن طربوش أبيض تُلاث عليه عمامة بيضاء ذات عذبة طويلة، وأوصاهم ألاّ يحلقوا لحاهم.

ولم يعلمهم ولم يفقههم، وأكثرهم لا يحسنون تلاوة الفاتحة، وفتن مريدوه بكل حركة تصدر منه، وسحرهم بسكوته أكثر من كلامه، وكانوا لفرط اعتقادهم فيه يجوزون أخذ ماء وضوئه وغسله يشربون ويتبركون به ويرون أنه شفاء من الأمراض، وكانوا إذا أرادوا الاقتراب منه ركعوا وسجدوا وقبلوا الأرض ورجعوا إلى الوراء، ومن سعد بتقبيل يده حاز الأجر العظيم. وسمعتهم في ذكرهم وأنا في حديقة مجاورة يصرخون: يا أبا العباس اغفر لنا، ويستغيثون به كما يستغيث المؤمنون بالمولى تعالى.

وما راعنا إلا والجرائد المصرية ترمي صاحبنا بأنه نبي كذاب، ووصفت مقر دعوته في قرية من قرى قنا، فكان ما يأتيه جماعته هناك عين ما يأتونه هنا من مخالفة الشرع. وأصدر العلامة مفتي مصر فتوى في تكفير كل من يقول بما اشتهر عن أبي العباس وجماعته. وعلى الأثر وافى أبو العباس دمشق واجتمع إلى قاضيها ومفتيها فأقراه على طريقته وقالا: إنها لا تخرج عن سائر الطرق الصوفية ليس فيها ما يكفر به، والواقع إن دعوى النبوة بعيدة عن الشيخ».

❁ ❁ ❁

سكوت أكثر المشايخ عن ضلالات بعض الطرق:

وقال أيضاً مبيناً حال الطريقة المولوية، وعدم مجاهرة المشايخ بالإنكار على أصحابها:

«في مصر والشام بقايا من عادات الطرق هي مجموعة بدع ممقوتة تراكمت بفعل قرون الجهالة، وعدها الجاهلون من الدين، وكانت الأناضول مهد الطريقة المولوية، انتشرت قروناً في أرجائها على العهد العثماني، فلما أبطلها الكماليون مع ما أبطلوا من الطرق عدَّ العقلاء ذلك من حسناتهم. بيد أن هذه الطريقة ما زالت قائمة خارج الجمهورية التركية، وطريقتها عبارة عن رقص وتواجد وغناء وناي ونقارات إلى أمور ينكرها الشرع يأتونها في مجالسهم بل في مراقصهم.

ومن الظريف أني ما سألت فقيهاً عن حكم هذه البدع إلا أنكرها وطلب الهداية لمن يمارسونها، فإذا قلت له: فلماذا لا تجهر بإنكارها زاغ مني وولى، كأن إنقاذ أحكام الشرع مما لا يدخل في برنامج المشايخ، ودأب هؤلاء فقط أن ينافقوا من يخافون ومن لا يخافون.

مسكين شرع محمد بن عبد الله يعبث به علناً في أرقى بلاد المسلمين أمام من وكل إليهم بحسب الظاهر القيام على خدمته لا يتكلمون ولا ينصحون، والبدع تنخر العقول، وتنحر الأرواح، ولا تجد لها ولياً مرشداً»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) المذكرات: ٣/ ٨٧٢.

المبحث السادس:

حال نصارى العرب مع المسلمين

ذكر الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله تعالى ـ وقائع للنصارى مع المسلمين في الشام تفيض حقداً وتعصباً، خاصة بعد دخول الفرنسيين إلى الشام، ونسوا المعاملة الحسنة التي عاملهم بها المسلمون طوال قرون مضت، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ذكر أن المستخرب الفرنسي اعتمد على هؤلاء النصارى، وأمدهم، وجرّأهم على المسلمين، وتغاضى عن جرائمهم، ولا عجب، إذ دينهما واحد، فلا بد أن يستعينوا بهم ضد المسلمين، ولتحقيق مصالحهم أيضاً، وإليكم نصّ كلامه مقسماً على النقاط التالية:

كثرة عدد الموظفين منهم المتحكمين في رقاب المسلمين

الأصل أن يوظف النصارى في الوظائف غير الحساسة، لأن توظيفهم في الوظائف الحساسة يفضي بهم إلى الاطلاع على أحوال المسلمين التي لا ينبغي أن يطلع عليها غيرهم، وربما أفضى ذلك إلى تحكمهم في المسلمين وإذلالهم، وللأسف كانوا يعينون وزراء ومسؤولين كباراً، ويتساهل معهم في هذا الأمر المهم، وقد جرّ هذا التساهل علينا أموراً من البلاء في الماضي والحاضر، والذي وظفهم في هذه الوظائف الحساسة ومكنهم من رقاب العباد هو المستخرب الفرنسي البغيض، وإليكم بعض كلام الأستاذ كرد علي في هذا الشأن:

«كان المستخدمون من النصارى في الحكومة على العهد العثماني قليلاً عددهم في الشام، فلما خرجت من حكم العثمانيين أخذوا يتقلدون أعمال القضاة والإدارة والمعارف والأمن العام والأشغال وغير ذلك. وكان منهم وزراء العدل في بعض

السنين، ووزير العدل يعين قضاة الشرع! وقد كثر اليوم عددهم في الدواوين بالنسبة لنفوسهم، يدخلون منها الصالح وغير الصالح، وقد يغض الطرف عن السارق المرتشي منهم أكثر مما يغض عمن كان مثله من المسلمين، ويتسامح مع من تقل مؤهلاتهم في التعيين، على ما لا يجد مثله غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى.

ألفت الحكومة في الحرب الأخيرة مجلساً للميرة، فكان رؤساؤه ومرؤوسوه من النصارى، فزار أحد الظرفاء مكاتبه في دار الحكومة، فلما وقع نظره على المستخدمين قال: هذه بيعة للنصارى لا ينقصها إلا ناقوس.

وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا: إن تسعة وتسعين وثلاثة أرباع ممن ينتج الحنطة في سورية هم من أهل الإسلام، أفما كان من الإنصاف أن تنصبوا عضواً واحداً منهم في مجلس الميرة مع مواطنيهم النصارى، وذلك نزولاً على اعتبارات ما زلتم أنتم تراعونها؟

وقد جرت عادة كبار النصارى إذا وسد إليهم أمر من أمور الحكم ألا يصطنعوا غير أبناء مذهبهم، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الأعمال، ولا يعينون المسلم إلا كارهين».

والغالب أن دولتي الانتداب[1] في الشام لم تريا من مصلحتها إلا الاعتماد على غير المسلمين في الإدارة، فقد قيل لي إن إحصاء الموظفين في فلسطين هكذا: ٦٠ في المئة من المسيحيين (وهم لا يتجاوزون مئة وخمسين ألفاً) و٣٠ من المسلمين و١٠ من اليهود، وأما حكومتا الانتداب في سورية ولبنان فما اعتمدت إلا على المسيحيين في الترجمة، وأغرقت الدوائر بسوادهم في لبنان، وإلى اليوم تحاول إغراق دواوين الشام بهم.

وحدث مرة أن جاء ضابط افرنسي يستلم قلعة دمشق، فاستلم معها السجناء،

---

(١) أي فرنسا وبعدها إنجلترا لمدة قصيرة.

وعرضت عليه قوائم بأسماء المحبوسين بمسائل سرقات واختلاسات، فسأل عنهم، فأجيب: هؤلاء المفلسون وأكلة أموال الدولة. فقال: أُف ما أقل الأمانة في هذه الدولة، وعرَّض بالمسلمين، فقال له كاتب جريدة الأسماء: ولكن يا سيدي إن معظم الموقوفين غير مسلمين، فبهت الضابط وقال: هذا يؤيد ما كان يقال لنا في أوربا من أن أخلاق المسلمين في الشام أرقى من أخلاق غيرهم من الطوائف.

وبعد فإن انصراف المتعلمين من النصارى في سورية ولبنان وفلسطين إلى التوظف مبدأ فقرهم، وإن ارتاشوا بحسب ما يظهر الآن، وقد كانوا في متاجرهم وصناعاتهم أسعد حالاً، والموظف مهما كانت درجته لا يخرج عن كونه عبداً بأجر زهيد يفنى في غيره، وتضمحل إرادته ويموت فقيراً معدماً، إلا من نهب وسلب.

كان المسيحيون يتعلمون الفرنسية لتعاطي التجارة والصناعات الحرة، فلما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان كانت الفرنسية لهم أداة التوظف في مختلف الدوائر، على نحو ما أصبحت الإنكليزية في فلسطين، كتب إليَّ الأستاذ فارس الخوري من حيفا أول الاحتلال الإنكليزي يقول: «اللسان الرسمي في هذا الإقليم هو لسان الدولة المحتلة، ولذلك أصبح لا يليق بالوظائف إلا من كان عارفاً بهذا اللسان، فاقتحمها غلمان المدارس وتراجمة السياح، واحتلوا القسم الأعظم منها، وناهيك بخبرتهم وتجربتهم وأخلاقهم دليلاً على مجرى الإدارة والعقل الذي يرافق الأعمال». ومثل هذا يقال في بعض من تعلموا الفرنسية، واستخدمتهم حكومة الانتداب في لبنان وسورية.

يحاول النصارى في هذه الديار أن يكونوا، كما كان المسلمون فيها على العهد التركي، لا ارتباط لهم إلا بالدولة القائمة، وكان من الثقة التي وضعتها فيهم حكومتا الانتداب أن اغتنوا بعض الشيء فتوفروا على تعليم أولادهم، وبنوا القصور، وعمروا المزارع هذا ما كان من حالهم ومعايشهم، أما إذا وقع حدث عظيم فإنهم ينحازون أبداً إلى الفريق الذي فيه أهل دينهم، وإذا جاء دور المغانم تقدموا فأخذوا حصصهم،

وقد يطلبون زيادة على حقهم، يدعى المسلمون إلى الكريهة وهم يدعون إلى السعادة، وإنهم لمهرة فيما ينفعهم واتقاء ما يضرهم، ولا شك أنهم سبقوا المسلمين إلى التعلم والتمدن، ومنهم كثير من أهل الفضل والعقل الراجح، وقَلّ مع هذا أن رأينا من قام يناصر المسلمين في مطالبهم الوطنية اللهم إلا أفراداً يعدون على الأصابع ويتحركون في دائرة معينة لا يغامرون ألبتة، فإذا زال الخطر تقدموا أول المتقدمين يطالبون بحقوقهم المغصوبة، ولم نر في الثورتين الفلسطينية والسورية منهم سوى أفراد قلائل جداً اشتركوا فيها بالفعل، وتولى المسلمون كُبَر الثورتين وقتلوا بالمئات والألوف.

في اليوم الذي انهزمت فيه فرنسا أمام ألمانيا في النصف الأول من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ نسيت الطوائف البابوية وفي مقدمتهم الموارنة أفضال فرنسا عليها منذ أجيال، وراح بعض رجال الدين منهم يفاوضون إيطاليا لتكون القيمة عليهم، فدهش الفرنسيون لهذا التبدل الفجائي يأتيه من حَموهم وعَدّوهم حزبهم الصادق في الديار الشامية. أرادوا أن يبدلوا السيد الكاثوليكي بسيد كاثوليكي آخر.

عجب الفرنسيون لهذا وزاد عجبهم أن رأوا المسلمين على اختلاف طوائفهم يشاطرونهم مصابهم ويخففون من آلامهم، وشهدوا أناساً كانوا بالظاهر من المنحرفين عنهم، وربما كانوا من المضطهدين منهم، يجيئونهم يوم محنتهم ويواسونهم، ويأسفون لما حل بأمتهم.

وقد أدرك بعض المنتدبين أنهم كانوا مخطئين في حكمهم على المسلمين، وأنهم باعتمادهم في الأخبار على التراجمة أضلوا الصواب، وكانوا على غير هدى منذ ملؤوا الوظائف بغير الكفاة من غير المسلمين، ولا سيما في المعارف والجمارك والبريد والأمن العام، حتى لقد حاول بعض الأغمار منهم أن يستأثروا بالوظائف في دواوين كثيرة ليجعلوها كدواوين المالية في مصر وقفاً على الأقباط[١].

---

(١) «المذكرات»: ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٤.

وذكر الأستاذ حال وزير نصراني كان يتمالأ مع أبناء طائفته، فقال:

«كان أحد الوزراء يصرف جانباً من وقته في سماع مراجعات أهل دينه من القسيسين والمطارنة، وكان الظاهر من حركته أنه لا يهتم لغير مصالح أبناء طائفته، هكذا علمته مدارس الإفرنج التي تخرج بمعلميها، ولكم كان أهله يحسنون إليه وإلى بلده لو أدخلوه في الرهبنة كما ترهب أخواته الثلاث، وكان مخاطبه لا يتبين من وجهه إلا أنه راهب في ثوب مدني، خرف الدهر[1] فأجلسه على كرسي الوزارة، وهو لا يليق لأكثر من وكيل نيابة أو معاون لرئيس دير[2]».

❁ ❁ ❁

اعتماد المستخرب على أبناء دينه من العرب:

وهذا أمر معلوم من حال الدول الاستخرابية التي دست البلاد العربية، فكانوا يعتمدون على النصارى العرب في تحقيق مرادهم، وإليكم كلام الأستاذ كرد علي في هذا الشأن:

«قال لي الكولونيل كاترو وهو برتستانتي المذهب:

إن الكاثوليك كانوا يأملون بمجيء الفرنسيين إلى هذه الديار أن نطرد المسلمين من الوظائف ونستعيض عنهم بكاثوليك، وهذا ما لا تأتيه حكومة في الأرض. والغالب أن سياسة الكاثوليك نجحت بعدئذ، فلم يدخل المفوضية وتوابعها في سورية مستخدم إلا من الكاثوليك والموارنة، ثم من الروم الأرثوذكس والبرتستانت، واعتمد الإنكليز في فلسطين على النصارى أيضاً ومزجوهم بجماعة من الدروز، وكانوا في مصر أيام الاحتلال، لا يعتمدون على غير النصارى السوريين.

انتخب الأطباء بدمشق الدكتور يوسف عرقتنجي مدير صحة في سورية وهو

---

(١) لا يجوز سب الدهر.

(٢) المذكرات: ٤/ ١١٦٨.

كاثوليكي النحلة، فأرسل مرسوم نصبه إلى البعثة ليصادق عليه فوقف مدة، وعلمت بالأمر فذكرت للكولونيل كاترو أن أوراق الرجل متأخرة ولم يتم تعيينه، فقال لي: إنه مسيحي، والمسلمون لا يرضون عن هذا التعيين، فأجبته إن أطباء المسلمين هم الذين اختاروه لهذا المنصب، ونحن هنا لا ننظر إلا إلى الكفاءة، ونغمة الطائفية هذه مما يردد في لبنان، والرجاء ألا تنقل إلى هنا، فإنها مضرة بنا. فعند ذلك رضي أن يوقع تعيين مدير الصحة الجديد[١]».

❁ ❁ ❁

إهانة بعض النصارى للمسلمين:

اجتاز مرة بطريرك الموارنة ببعض قرى الاصطياف في شمالي لبنان، وكان بعض المصطافين من مسلمي طرابلس جالسين في المقهى، فلم يلبث بعض رعاع الموارنة أن انهالوا عليهم بالضرب والشتم قائلين: ما لكم لا تقومون أما رأيتم سيدنا وسيدكم؟ فسكت المسلمون على هذه الإهانة[٢]، ورجعوا من الغد إلى بلدهم وأخذوا يفكرون في تأسيس مصايف لهم في سِير من عمل الضَّنيَّة.

واتفق أن عاد من المهجر أحد أبناء تلك الناحية من المسلمين، وقد أثرى كثيراً، فأنشأ في سير فندقاً ودوراً للاصطياف وعبد الطرق وأنشأ الحدائق، وما جاءت السنة الآتية حتى استغنى الطرابلسيون عن أهدن وبشري وحصرون وحدث الجبة وغيرها من المصايف التي ألفوا الاختلاف إليها، وبارت تلك الدور والقصور بواراً أبدياً. وعبثاً حاول بطريركهم أن يعوض أصحاب المصايف عن بعض ما فقدوه من الأرباح، وعبثاً توسل بعض أعيان الموارنة في تلك الناحية أن يعود الطرابلسيون إلى اتخاذ قرى لبنان

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٣٤٥ .

(٢) وهذا الذي صنعه النصارى ينقض عهد الذمة الذي بيننا وبينهم، لكن هيهات وقد ضعف المسلمون في تلك الأزمنة ضعفاً بيناً .

الشمالي مصايف لهم، وكان عمل الطرابلسيين أحسن جواب لمن أعماهم تعصبهم الديني، فضربوا بمادياتهم لما حاولوا أن يضربوا المصطافين بمعنوياتهم، ونتج من هذا امتداد العمران في صقع لا يسمع فيه المسلمون إهانة ولا قذفاً، وكان عمل أولئك الأجلاف عبرة لمن يريدون أن يعيشوا في هذا القرن بعقلية أهل القرن الماضي[1].

وذكر شاباً من النصارى كان يكثر من التعرض للمسلمين ويغمزهم فقال:

«أدركته شاباً مكباً على النسخ والجمع في دار الكتب، وزهو الشباب وزهو المعرفة ماثلان فيه، أصابه العجب لتقدمه أبناء طائفته بمعرفة اللغة العربية، وكان تخرج بأعظم علماء النهضة، واشتهر منذ بدأ بنشر أبحاث ومقالات في بعض المجلات الأدبية حشاها بمغامز في الإسلام والعرب لا تقل بسفاهتها عن مطاعن لامنس اليسوعي. أما مزيته فكانت في أنه لم يقصد من الأدب التكسب به، وجعله حلية له وزينة، ثم واسطة للتشفي ممن فطر على بغضهم من المسلمين، كسب عطف المتعصبين من أهل نحلته، وفقد عطف السواد الأعظم من قراء العربية.

وحاول في عهد الانتداب الافرنسي أن يظهر التوبة مما اجترح، ويتقرب من رؤساء العلماء والأدباء في بلده ليجعل منهم سلماً للوصول إلى مظهر علمي كان يطمع فيه، فما أعاروه انتباهاً، وكانوا إذا نسي أحدهم أو تناسى ماضيه الأسود ذكره به إخوانه وذكروا له قلة إنصافه فيما خاض عبابه من الأبحاث العربية. وما زال وهو اليوم في عتبة التسعين على كثرة اجتهاده بعيداً عن النور الذي يسير بين أيدي العلماء، محروماً الذوق الأدبي؛ لأنه عاشر الكتب واصطحب الرهبان، وهؤلاء لا يدركون من أمور المجتمع والبيوت شيئاً يعتدُّ به. قام والقِحّة سلاحه بحملات غير رشيدة على الإسلام، وعبث بتاريخه، وآخرة المعتدي الفشل. وأي اعتداء أفظع من أن يحمل

(١) «المذكرات»: ٢/ ٥٢٧ .

كاتب على دين يعد أشياعه بمئات الملايين، وأي سلاطة أن يحاول بعد الهرم تلافي ما فات ولكن الصيف ضيعت اللبن»[١].

وضرب مثلين لرجلين من النصارى، كان أحدهما مؤدباً حافظاً للجميل، والآخر كفوراً للنعمة سفيهاً، فقال رحمه الله تعالى:

حدثني صديقي لبيب الرياشي من أدباء لبنان النصارى، وهو الذي وضع كتاباً في الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال: سألني أحد قضاتنا في جونية عما أكتب في النبي العربي، فقرأت له فصلاً من فصول كتابي، فاستمع إليه وهو واقف موقف الخشوع والتأدب. فسألته: لِمَ يقف على هذا الشكل؟ فقال: إن من عادتنا أن نقف إجلالاً لمن نرى أنهم كبار أفلا نقف لأعظم عظيم في العرب الذي هدى ثلاثمائة مليون من البشر لعبادة الخالق؟! ونحن وإن كنا نصارى فالواجب علينا تعظيمه لأنه رسول العرب[٢] ونحن منهم. فانظر إلى هذا الأدب وقسه بما صدر من مسيحي آخر يوم احتل الفرنسيون دمشق بعد وقعة ميسلون، قال لصاحبه المسلم، وهو أخوه في الماسونية وينتحل الكثلكة: يا فلان هل بقي لكم شيء تستطيلون به علينا، أصبحتم أنتم ودينكم ونبيكم وكعبتكم تحت أقدامنا. وكان هذا الرجل وأبوه وجده ممن عاشوا بنعمة المسلمين، وما رأوا منهم إلا كل رعاية. فكان هذا شعوره الذي أوحته إليه بيئته، يوم رأى أعلام الفرنسيس ترفرف على سورية، فأهان الإسلام وصاحبه هذه الإهانة. وكأن الجيش الفرنسي اتصل به يومئذ ما ينبعث من أفواه بعض المتعصبة، فنشر منشوراً علقه في الكنائس جاء فيه أن كل من يذكر الإسلام ورسوله بسوء يقتل بالرصاص حالاً، فسكتت ألسن المتعصبين، والحمد لله رب العالمين»[٣].

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٨٤٤.

(٢) هو رسول للناس كافة وليس للعرب ﷺ.

(٣) المذكرات: ١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

أكثر مؤرخي النصارى غير منصف

وهذا أمر معلوم من حالهم، والعجيب أنهم عرب أو مستشرقون يفهمون العربية ويجنحون بعد ذلك للظلم وعدم الإنصاف، ومنهم أمين الريحاني الذي أساء للمسلمين، وإليكم كلام الأستاذ كرد علي عنه حيث قال:

«حدَت شهوة الشهرة والإغراب صاحبي أمين الرَّيحاني اللبناني[1] على أن يظهر مرة في مظهر مؤرخ، وما كان عُرف بغير الكتابات الأدبية.

فاقتبس من كتابي «خطط الشام» السيئات التي راقته وجسمها، وألبسها ثوباً من خياله، ونشرها في كتاب سماه «النكبات» حمل فيه على بعض رجال الإسلام، وزيف ما قاله المنصفون فيهم، ولجأ إلى قاعدة «خالف تُعرف» ومما نصح به المسلمين أن يتركوا التناغي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه، وما أعرف إلى أين؟ ولعله يقصد أن يلتحقوا به ليمتلوا ملته، وكان جاهر كثيراً أنه خرج عليها، وإن كان حبها مما أُشربه قلبه، وهو معذور في ذلك؛ فإن من المعتقدات ما يُتوارث مع الدم على ما يظهر. وغريب هذا القول ممن يدعي الفلسفة ويلقب بفيلسوف الفُرَيكة ـ والفريكة مزرعته التي ولد فيها ـ ونعته بالفيلسوف سواء كان من صنعه أو صنع أحبابه جميل وعجيب.

والريحاني إذا حاول كتابة التاريخ الإسلامي ـ وهو فارغ الذهن منه ـ مثلي إذا توخيت أن أدون مناقب قديسه وشفيعه مارمارون، أو بطل لبنان يوسف كرم الذي غلا

---

(١) كتبت هذا قبل أن أفجع بفقده، وكنا منذ تعارفنا يحب أحدنا صاحبه محبة أكيدة، ثم طرأت بيننا اختلافات في الرأي، أهمها جرأته على الطعن بتاريخ العرب والهزء برجال الإسلام. وكان على ما يظهر صاحب أحوال، مأخوذاً بالخيال، وبعض ما كتبه لا يفهم، وآخر ما كتبه جملة مطولة في رثاء الدكتور عبد الرحمن شهبندر، أرسلها لي فلم أحلّ معمياتها، ودفعتها إلى الأستاذ فارس الخوري فتلاها، وهو أيضاً لم يفهم منها شيئاً، وأوصى الريحاني أن يدفن على طراز لا يشعر بدينه، فأبى مطارنة الموارنة إلا أن يحملوه إلى مرقده الأخير على حسب طقوسهم لم يُخِلّوا بشيءٍ منها، فلم يُفلت من تأثيرات رجال دينه في الحياة وفي الممات.

بعضهم بشجاعته غلواً مضحكاً، ليقولوا للناس: إن جبلهم الأشم أنبغ الأبطال كما أنبغ الفلاسفة، إن الريحاني ما تحلل على ما رأيت من تأثير البيئة، وإن قال بالفلسفة، ودعا إلى حرية الرأي، وغاية ما أرجو له ومنه ألا يخرج عن المنطق[1]».

وذكر مثالاً آخر على عدم إنصاف هؤلاء القوم وتعديهم على تاريخنا وديننا، وغمطهم حقنا، وعدم الاعتراف بحضارتنا التي سدنا العالم فيها قرابة ألف سنة، فقال رحمه الله تعالى:

«أختم هذا الفصل بقصة مضحكة وقعت لي مع رجل من المنتسبين للأدب ومن أعضاء المجمع العلمي العربي. ذلك أني تغيبت مدة في أوربا بعض السنين، ولما عدت رأيته قد قرَّظ كتاب مختصر تاريخ سورية للأب لامنس اليسوعي، في مجلة المجمع العلمي العربي، وبالغ في الثناء عليه، وأنا أعرف من هو لامنس وما يكتب، وما رأيه في الإسلام والعرب. فطلبت الكتاب فرأيته لم تشق أوراق صفحاته، فقلت للمقرظ الزميل: هل تعرف الفرنسية؟ قال: لا. قلت: كيف تقرّظ كتاباً كتب بالفرنسية في مجلة جليلة الشأن كمجلة المجمع العلمي، على حين لم تقرأ الكتاب، ولا تحسن هذه اللغة، ولا ترجم لك مترجم ما يحويه. فكان جوابه: أليس الأب لامنس مشهوراً بتأليفه وعلمه، فكتابه من الطراز الذي يصدر منه؟.

وقرأت كتاب لامنس فكانت تعروني هزات ألم عند تلاوته، لما رأى من غمطه حق العرب والمسلمين، والعبث بالتاريخ والحقائق، ولما أتممته كتبت فيه نقداً لأنشره في مجلة المجمع، وأحببت قبل أن أدفعه للطبع أن أقرأه على بعض زملائي، فلم يستحسنه العضوان المسيحيان، وقالا: إنه ينم عن تعصب، أما السيد لامنس فله أن يقول فينا ما شاء، ولا ينسب إلى التعصب، ومن السماحة أن نسكت عما يهيننا به من أقواله، وارتأى هذان الزميلان أن أطوي النقد ولا أنشره فأبيت. وخرجت من المجمع فاتبعني أحدهما برجل من أصحابي المستخدمين كانوا في دار الكتب يعرض

---

(١) «المذكرات»: ١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

عليَّ ألاَّ أنشر النقد على كتاب لامنس. فقلت له: لا بد من نشره مهما كلف الحال، فقال: إن المفوض السامي هو الذي أمر بتأليف هذه المحاضرات التي جعلها لامنس بعد ذلك كتاباً.

فقلت له: إن المفوض السامي أمر أن يحاضر لامنس بتاريخ سورية، ولم يأمره أن يطعن بالعرب والمسلمين، ولا أن يحرف تاريخنا ويسقط رجالنا.

ثم التفت إليه وقلت له: هل يستطيع المفوض السامي أن يقتلني كما كان يفعل جمال باشا مع من يغضب عليهم من أعداء الدولة؟

قال: لا.

قلت: غاية ما في الأمر أن يكتب إلى مندوبه في دمشق يقول له: أوعز إلى «كرد علي» أن يستقيل من رياسة المجمع العلمي، فأستقيل ضاحكاً وأقبع في داري، ولي فيها ما يشغلني أكثر من عمل المجمع وألذ وأطرب.

ونشرت نقدي، وردّ الأب لامنس عليه رداً ضعيفاً، وأراد أن يدخل المهاترات في مناقشته فما مكنته. وكان من نتائج هذه المناقشة أن صدر الأمر برفع الكتاب من المدارس، وكانت النية إدخاله في المدارس الإسلامية والنصرانية، وهو كتاب إذا قرأه التلميذ المسلم ينشأ على بغض أبناء دينه ويحتقرهم ويمتهن الإسلام، وإذا قرأه الطالب المسيحي يكره المسلمين والإسلام والعرب والعربية[1]».

❁ ❁ ❁

علاقة نصارى العرب بالمسلمين

كان نصارى العرب يعيشون بين المسلمين عيشة حسنة، وكان المسلمون يكرمونهم ويعطونهم حقوقهم بل أكثر منها ـ وهذا في أغلب المدة التي عاشوا فيها معنا ـ لكن للأسف أكثر النصارى لم يبادلوا هذه السماحة بسماحة وود واحترام، وإليكم كلام الأستاذ في هذه المسألة:

---

(١) «المذكرات»: ١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

«رأيت علائق النصارى مع إخوانهم المسلمين منذ نحو خمسين سنة أقرب إلى الإخاء والصفاء من اليوم، فإن توهم بعضهم أنه صار لهم عزة وقوة حرك فيهم نزغات غريبة ما كانت تظهر من قبل، كتب غوستاف لبون الفيلسوف إلى أحد رجال الإسلام يعتذر بأن التربية التي يلقنها الكاثوليك خاصة لا يتأنى منها إلا أن تخرج أناساً يكرهون المسلمين. وإذا كان بعض أهل الذمة يذكرون شيئاً من العبث بحقوقهم على العهد العثماني، فليس هذا من قانون الإسلام ولا من صنع المسلمين أبناء هذه الديار، بل هو ممن كانوا يحكمون ولا رادَّ لحكمهم أهل السياسة يومئذ، فهم الذين كانوا يسوقون الرعاع لامتهان بعض الطوائف أحياناً، ويزينون لبعض أذنابهم أن يعملوا على التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، وعهدي بالنصارى والمسلمين في القرى يتحابون ويتساندون كأنهم أبناء بيت واحد، أكثر من هذا العهد الذي قد ينظر المواطن فيه إلى مواطنه شزراً، ويحتقره في باطنه على ما يضر بمصلحة الطائفتين.

لما أعوز القوت في لبنان أيام الحرب الكبرى (١٩١٤ ـ ١٩١٩) منح جمال باشا قائد الجيش الرابع مقادير وافرة من الحنطة حملت إلى الجبل من الأرجاء المجاورة، فما كان من بعض المطارنة والأعيان هناك إلا أن اتفقوا على أخذ نصف القمح واتجروا به لحسابهم، وخلط النصف الآخر بالتراب، فأكل الفقراء منه وهلكوا. وكان ذلك بمرأى من بطريرك الموارنة يومئذ. وأشاعوا أن القائد تعمد إجاعة الجبل ليهلك أهله لأن أكثرهم نصارى، ولو نفذ البطريرك تعاليم دينه لما انتظر إعانة من أحد، ولباع بعض أملاك الكرسي البطريركي، وصرفها في إطعام أبناء الطائفة، وأملاكه تستغرق ربع لبنان، وبذلك كان يتيسر له أن ينجد قومه زمن العسرة، ولو كانت الرحمة وجدت طريقاً إلى قلبه لحذا على الأقل حذو الجامعة الأميركية في بيروت؛ فإن رئيسها السيد دودج لما نفد ما عنده من المال زمن الحرب، وتعذر عليه جلب شيء من أميركا لإطعام الفقراء، رهن أملاك الجامعة واستلف مالاً أطعم به البائسين والمعوزين حتى عقدت الهدنة، وكأن الرئيس الأميركي فهم من النصرانية ما لم يفهمه منها البطريرك العربي!.

وكان بعض الملتزمين للجيش من أهل لبنان يجوزون مزج الدقيق بالرمال والرماد فانكشف أمرهم، وحكمت عليهم الدواوين العرفية بأحكام مختلفة، وعملهم هذا لا يرضى به الإسلام ولا تقول به النصرانية. وبعض النصارى هنا على الأغلب تجار وللتجارة خلقوا، فإذا صار لهم شيء من الأمر عملوا فيه بأخلاق التجار، لا يستهدفون غير الربح ويعرفون كيف تصل أيديهم إليه.

كانت الطوائف الإسلامية كالشيعة والإسماعيلية والدروز إخوان الكثرة الكاثرة من أهل السنة في الشام، وكانوا يرضون بكل ما يعطونه من حقوق، فلما جاء الغريب انتفضوا كما انتفض العصفور بلله القطر، وقاموا يطالبون بحقهم المزعوم ويذكرون حوادث إفرادية وقعت في الدهر الغابر، ويقع مثلها بين أبناء الأب الواحد، ولا يفتؤون يرددون نغمة الأحقاد القديمة، وود أصغرهم عدداً لو أسس دولة برأسها، وأن يجعل كياناً خاصاً لبضعة ألوف. وأعظم ما يعبث بعقولهم الجهل وقلة الحساب للمستقبل، ويعرف العقلاء منهم حق المعرفة أن نار الأكثرية أحسن في العقبى من جنة غيرهم.

من غريب أمر الطوائف في المنشأ أن الكاثوليكي يبغض الأرثوذكسي أكثر مما يبغض المسلم، ويعتقد كفره وهلاكه، فإذا كان للباباوي مصلحة ينحاز إلى الأرثوذكسي ويترك المسلم. ورأيت المسيحيين لا يتبايعون على الأغلب إلا مع أبناء دينهم، ولا يستخدمون إلا أبناء طوائفهم، وهذه الخلة المضرة راسخة في الأرمن أكثر من غيرهم، ولو عاملهم المسلمون هذه المعاملة المضحكة، وقاطعوهم مدة لماتوا جوعاً، واضطروا بعد حين إلى الهجرة، ولكن سماحة الإسلام أكثر مما يصور لهم بعض قسيسيهم الذين سمعت أن من مواعظهم لأبناء طوائفهم أن المسلم إذا كان مسكاً يجب على المسيحي ألا يضعه في عُبه. وأرجو أن يكون هذا الكلام غير صحيح.

وعهدي بالمسلم في مدينة دمشق يوصي مسيحياً بأولاده بعده، وكذلك المسيحي

مع مواطنه المسلم. وأعرف جماعة من النصارى، وجل أصدقائهم من المسلمين، وهم كأبناء أسرة واحدة، وأعرف مسلمين لا يألفون إلا المسيحيين ولا يتعاملون إلا معهم. وما ينتقد على المسلمين وعلى المسيحيين فهو أثر عصور الظلمات، خلقته الحكومات ونمته وغذته، ثم جاءت مدارس المبشرين فأذكت نار التباغض. وكان الروم الأرثوذكس يميلون إلى سياسة إسلامية، وقال لي أحد مندوبي فرنسا في دمشق: إن الروم الأرثوذكس لا يسيرون إلا معكم فهم منكم، فقلت له: لنا الشرف بذلك[١]»[٢].

وقال أيضاً عن نصارى لبنان:

«أحسن تعريف مختصر للبنان أن جباله أكثر من سهوله، وأنه من أجمل سواحل الشام اشتغلت فيه يد الخالق وأيدي الخلائق قروناً[٣]، وكان في الإسلام عمالة من عمالات دمشق مقطوراً معها يسايرها في السراء والضراء بدون أخذ وردّ. ولما أراد البرتستانت أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان، فجاؤوا وأنشؤوا مدارس في الجبال، ثم أقاموا الجامعة الأميركية في بيروت، وغار اليسوعيون من اللاتين على الكثلكة فحذوا حذو الأميركان. ولبنان عش الموارنة، والموارنة كاثوليك مرتبطون بالكرسي البابوي في رومية.

ونفخ الواغلون على البلاد في السكان روح التعصب الديني، فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامة. ولما تخرج الطلاب بالجامعة الأميركية لم يطب عيشهم في بلادهم فتفرقوا في الأرض، وكان الاحتلال الإنكليزي لمصر، والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرجين باللغة الإنكليزية أحسن أنصار

---

(١) بل هم لهم الشرف، وهذا من هناته رحمه الله تعالى.

(٢) «المذكرات»: ١/ ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) هذا التعبير لا يجوز، فالله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق الأرض في يومين جل جلاله.

فأخلصوا كلهم له، ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد مادية لا تقدر، وخسروا كثيراً في المعنويات.

وقويت الهجرة إلى الأميركتين، فكان اللبنانيون في الطليعة من أكثر من هاجروا، غادروا البلاد إلى غير رجعة، فبدأت القرى تخرب والعيش في تلك الجبال يضيق. ولما جاءت فرنسا إلى هذه الديار عطفت على لبنان من النصارى عطفاً غريباً، فاسترجع الجبل بعد ذلك بعض قوته، واشتدت الدعايات للاصطياف، فأصبح جبل لبنان مثابة المصطافين من الشاميين والعراقيين والمصريين وغيرهم من الأمم، فأفاد من ذلك، وما هو إلا جيل حتى غدا كل لبناني يفكر في الدعاية للاصطياف كما يفكر في مصلحة أولاده وبيته.

وظل التعصب الذميم في بعض العناصر اللبنانية على أشده، حتى إذا أراد اللبنانيون ـ بل أرادت فرنسا ـ أن يجعلوا لهم كياناً خاصاً، وألفوا الجمهورية كانت سوريا خلالها تمد يدها إلى اللبنانيين وهم ينأون بجانبهم.

ولا يجب أن ننسى مع هذا أن الأكثرية الساحقة في لبنان للمسلمين، ولكن النصارى سبقوا وتعلموا قبلهم بواسطة الأوربيين والأميركيين، وأخذوا يعملون هذه الأعمال[1]».

❋ ❋ ❋

(١) المذكرات: ١/ ٧٣ ـ ٧٤.

المبحث السابع:

الجانـب الاجتماعـي

كانت أحوال أكثر الناس قد تردت في الشام بسبب اجتماع الجهل والفقر عليهم، وكانت عناية الدولة العثمانية ببلاد الشام في القرن الذي سبق زمان سقوطها ـ وربما أكثر ـ قد تردت إلى الغاية، وانتشرت المظالم والرشاوى، وعرف الناس التزلف والتملق، وفسدت ذمم كثير من الناس، وهذا كله هو الذي مهد الطريق للاستخراب العالمي ليطرق أبواب الشام أوائل القرن الماضي، حيث وجدها كالخشب الذي عاث فيه السوس من باطنه وظاهره متماسك.

وقد أشار الأستاذ كرد علي إلى بعض المفاسد في الخلق والسلوك يندى لها الجبين، لكنها كانت نتيجة محتومة لفساد أكثر الذمم، وانتشار المظالم، والفقر، والجهل؛ الذي كان مسيطراً على أكثر عقول الناس وأفكارهم، وللأمية الفاشية آنذاك مدخل مهم في كل ما مضى.

هذا وقد ذكر الأستاذ أمراً مهماً ألا وهو أن أكثر الناس آنذاك كان يعيش بلا غاية محددة في الحياة، ولا هدف معتبر يعمل لأجله، إنما همهم تحصيل أسباب الحياة، ثم تمتيع النفس بما تقدر على الوصول إليه من ملاذ الحياة وأطايبها، أما سوى ذاك من الهموم والأهداف العلية فلربما طلبها أفراد معدودون، لكن المجتمع كان عنها بمعزل.

وإليكم بعض ما ذكره في هذا الباب المهم مما يناسب قارئ هذا الزمان، ويجد فيه العظة المناسبة:

تزلف وجهاء الناس إلى الولاة:

أكثر الأعيان والوجهاء كانوا يتزلفون إلى الولاة حال توليهم المناصب، ويعرضون عنهم حال انفضاض المناصب عنهم، وعن هذا الخلق الدنيء يحدثنا الأستاذ كرد علي قائلاً:

سأل شيخنا العلامة الجزائري أحد كبار تجار بيروت عن اسم والي بلده، فقال: إنه لا يعرفه، فقال له: عجيب هو عندكم منذ نحو سنتين، وأنت لا تعرف اسمه فضلاً عن شخصه، فقال: أوقاتي لا تتسع للبحث عنه، وليس لي علاقة بالحكومة. فقال الشيخ: في بيروت التفريط وفي دمشق الإفراط؛ فإن أعيان هذه المدينة لا يهنأ لهم بال إلا بالاحتكاك بواليهم وحاشيته، صباح مساء، حتى ليسأم لقاءهم، ومنهم من يصدهم عن بابه فيتحيلون للدخول عليه، بكل ما لديهم من وسائط، وأنتم معشر البيروتيين لا تتقربون من واليكم بل لا تذكرون اسمه.

وشيخنا هذا كان مرة في زيارة والي سورية ناظم باشا، وقد ورد عليه الأعيان يحيونه، فمنهم من كان يقبل يده، ومنهم من يلثم ذيله وركبته، وكلهم متماوتون في حضرته، متهالكون على الغلو في تمجيده، فانقبض صدر الشيخ من هذا الصَّغار، فلما انصرفوا التفت إلى الوالي وقال له: أيروقك أن تحكم أناساً هذه نفوسهم؟ فسكت الوالي، فعاد الشيخ وقال: أما أنا فلا أود بحال من الأحوال أن يكون من أحكمهم من هذا الطراز. أي أن أستاذنا لا مأرب له أن يكون والياً على عبيد صغار النفوس.

هذه الطبقة من الأعيان التي تفنى في صاحب الشأن ما دام صاحب حول وطول، وتعرض عنه كل الإعراض في اليوم الذي ينزع منه الحكم، وينقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه.

قصّ عليّ أحد الشيوخ أن أحد رجال الدولة نُصِّب والياً على سورية، فدعاه أحد الأعيان إلى النزول في داره ريثما تهيأ له دار خاصة. واغتنم ذاك الوجيه فرصة نزول

الوالي في بيته، وكانت مشاكله كثيرة، فأخذ يحل ما يمكن حله منها بواسطة نزيله العظيم، ولما اعتزل الوالي بعد مدة منصبه، دفع إليه ذاك المضيف الكريم قائمة ضمنها ما أنفقه على الوالي خلال نزوله ضيفاً عليه، فاعتذر الوالي بأنه نسي أن يسدد هذا المبلغ في حينه، ووعد أن يرسله إلى صاحبه من بيروت، وبعد أيام وردت على ذاك الوجيه ميضأة من الرخام تستعمل للتغوط، وكتب الوالي السابق: هذه مقابل ما أنفقه المضيف على ضيفه. وعمل ذاك الوجيه ـ إن صحَّ ـ من أحط ما يدوّن.

وكثيراً ما كان أستاذي الجزائري يقول: إن هؤلاء الأعيان لا يعرفون الكرم والشح غالب عليهم، وإذا اضطروا يوماً إلى أن يأدبوا مأدبة لكبير يرجون خيراً لهم من ورائها، فإن منهم من يبقي عياله في مسغبة وتقتير شهراً كاملاً حتى يعوض ما أنفقه[1]».

❁ ❁ ❁

الوجهاء وشرط صحبتهم:

سألني السيد سعد الله الجابري، قبل أن يتولى للكتلة الوطنية وزارتي الداخلية والخارجية بأعوام: لماذا أصحب عبد الرحمن باشا اليوسف، والمعروف من نزعتي الابتعاد عن الأعيان؟ فقلت له: إن صداقتي له متصلة بصداقة أبيه وجده لأبي، وهو لا يشبه أكثر الأعيان الذين جمعوا ثرواتهم بالطرق المعهودة، ونعمته إنما انتهت إليه بالإرث، وعهدته أقرب إلى الخير من بعض أمثاله، ولم يعرف عنه أنه استحل الاعتداء على حقوق الفلاحين، ولا عمد إلى التزوير في استصفاء مال أحد وإيقاع ضرر به، وكان يفضل على الفقراء ويبرهم، وقد يهب المساكين وأبناء السبيل من الصدقات كل سنة ما لو أحصي لكان شيئاً عظيماً.

ثم إني أعتقد أن صحبتي لهذا النبيل قد تسوقه إلى الخير وتنفعه ولا تضره.

---

(١) المذكرات: ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

وما خلا عبد الرحمن باشا من أناس كانوا يظهرون أمامه بمظهر الغيرة على مصلحته، فصارحوه بأنهم يستغربون رضاه عن تصدري في مجلسه، ولاموه على استماعه لحديثي، وعلى العمل أحياناً بآرائي. فأجابهم إنه رآني أعفُّ عن ماله، ولا أسِفُّ إلى شيء مما يَسِفُّ إليه بعض حواشيه، وأدعياء صحبته، وأني ما طلبت شيئاً منه، وأنه لو كان يعلم أني يهون عليَّ أخذ هداياه لأعطاني كثيراً، وأنه يحق لي أن أتصدر مجلسه لأني من أعلم من يختلف إليه، وأنه يرجو أن أكون لأولاده في مقام الناصح المرشد، ونصيحة واحدة مني لهم لا يعدلها شيء في نظره. قال: ولكل هذه الاعتبارات أحترمه وأجله.

وقلت لابن الجابري: وأنا هل أعطيت عهداً على نفسي ألا أصحب حياتي غير الصعاليك؟ وثق أن اختلاطي بطبقة الأعيان يعدل بعض التعديل في مشاربهم، على أن من صحبتهم من هذه الطبقة كانوا إلى الخير غالباً. وكان أستاذي الجزائري كثيراً ما يوصيني بأولاد الأعيان فيقول: إذا أردت دفع البلاد إلى الترقي، فبادر بإدخال النور على أبناء الأعيان، فعندهم المال والجاه.

هكذا كان يرى شيخنا، وهو رأي سديد فيما أرى، ولا يتأتى تحقيقه إلا بالاختلاط بأولئك العيون، والتأليف بين قلوبهم والابتعاد عما ينفرها.

وكنت ـ شهد الله ـ كثيراً ما تحاسبني عزة نفسي على عِشرة الكبراء في مصر والشام، وأراني لا أستغني عنهم ولا هم ممن يزهد في صداقتي، على حين لا أستطيع مجاراتهم في الظهور بالمظهر الذي تتوق إليه نفسي، ولا أحب أن تكون لهم منّة عليّ بحال.

نعم سبق لي أن حاربت أشخاصاً من الأعيان، كانوا آفات على الوطن يستثمرون الفقير والضعيف، ويستخدمون نفوذهم في مضرة الراعي والرعية، وما كان الأعيان كلهم على هذه الشاكلة، وكان بعضهم على حالة حسنة، جمعوا ثرواتهم من التجارة والزراعة، أو انتقلت إليهم من أجدادهم، أو من طريق الإقطاعات، فعمروها

وأحسنوا الانتفاع بها، وهؤلاء ليس لك عليهم سلطان، ولا يستطيع أحد مؤاخذتهم، ومثل أولئك الأشراف يظلمون إذا عوملوا معاملة أولئك الظلمة الأجلاف.

في الأمثال: إن الرّقين تغطي أفن الأفين، أي أن الدراهم تغطي ضعف ضعيف الرأي. ومن صدق عليهم المثل من لصوص الأعيان، فأنا لا أصحبهم إذ لا خير منهم يرتجى، وما تبتغي من فئة مقيمة أبداً على حوك الدسائس، والاعتداء على من يهون عليها الاعتداء عليه. ومن هذه الفئة طائفة كنت أرى من المستحيل زحزحتهم عن أخلاقهم، ولما وضح لي سوء حالهم بعد الاختبار قاطعتهم، وكانوا يدهشون من ابتعادي عنهم، ولا يعرفون له سبباً، ويعدونه من الشذوذ الذي ألفوا أن يشهدوه مني بزعمهم، وأنا لم أرَ من واجبي بعد أن بلوتهم أن أنفعهم بفكر، ولا أن أكون لهم سياجاً يختفون وراءه، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه[1].

❁ ❁ ❁

أنانية بعض التجار:

هناك من التجار المسلمين من هو أناني، استبدت به الأثرة، وأعرض عن حاجة الناس، واحتكر الأقوات أثناء الحرب العالمية الأولى، وجاع الناس وخزائنه ملأى بالطعام، فعاقبه الله تعالى، وإليك حديثه على لسان الأستاذ كرد علي:

«كانت في بيروت خلال هذه الحرب أسرة مسلمة من قدماء التجار اتفق أن كان في مستودعاتها بضائع عظيمة ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً، وأضافت إلى مستودعاتها ما تسوقته من مدن الشام من البضائع. ثم بدا لها أن توظف الأموال التي جنتها في احتكار القوت؛ لأن الربح منه مضمون ووافر، فاحتكرت كل ما يخطر بالبال من أصنافه حتى الترمس، نُقل الفقير وغذاؤه، وهو من أدنى المأكولات.

ومن جملة ما تذرعت به لاكتساب المال أن ملأت مركباً من الأحجار وضمنته

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٣.

عند إحدى شركات الضمان على أن فيه بضائع، وأوعزت إلى النوتي[١] أن يغرقه في ظهر البحر فأغرقه، وعادت على الشركة تطلب منها ثمن المركب المغرق، فأرسلت الشركة غواصين اكتشفوا الحيلة التي دبرها المطالبون بضمان السفينة.

وما إن عقدت الهدنة حتى هبطت أسعار البضائع التي جمعها أولئك المحتكرون هبوطاً ربما فاق ذاك الصعود، وأفلست الأسرة عن مليوني جنيه عثماني ذهباً. وبلغت بها الحاجة أن أصبح أفرادها لا يصلون إلى القوت الضروري إلا بالاستخدام في أعمال حقيرة، واستد الدائنون من هذه الأسرة أجهزة نسائها وحليهن، ومنهم من مات قهراً لم تبك عليه عين؛ لأنه طالما أبكى العيون بإجاعة القوم بل بإهلاكهم[٢]».

❁ ❁ ❁

احوال شباب المسلمين:

تحدث الأستاذ كرد علي عن أحوال شباب المسلمين حديثاً صعباً على النفوس لكنه صحيح، وأرى أنه ما زال منطبقاً على كثير منهم إلى الآن، وإن كانوا أفضل في مجموعهم، وإليك حديثه رحمه الله:

«إن اختلاط أمة بأخرى يفيدها كثيراً ويوقف كلاً منهما على ما عند جارتها من أسباب ارتقاء فتتأسى بها، وتحاول الجري على مثالها، ولكن اختلاط الشرقيين والمصريين منهم خاصة بالغربيين لم يفدهم إلا السرف والولوع بالزخرف والبهرج، وهناك جيوش من مفاسدهم وردت على ديارنا فصادفت فيها كرم المثوى، وتلقاها أهل الخلاعة بصدور رحبة، ونشروها مغتبطين بها بين جيلهم وقبيلهم.

ولو كنا بمكان من حسن التربية لم نضع الفرصة باحتكاكنا بالأجانب، وكنا نأخذ عنهم الصبر والثبات والجد، نأخذ عنهم عنايتهم بالأمور المادية والاقتصادية،

---

(١) أي: البحار.

(٢) المذكرات: ٣/ ٨٢٨.

ونتدارس وإياهم دروساً عمرانية؛ ليكون بعدها كل فرد منا مستقلاً بنفسه متكلاً على جده وجدارته لا على أجداده وأملاكه. هذا ما كان ينبغي لنا أخذه عنهم ويمكن اليوم أن نتعلمه منهم، ونطرح لهم ما وراء ذلك من أخلاقهم فإنها لا توافقنا وخصوصاً أخلاق غالب الجالية فليسوا في بلادهم من الطبقة العالية أخلاقاً وآداباً، ولو كان كلهم كذلك ما فارقوها، وأتوا يطلبون المال عندنا بكل وسيلة.

تعال معنا ننظر أين يصرف بعض الشبان لياليهم: يصرفونها في محال القَصْف[1] والعزف فيما ينهك الصحة ويضر العقل، فيما يضر بالنفس والمال والشرف، فيما يغضب الديان والإنسان.

يقول من يشاهد معاهد العاصمة ومجالس أنسها غاصة بالشبان وأهل الخلاعة: ما أسهل ضياع الوقت والمال على هؤلاء الناس؛ فكأنهم ما خلقوا ليعرفوا له قيمة، أو كأن أوقاتهم ليست عزيزة لديهم، وأموالهم مبذولة من أيديهم يتلقفها من بعث لنا الإفرنج بهم نواباً عنهم في استنزاف خزائن بلادنا.

وحقاً إن فريقاً من الشبان لا يألفون المكث في أماكن اللهو والطرب، ولكنهم لا يقضون أوقاتهم إلا في السفاسف والهراء والبذاء، وهكذا يمضي الليل والنهار بل الأسبوع بل الشهر بل العام بل العمر وشبابنا لا نستفيد منهم إلا انصرافهم إلى ما يبعث اللذة إلى حواسهم والطرب في نفوسهم؛ كأن الشرقي ما خلق إلا للخفة والطيش وتضييع الوقت، والغربي ما خلق إلا للثبات والانكماش والاقتصاد في الوقت والمال.

ولعمري لو جئنا نحاسب السواد الأعظم من شبابنا كيف يأتيهم دخلهم وكيف يخرجونه، هل ترى فيهم من يقدر أن يحسب ميزانية أسبوعه أو شهره على الوجه المناسب في عرف الاقتصاد.

---

(١) القصف هو: اللهو.

شبابنا ينقصهم كل شيء إن أردنا إيراد الحقيقة: تنقصهم الأخلاق الفاضلة من مثل المروءة والوفاء، ولين الجانب، والصدق، والثبات، ومضاء العزيمة، ومعرفة قيمة الوقت والمال والصحة، والنظر في العواقب، وأن لا يرضوا بحالتهم الحاضرة، ويدرسوا ما عند الشعوب الأخرى المتمدنة من الصفات التي تميزها عنهم، يعوزهم أن يعلموا ويعملوا، وأن يكون كل فرد أمة بذاته، ويطالب نفسه بنفسه، وهناك يحسن حال المجموع.

لو استعاض شبابنا عن مطالعة الروايات الغرامية والقصص والمجون بدراسة الكتب العلمية والاجتماعية ـ ولو استصعبوها بداءة بدء ـ إذاً لرأيتهم ملمين بكثير من حقائق العلم ونواميس الارتقاء.

لا ننكر أن منهم من تنبه فيه هذا الشعور، ولكنهم أفراد قلائل، حتى ليصح أن يقال: إننا لم نزل في دَوْر الحضانة فمتى نبلغ أشدنا؟ وفي كم قرن نبلغ مبلغ الأغيار؟ والوقت عزيز ومنادي الرحيل يستحثنا على العجل.

نحن لا نطلب الكمال، ولا أن يكون كل شبابنا في الدرجة التي وصفناها، وإنما نعني تكثير سواد المتعلمين المتهذبين، وتعلم المبادئ التي يعرفها شبان أقل أمة مرتقية، وهناك تنال مصر استقلالها رغم أنف كل مكابر.

هذا ما كتبت في مصر سنة ١٩٠١ فهل تبدلت أخلاق معظم الشباب في هذا القطر بعد هذه الحقبة الطويلة؟ الجواب أنها زادت انحطاطاً مع الأسف، ويمكن أن يقال: إن الأقطار العربية أيضاً بقدر ما ترقى في العلوم والمعارف تنحط في آدابها وأخلاقها. ظواهر لا تبعث على غير القلق لمستقبل الأمة، فعلى المسؤولين أن يجددوا همة في سد هذا النقص الكبير[١]».

❁ ❁ ❁

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧١٤ ـ ٧١٥.

الفساد الاجتماعي أيام الحرب العالمية:

زادت الكارثة العالمية في الفساد، وضعف معدل الأمانة، وأصبحت السرقة والتزوير أموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو إنكاراً صورياً، كما كانت أيام السلم. وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات، وعلى كثرة ما ربحوا ما شبعوا ولا ارتووا، وكان المأثور عن جمهرتهم أنهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى. ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صغارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة، وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد.

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة، وقد أساؤوا استعمال نفوذهم باتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به، حللوا لأنفسهم ما حظروا على الناس، وذلك تحت حماية رجال الأمن. وكان هؤلاء يشددون الضغط على الفقراء، ويا ويل من ينقل رطل خبز أو مدَّ قمح من قرية إلى أخرى، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهربين رسميين وأكثر ما يهربون المأكولات يجيعون بلداً ليطعموا آخر، ولا تهمهم من ذلك غير ما يدخل صناديقهم، ولا يقيمون للمروءة وزناً في هذا الزمان العصيب، فكيف ينكر على صغار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والأمة؟!

وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه أما هو فعفَّ عن ذلك، مع أنه ربح عشرات الألوف من الليرات من التهريب، واستعان بقوة وظيفته على مقاسمة أناس من المهربين أرباحهم، كان له منها القسم الأعظم. وكان بعض رجال الأمن يحسنون القيام بأعمالهم، ولا يرتشون أيام كان المنتدبون يسيّرونهم، فلما استقلوا بأعمالهم، ورفعت عنهم المراقبة ونشبت الحرب نسوا ما تعلموا، فأخذوا يجورون على الرعية ولا سيما في الأماكن البعيدة عن الأنظار. ولا همَّ للمأمون على الأمن إلا مصادرة الحبوب وتهريب المحظورات، يشترك بذلك مع قادته.

ما أعجب طباع البشر! كنت أعتقد النزاهة في بعض الموظفين، وإذا الحرب تنادينا أنهم كانوا كاذبين في دعواهم، يظهرون التورع عن كل ما ليس لهم خوفاً وطمعاً، وهم في الواقع ما عَدَوْا سيرة رؤسائهم، يتمرغون معهم في حمأة اللصوصية، لا يبالون الشرف والنزاهة، ودعواهم على فعلاتهم ارتفاع أسعار المعيشة، حتى لقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم. نعم إن مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليه قبل الحرب، ولم تزد الرواتب أكثر من ضعفين أو ثلاثة، فمن الصعب على من لم يكن له مورد آخر غير راتبه، أن يعيش بمشاهرة ضئيلة. وهذا أيضاً ليس فيه مبرر لسلب الرعية وإضاعة حقوقهم. ولولا أن أنشأ الإنكليز في هذه الأقطار مشاريع استلزمت شغل عشرات الألوف من الأيدي العاملة كفتح طرق وإنشاء جسور وإقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات ومآوي وملاجئ لعم الفقر الطبقات النازلة، وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات. وكلما تضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء، فزادت الأسعار ارتفاعاً.

كان في سورية ولبنان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق النقدي متداولة، فزادت في الحرب ثلاثمائة مليون آخر. وهكذا حال مصر والعراق وبعضهم في الأقطار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يعملون ويربحون. أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته، ولا يتجلى ما تؤول إليه إلا بعد الحرب، وإن رأينا بعض الأملاك والأراضي ترتفع أسعارها إلى ضعفي ما كانت عليه، ثم تعود إلى النزول.

طلعت علينا الحرب العالمية الماضية وهذه الحرب الطويلة الحاضرة بضروب من التبدل في أخلاقنا ومنازعنا، وأهم ما كان محسوس الأثر ذاك الفجور الساري في الطبقات. الأمور المالية تزيد وتنقص، والثروات تقل وتكثر، والأرض تعمر وتخرب، والشجر يكتسي ويعرى، لكن فساد أمة نذير اضمحلالها، ولا تنفع معها ثروتها ولا صناعاتها ولا فنونها ولا علومها. لا جرم أن الفحش لا يرتفع من الأمم في حال ترقيها وتدنيها، أما بعض العالم اليوم فقد استحلوا كل محرم بلا حياء،

وكادت النخوة تفقد من الرؤوس، وكان لكثرة الجيوش المنوعة دخل كبير في الاسترسال في البغاء، فعم البلاءُ، وأنذر هذا السقوط بسوء العقبى[١].

ومما ذكره من مفاسد المجتمع قوله:

«جرؤوا إلا من عصم الله، على ما كانوا يتخوفون منه، وكان المبتلى بالمنكرات يتوخى، إذا أتى أمراً ينبو عن مصطلحات الجماعة، أن يكون ذلك منه في سر ليخفى على الأهل والجار، وبتأثير التمدن الجديد اليوم يرى بعضهم أن ما يأتيه هو من الأمور الطبيعية فلا يستمع إلى من ينكر عليه، ولا يخشى عذل عاذل، ولا يعبأ بنصح ناصح.

نعم فتحت أبواب المنكرات والشهوات، وكثر السرف في كل شيء على ما لا تتحمله حالة كل الطبقات، ودخلت الكبرياء والتعاظم في طبقة المتعلمين والممدنين، وعلى نسبة الترقي في العلم والمعارف كان التدلي في الأخلاق إلا من رحم ربك.

زاد التبجح والتنفج[٢]، وإذا ببعض الشبان يزهدون في الزواج - ولا سيما في المدن - فراراً من تأسيس بيوت، يحاولون أن يكون الكمال آخذاً بكل ما فيها، وإذا هم يتخوفون من أن يولد لهم أولاد تضيق الصدور بتربيتهم، يتحيلون للنجاة مما ينبغي للحياة الزوجية من كلف موجعة، فأحجموا عن الإحصان، فاختلت بالضرورة نواميس التصون والتعفف، وكسدت البنات وزاد العوانس، فزاد الفجور، وضربت الفضائل في ديار الإسلام في الصميم.

واختل بعد الحرب نظام الحجاب فجأة في أرضنا، فكان في السفور مضار غير قليلة، فأشبهت المرأة في مصر والشام إنساناً طال عهده بالأكل فأتاه الفرج بأن جيء له بأطيب الألوان، فأكل وأسرف في الأكل بعد صيامه وحرمانه، فتأثرت بما فعل صحته.

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٤٧٧ - ٤٧٩.

(٢) أي: الفخر والكبرياء.

ونشأ عن غدو النساء ورواحهن بدون محارمهن في السيارات والقطارات والبواخر، ونزولهن في المصايف والمشاتي، وفي الفنادق والمنازل والمقاهي والحمامات والملاعب والملاهي أُمور ما كان يجرى مثلها إلا على الندرة، وفي شيء من التكتم.

ومن العوامل التي زادت في هذا الاستهتار أن اغتنى كثيرون فجأة في الحرب، فنعموا بشقاء غيرهم، وسلبوا حصة الجائع والعريان، وملؤوا جيوبهم بما جمعوا من أرباح، وإذ لم يتعبوا بما كسبوا أسرفوا في إنفاقه، فقلدتهم الطبقات الأُخرى في سفاهتهم. وكان القانون في جمع الثروات أن تجمع في المدد المتطاولة، وأن تصرف بالحسنى، فصار الفرد المتخلف وراء صفوف المتحاربين إذا كان على شيء من الذكاء، وفتح له باب من أبواب الكسب يُثري بسرعة على ما لم يقدر له في جيل أو جيلين.

وقد سمعنا من جنون أغنياء الحرب العالمية ما لم يخطر للمفكر في خاطر. رأينا منهم من كان يشعل لفافة التدخين بورقة مالية من ذات الخمسين ديناراً، ومن يعطي في ليلة يقضيها في موبقاته بضع أوراق من ذات المئة دينار. وبلغنا عن بعضهم أنه كان يجلس إلى منضدة اللعب فيخسر الأُلوف وهو باسم، ومنهم من كان يغسل رجليه بعدة زجاجات من الشمبانيا، وكان ثمن الزجاجة الواحدة من هذا الشراب العزيز الدينارين والثلاثة. كانوا يأتون هذا السفه؛ والخلق يموتون جوعاً ومرضاً[(١)].

❁ ❁ ❁

التهاون في المواعيد والحزم إزاءه:

قضية المواعيد قضية مؤرقة، يتهاون فيها أكثر الخواص من الناس، ولا تجدهم - غالباً - يقدرونها حق قدرها، وإليكم كلام الأستاذ كرد علي عن حال مجتمعه آنذاك

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ٩٧ - ٩٩.

مع المواعيد، ولا يزال ما قاله يصدق على حال أكثر الناس اليوم، بل على الكثرة الكاثرة منهم:

«في اليوم الذي يعرف هذا الشرق قدر الوقت ينتقل خطوة أخرى في معارج التقدم، وفي اليوم الذي يرغب عن الفوضى ويولع بالنظام يعد ذا قيمة في مجموعة الشعوب، وما زال الشرق دون الممالك، الأنكلو سكسونية بنظامه لأن كل أولئك دخل على أهل تلك الممالك وأصبح عادة مستحكمة فيهم، حدث أن أراد المجمع العلمي العربي إقامة حفلة تأبين لأمير الشعراء أحمد شوقي تحت رعاية أول رئيس للجمهورية السورية السيد محمد علي العابد صديق الشاعر أيام الطلب، فلما حانت ساعة افتتاح الحفلة وتأخر الرئيس أوعزت إلى القارئ أن يقرأ، وللخطباء أن يتقدموا ويلقوا خطبهم حسب البرنامج المقرر. وجاء الرئيس بعد ربع ساعة من الوقت المعين وفهمت أن أمين السر ادعى للرئيس أن الكبراء في العادة يشخصون إلى الدعوات عندما يتكامل الحشد، فقلت للرئيس: أنا أرى أن تكون فخامتك المثل المقتدى به في المحافظة على الأوقات، وقاعدة تخلف الكبراء عن الوقت المحدود تزيدنا فوضى إلى فوضانا، ونحن نبغي أن نقضي على هذه الفوضى. لشدَّ ما امتعضت من تسامح قومي في المواعيد، وكنت كثيراً ما أُسمعهم أشَد التقريع[1]».

وقال أيضاً:

«وفي العادة أن يأتي المدعوون بعد الميعاد الذي ضربه لهم صاحب الدعوة، وكثيراً ما يتخلف بعضهم ساعة عن الوقت المقرر، وصاحب المائدة لا تسمح نفسه أن يقدم طعامه لمن اجتمع فيشتد بهم الجوع، ولا يدرك الداعي أنه بإكراه من حضر على انتظار من تخلف يحتقر من لبى الطلب في الوقت المعين، ويضيع عليهم أوقاتهم، وقد تكون لهم مواعيد أخرى، ولا يأذن بإطعام مدعويه إلا إذا تم الحشد كله. وربما

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٠٧.

حدثته نفسه أن يرسل ولده أو خادمه يسأل عن المتخلف ويستحثه أو يهتف له بالهاتف، وفي الغالب أن المتخلف لا يعذر شفاهاً ولا كتابة. وعلى هذا يستلزم تناولُ وجبة من الطعام أن يصرف المدعوون ساعات.

ومن المستحيل ضبط المواعيد في هذا الشرق القريب، فالقوم ما عرفوا التوقيت، وربما كان ضبط المواعيد مما يستغربونه ويصعب على نفوسهم. ومسألة المواعيد مما شغل جانباً من وقتي، وكنت آلم من الإخلال بها، وقد تغلبت عليها إجمالاً، وغرستها في صدور بعض الناشئة بصعوبات كثيرة، ولقنت من أحاطوا بي ورأستهم ـ وإن شقّ عليهم تحكمي بادئ بدء ـ أن يراعوا المواعيد أبداً لما في فوضى الأوقات من الضرر لهم ولغيرهم، وبالإخلال بالمواعيد يثبتون أنهم شعب منحط»[١].

❁ ❁ ❁

ضياع أوقات الناس وتدني أهدافهم:

كان أكثر الناس ـ آنذاك ـ يعيش بلا هدف سام ولا غاية، كما ذكرت في مقدمة هذا المبحث، وإليكم صورة من ذلك:

قال لي والدي في معرض تفضيل جيله الأول على جيله الثاني، متلهفاً على ما فات من سالف أيامه، وهكذا اعتاد معظم الشيوخ:

كنا خمسين رجلاً جمعت بيننا الصداقة، وألفت بين قلوبنا العشرة، وتقارب الجوار، وكان أكثرنا من طبقة التجار، فخرجنا من المدينة للاصطياف في قرية الهامة من جبل سنير. نزلناها أول يوم عيد الفطر، وغادرناها خامس يوم عيد الأضحى، أي: صرفنا فيها شهرين ونصفاً. وكان نظامنا تاماً في كل أمر من أمورنا، لم يلبس أحدنا نعل غيره ولا تخالفنا في شيء، وكان أحدنا ينزل إلى المدينة مرة في كل أسبوعين ينظر في أمور مخزنه، ويجيب على ما ورد عليه من رسائل في البريد.

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ٣٨ـ ٣٩ .

فقلت له: وكيف كنتم تصرفون هذا الوقت الطويل؟

قال: كنا نقضيه في العزف على ما كان لدينا من أدوات الطرب، وكانت الموسيقى والغناء والإنشاد ورقص السماح من أهم ما كنا نلهو به، ثم نلعب الألعاب الرياضية المألوفة وفيها قفز ونط وحركة، ونتناقش في إيراد القصص والحكايات، وحل الألغاز وفي ضروب من الهزل والدعابات. وكنا إذا صلينا نطيل الصلاة، وإذا جلسنا إلى المائدة نطيل الأكل، وهكذا يمر الوقت بدون أن نشعر.

فقلت له وهو يفاخر بفرط أدب معاصريه: إن كسلكم، وعدم حسابكم للمستقبل، وقناعتكم بالقليل كانت مما جلب علينا الويلات، فغدونا نسرع لنلحق العاملين المتقدمين، ولا نزال بعيدين عن الغاية.

ومما قلت له: ولو كتب لي أن أكون شريككم في هذه النزهة لدخل الملل على قلبي من اليوم الأول، وعددتني أقضي العمر الثمين في تافه الملهيات، لا لذة تتوقع منها، ولا فيها للنفس سلوى.

ولو كان يجوز التوسع في الحديث مع والدي لقلت له:

ولماذا لم يصحب كل منكم عياله يكتري لهن داراً فيأنس الرجال بالرجال، والنساء بالنساء ساعات معلومة من الليل والنهار، إذا لم يبح قانون تلك الأيام اختلاط الرجال بالنساء[1]. ولو فعلتم لكانت الأسرة تصطاف كلها وتستفيد بالعشرة، ومعظم جماعتنا إلى اليوم لا يفكرون في بنات حواء، قتلتهم الأثرة وحب الذات. وفاتني أن أسأل أبي يومئذ وهل كان في جماعتكم واحد يستطيع أن يقرأ لكم في كتاب، ويشرح لكم ما غمض عنكم حله وفهمه، وبذلك كنتم تمضون ساعتين مفيدتين من كل وجه. والغالب

---

(١) الحق غريب كل هذا الكلام من كرد علي وهو من جملة أخطائه؛ إذ هذا القانون الذي يذكره هو الشريعة الإسلامية التي تحظر مثل هذا الاختلاط في اللهو، ولم تسؤ حال المسلمات اليوم إلا بالسماح لهن بالاختلاط المعيب الذي نراه في أكثر البلاد الإسلامية.

أن هذا الطلب كان في غير محله؛ لأن كل هذا الجمع هو ممن تغلب عليهم الأمية فكانوا بذلك متماثلين، ولهذا تمت ألفتهم ولم يشذ عنهم عقل عن عقل، ولم تحدث أحدهم نفسه أن يميزها عن إخوانه بشيء على ما جرت عادة المتصاحبين، وأعتقد إلى هذا أن هؤلاء المصطافين لو كانوا ممن يقرأ ويفهم ما يقرأ ما أضاعوا شهرين ونصف شهر من حياتهم في مهازل لا تعود عليهم بغير تقطيع الوقت سدى.

وزنت أحاديث المجالس بميزان النقد، وقارنت بين أمس واليوم، فاستبان لي أن البون شاسع بين الآباء والأبناء، وأكثر منه بين الأحفاد والأجداد، فما كان يرضي الأسلاف من الأحاديث لا يرضي أبناءهم، وما كان يُعد من مباهج الحياة يحسبه أهل العصر مضيعة للوقت، بل سرفاً وسفهاً.

ومن أجل هذا نرى بعض البيوت إلى اليوم خالية من الكتب على غنى أصحابها؛ لأن صاحب البيت الأول ما كان يقرأ ولا يكتب، فخرج ابنه على غراره إلا قليلاً، هذا والكتاب مهما كان نوع تأليفه أعظم محدث ومسلٍّ، وليس الكتاب بالعزيز المنال بعد انتشار الطبع هذا الانتشار، وكانت الكتب بالأمس مخطوطة يعز وجودها، وهي في موضوعات مملة لا تستسيغها كل الأذواق، والكتاب اليوم منوع الأبحاث جم الفوائد، يروح عن النفس، ولا يدخل الملل عليها مهما طالت عشرة المرء له.

✿ ✿ ✿

عدم الالتزام بالسنة في بعض مظاهرها:

ذكر الأستاذ كرد علي قضية استسهال كثير من الناس حلق لحاهم في القرن الماضي فقال:

«في سنة ١٨٩٨ زار الشام الإمبراطور غليوم الثاني الألماني، فأعجب شبابنا بهندامه وتبرجه، وهالهم حفه شاربيه بحيث لم يبق من طرفيهما إلا قليلاً غمرهما بعد فتلهما بدهن مطيب، وما هي إلا أيام حتى اقتدوا به في شواربهم، وعدلوا عن السبلات المسترسلة، وكانوا يمشطونها كما يمشط أهل اللحى لحاهم، وبطل زي الشوارب على ما قدر الله وقضاه.

كان الناس يبقون على اللحى في العادة، وتعلموا على الأيام حلقها، اقتبسوه من الأتراك والإفرنج، وإلى القرن الماضي كانوا يستفظعون حلقها[١].

ولما جاء السلطان سليم إلى مصر ليضمها إلى ملكه كما ضم الشام عجب المصريون منه ومن جنده وضباطهم، لأنهم كانوا يحلقون لحاهم، واللحى عندهم تمثل الحكمة والتعقل، وعلى ذلك كان ينظر إليها عند الكلدان والآشوريين والعبرانيين وقدماء فلاسفة الهند، ومشى على آثارهم فلاسفة اليونان والعرب في الإسلام.

في الحديث: «أنهكوا الشوارب واعفوا عن اللحى» وفيه: «خالفوا المشركين: وفروا اللحى واحفوا الشوارب». ولما بعث باذان عامل كسرى على اليمن إلى النبي عليه السلام رجلين من قبله، نظر إليهما وقد حلقا لحاهما وشواربهما فقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟» قالوا: ربنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال: «لكن ربي أمرني أن أعفو لحيتي وأقص شاربي[٢]».

وما فتئ الحال في الشعوب الإسلامية والنصرانية والوثنية يختلف بين حف اللحى وإطلاقها حتى عصرنا هذا، وقد مُتع فيه كل إنسان بحرية التصرف بلحيته يبقيها أو يزيلها[٣]، ومنهم من كان يقتصر على قبضة ومنهم من يبلغ إلى قبضتين. ورأيت شيخاً من مشايخ الطرق أطلق لحيته حتى تجاوزت حد الحالبين، وكان موضع استغراب النساء والأولاد يلغطون فيه ويسخرون كلما رأوه. وكنت إذا وقع نظري عليها أذكر لحية ضياء الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٨٠) وكانت طويلة جداً بحيث تصل إلى

---

(١) وذلك لأنهم ما كانوا يعفونها ديانة، وإنما عادات وتقاليد؛ لذلك هان عليهم حلقها بعد ذلك.

(٢) هذا معنى الحديث وليس نصه، والأحاديث التي أوردها صحيحة، لكن ليته هو وأضرابه التزموا بها وطبقوها لكان حسناً.

(٣) ليس الأمر على ما ذكره الأستاذ، إنما نحن ملتزمون في اللحية بما أمر به الشارع لا إلى أهوائنا وما نحبه ونريده.

قدميه، وما ينام إلا وهي في كيس، وكان إذا ركب يفرقها فرقتين. وكان عوام مصر إذا رأوه قالوا: سبحان الخالق. فكان يقول: عوام مصر مؤمنون حقاً؛ إنهم يستدلون بالصنعة على الصانع.

وبعد فالخطب سهل في لحى الرجال، فما قولك إذا كانت للنساء لحى ولحى طويلة. كنت قرأت في صحيفة إفرنسية أن النساء في بعض مقاطعات فرنسا ـ أُنسيت اسم المقاطعة ـ تنبت لهن لحى كالرجال، ورسمت صورهن، وكانت أقصر قليلاً من لحية شيخ الطريقة ذاك. فتأمل امرأة بلحية تتجاوز القبضتين!!

واللحى على الدهر عزيزة على من يطلقونها، ومن شتم بلحيته فكأنما شتم بأعز عزيز عليه. فقد أراد بطرس الأكبر قيصر روسيا أن يكره شعبه على قص لحاهم فكاد يفقد عرشه، ولما أمر أمان الله خان ملك الأفغان بحلق لحى رعيته فقد عرشه، وعدوا عمله تعدياً على شرفهم. وفي أدبنا أشياء في اللحى[1].

❁ ❁ ❁

جمعية المقاصد الخيرية

لو كل بلد إسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام، لاضمحلت الأمية علة العلل في هذا المجتمع، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة، وبرئوا مما يتهمهم به أعداؤهم من أن دينهم لا يفسح لهم مجالاً للنور والثقافة.

أسس المسلمون في بيروت في سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية»، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ، ثم طرأت عليها طوارئ شلت حركتها، ومن أهمها أن الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٦٢ ـ ٧٦٣.

في سبل التعليم، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية، ومدارس المبشرين، ما شاؤوا وشاءت دول الاستعمار.

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة، كان أول ما فكر فيه المسلمون إعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى، فهبوا إلى التذرع لإحياء جمعيتهم في سنة ١٣٣٨هـ وأخذوا يجمعون أموالاً، واستوهبوا أرضاً عظيمة من الأوقاف أقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي، فكان لهم منها بأَخَرَة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة، يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً، ولا يفتؤون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم.

وجعل أُولئك العاملون هدفهم الأسمى إنشاء مدارس لتربية البنين والبنات، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الإسلامية، وإعدادهم ليكونوا عاملين منورين أقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين ـ والعلوم النظرية واحدة في جميع مدارسهم ـ دروساً عملية في تدبير المنزل، تتناول الطبخ والخياطة على اختلاف أنواعها، والأشغال اليدوية والرسم والموسيقا وتربية الأطفال.

أصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والإناث، منها مدرستان ثانويتان، إحداهما للصبيان والثانية للفتيات، أطلق على كل واحد منهما اسم «كلية». وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً، وكان فيهم ثلث من نجحوا في الجمهورية اللبنانية في إحراز شهادة البكلوريا؛ هذا وبيروت مدينة المدارس، ومنها ما يرد عهد تأسيسه إلى ستين أو سبعين سنة. وبلغ مجموع ما في مدارس البنين والبنات في بيروت ـ في سنة ١٩٣٤ ـ ٣١٣٠ طالباً وطالبة، وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الأطفال (هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك زاد عدد المدارس وقويت الجمعية قوة يفاخر بها كل مسلم).

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس،

يمدونها بما تصل إليه أيديهم من المال كل سنة، وكانت مدارسهم في هذه الأزمة الخانقة أقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية؛ ذلك لأن مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة، لا يسرف في مالها أيام الرخاء، ويراعى في الإنفاق العام الحاضر كما تراعى الأعوام المقبلة.

ولما رأت الجمعية أن التبشير يسري بسرعة في القرى الإسلامية من عمل بيروت؛ هبت لجنة من أعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها، وكوّنت لها رأس مال، وبدأت بإنشاء المدارس في القرى في سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن اثنتان وأربعون مدرسة، فيها ما يربو على الألفي طالب وطالبة، يتلقون التعليم الابتدائي الصحيح على منهاج التعليم في الجمعية.

ولم تكتف جمعية المقاصد بما أتت، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين، وبلغ ما أُنفق على بنائه ٢,٣١١,١٥٩ قرشاً سورياً أو نحو أربعة آلاف ومئتي جنيه عثماني ذهباً، ونشطت المدارس الأهلية الأخرى وعاونتها، وتولت برجالها مراقبتها وإرشادها، ورممت بعض المساجد في الحاضرة والضاحية، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مدارس الشرق أو مدارس الغرب، وعاونت حفظة القرآن، وسهلت سبل إتقان حفظه، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك.

هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغُيُر على أبناء دينهم، فتألف منها رأس مال لا يستهان به؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه، وكل ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين، وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت، وعين أعيانها عمر بك الداعوق؛ الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه أن يعملوا ولا يقولون[1]، ويبذلون ما لهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون.

---

(١) هكذا جاءت .

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سُداه الإخلاص، ولُحمته حب الدين والمدنية، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة، وقَلّ في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية، وقَلّ أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت.

ونعود فنؤكد: لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من أبناء بيروت لقضي مع الزمن على الأمية في المسلمين. وجوهر كل نهضة في عقول الرجال، ولا نجاح في الأعمال لغير المخلصين المثابرين.

هذا ما كتبته في هذه الجمعية العظيمة، وما زالت ـ ولله الحمد ـ مطرداً سيرها تخرج بها رجال هم اليوم قرة عين المسلمين في هذه الديار[1].

❁ ❁ ❁

راي كرد علي في تولي النساء الوظائف العامة

عقد في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٤ مؤتمر نسائي، اشترك فيه وفود من الشام والعراق، ولم يشارك فيه نساء جزيرة العرب ولا غيرهن، وألقين الخطب وطلبن المطالب في إصلاح حال المرأة، ومما قررنه مساواتهن بالرجال في الوظائف، إذا تساوى الذكر والأنثى في الشهادات والمؤهلات، وأن يَنتخبن ويُنتخبن، أي يصبحن نائبات في المجالس النيابية، يتولين أمور الناس في الحكم، أي يتخلين عن بيوتهن وتربية أولادهن، ويتصدين لشؤون لم يخلقن لها، وبعض ما طلبن مما يتعذر تحقيقه؛ لأن النساء لم يفلحن في المحاماة ولا في الطب ما عدا الفرع الخاص بأمراض النساء[2]، ونجحن في تمريض المرضى والكيمياء العملية وتربية الأطفال، ولم يأت

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧١٦ ـ ٧١٨.

(٢) لعل الأمر تغير اليوم.

منهن في الغرب إلى اليوم مهندسة ولا قاضية ولا طباخة ولا خياطة[١]، وثبت أنهن لم يأتين العالم بشاعرة ولا كاتبة من الطراز الأول، ولا بعالمة ولا مخترعة من عيار الرجال، وإذا نجحت حكومات النساء في بعض دول الغرب فالفضل فيه للرجال الذين كانوا يعملون من وراء حجاب، وإذا أخفق الرجال في بعض الأدوار فقد كان السبب فيه النساء مذ كنّ حاكمات بالفعل، والظاهر أن الرجال هم الحاكمون.

سررت بعقد هذا المؤتمر يتمرن بنات حواء على الخطابة والكتابة والتفكير، أما هن فمهما قررن وشاهدن من بعض الرجال صدوراً رحبة في سماع شكاواهن، فمن المستحيل أن ينفذ من مطالبهن إلا ما كان المنطق السليم يؤيده. ونصيحتي إلى الفضليات منهن أن يُعنين بتعليم بنات جنسهن وأبناء جنسنا أولاً، حتى إذا صار المتعلمون والمتعلمات أكثر من الأميين والأميات جاز لهن أن يطلبن بعض ما طلبن من الرجال، وربما يخجلن يومئذ من تقرير ما يخالف طبائعهن، ويتعذر عليهن تحقيقه من عدة اعتبارات؛ لأن الفطرة لم تؤهلهن له، وما أحب لهن الاشتغال بالعبث والسير مع الهوى، وهن أعرف بما يعرض لهن من حالة صحية تخرجهن عن اتزانهن مدى الشباب والكهولة[٢].

❋ ❋ ❋

(١) لعل الأمر تغير اليوم.

(٢) «المذكرات»: ٢/ ٤٨٥ .

المبحث الثامن:

الجانب الثقافي

بواكير عمر الأستاذ كرد علي

لقد كانت الشام في أوائل نهضتها الثقافية، وبدايات خطوها إلى امتلاك وسائل نشر الثقافة؛ كطبع الكتب، وإصدار الجرائد والمجلات، وإنشاء المجامع اللغوية، وتعريب الألفاظ اللغوية المتداولة من التركية والافرنجية والفارسية إلى العربية، وكانت هناك مناقشات متعددة عن الاستفادة من تراث المستشرقين وتقدير مدى أهميته وإنصافه، ولا بد من القول إن مصر كانت رائدة في الجانب الثقافي آنذاك تتلوها الشام (سورية ولبنان، وإن كان للبنان قصب السبق) ثم العراق، أما سائر الدول العربية فكان بينها وبين الثقافة بون شاسع على تفاوت منها في ذلك، وإليكم بعض كلامه الذي يجلي بعض الجوانب الثقافية آنذاك:

❁ ❁ ❁

جريدة المقتبس وأثرها[1]:

شق على والي سورية[2] في عهد الحرية والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبة بإصلاح شؤون الولاية، ونقد إدارته أحياناً. وله الحق أن يتأفف، وهو ممن رُبوا في عهد الاستبداد الحميدي[3]، ورجل هذا نشأته يصعب عليه أن يسمع أصوات

(١) كان كرد علي قد أنشأ هذه الجريدة في دمشق.

(٢) أي: العثماني.

(٣) هكذا كانوا يسمون عهد السلطان عبد الحميد العثماني، وفي هذا بعض التجاوز، وغمط حق هذا السلطان.

الأحرار، وهو الذي اعتاد أن يرى أعظم أعيان ولايته يقبلون ركبته ويلثمون أذياله. ووهم بأني أتطاول على مقامه لإسقاطه، وأن الشعب قد مقته ومقت حكومته؛ لكثرة ما رددت من أخبار الضعف في إدارته، فلم ير ليشغلني عنه أنجع وسيلة من أن يقيم عليَّ بعض العمال ـ ممن انتقدت أعمالهم ـ دعاوي لدى المحاكم، يزين الوالي لهم إقامتها، ويعاونهم عليَّ، وهم في باطنهم لو تركوا واختيارهم لما أقدموا على إقامة قضايا قد تنكشف خلال النظر فيها سيئاتهم، وهم أدرى بأنفسهم وبما يرتكبون، والخائن خائف.

وأتى زمن علينا أمام القضاء نحو من ثلاثين دعوى من هذا القبيل، يطلب بعض أربابها جزاء المفتري ـ أي حبسنا ثلاث سنين ـ وجاءنا الفرج بعد حين على ما لم يكن في الحسبان، وذلك بتعيين رجل من أهل القدس اسمه إسحٰق روحي أفندي البديري رئيساً لمحكمة بداءة الجزاء، فدرس عامة الدعاوى المرفوعة علينا، فوجدها كلها من نوع واحد فوحدها، وأقنع المحكمة بأن صاحب الجريدة لا غرض له إلا الإصلاح، ولا حرج في القوانين على من يطالب به، وليس فيما كتبته الجريدة ما يمس عاطفة المكتوب فيه، ولا ما يثلم شرفه ومروءته، فحكمت المحكمة بتبرئتنا من كل القضايا، فصعق الوالي والاتحاديون[1]، ومن سار تحت عَلَمهم، واستأنفوا النظر في الدعاوي أمام محكمة الاستئناف، فحكمت بتأثير رئيسها شكري بك، وكان تركياً من جماعة الاتحاديين، بسجن شهر واحد على أخي أحمد مدير الجريدة المسؤول، ثم أنزل الحكم إلى النصف، وطلب إليه بعض رجال القضاء أن يدخل من بابٍ من أبواب السجن، ويخرج من آخر لتتم الصيغة القانونية، ويقال إن المدير حُبس، ويقيد ذلك في السجل فأبى. وأعلنت الحرب العامة[2] فذهبت الدعوى مع ذهاب

---

(١) هم جماعة الاتحاد والترقي الماسونية التي حكمت تركيا بعد إسقاط السلطان عبد الحميد رحمه الله.

(٢) أي الحرب العالمية الأولى.

المملكة[1] كلها. ومن الغريب أننا ما كنا نعرف رئيس المحكمة السيد البديري الذي حكم ببراءتنا، ولا هو يعرفنا إلا من الجريدة.

قلت: إن الوالي كان يتألم للتعرض لأعماله في المقتبس، وكان بيننا برودة بسبب ذلك، وهو يوالي إقامة الدعاوى على الجريدة بواسطة أعوانه، ولكثرة ما رآه أصحابه حانقاً عليّ عرض عليه أحد أعيان الجزائريين، بل أمير من أمرائهم وباشا من باشاواتهم، أن يقتلني، فقال له الوالي: لا تفعل، وتبين بعد أن هذا الجزائري كان من الخائنين للدولة، ونفي بسبب ذلك إلى الأناضول. وخاف الوالي هذه المرة مغبة القتل ونهى عنه.

أما ذاك الشقي فلطالما قتل الفلاحين وهتك أعراضهم بواسطة أعوانه الأشرار حتى اغتنى وترك ثروة كبيرة، تمزقت شَذَر مَذَر في بضع سنين، وكان في تجويز قتلي يرمي إلى غايتين، الأولى: مصانعة الوالي، والثانية: خلاصه من نقد جريدتنا لتزويراته أحياناً.

جاءني ضابط تركي اسمه جميل بك، وهو من دعاة حزب الاتحاد والترقي، يخطب بالتركية، ويثرثر في فضل الجمعية على العالمين، فرجاني أن أصالح الوالي، وطلب أن أرافقه إلى دار الحكومة لهذا الغرض، فقلت له: باسم الله، اعلم يا صاحبي أن ليس بيننا وبين الوالي عداوةٌ شخصية، وما نكتبه في الجريدة فلمصلحة الدولة، ونحن إذا لم نوجه الكلام إلى الوالي المسؤول فلمن نوجهه؟ فلما اجتمعنا في دار الولاية سُرّ الوالي جداً، وظن أن الأمر يقف عند هذا الحد بهذا الصلح، فلا أعرض له بعدها، فيسير كما يشاء مع من يدبر الأمر في هذه الولاية العظيمة على هواه لا كما تقضي القوانين والمصلحة، ومما قال لي: لقد أسقطتني من الأنظار بما كتبت

---

(١) أي دولة الخلافة العثمانية.

عني في جريدتك، وأصبحت خجلاً في نفسي، حتى إني لأقول للحوذي[١] أن يسير بي بين البساتين إلى داري، لئلا أستهدف للعن في الطريق، ويقولوا: هذا هو الوالي الذي يكتب المقتبس في إجراءاته الخارجة عن النظم والأوامر المرسومة، قال: وفي الحق أني لم أرك يوماً أهنتني بكلمة واحدة، أو تعرضت لشخصي بإشارة أو تصريح.

فأجبته: إنا نكتب ما نكتب لنعرض رأينا على أنظاركم، وندلكم على عورات الضارين في الإدارة الحكومية، وغرضنا في ذلك شريف ما أظنه يسوءُكم، وهو إصلاح حال الإدارة التي لم يغير الحكم الجديد شيئاً من روحها، ونحن لا نخرج بحال عن استعمال الحرية التي منحنا الدستور إياها. أما قولكم: «إننا لم نذكركم بما فيه إهانة شخصكم الكريم» فنحن لا نقول بهذه الطريقة، ونتعلم الأدب وحرمة الكبار منكم، وأي دخل للخصوصيات في مسألة عمومية.

وحقاً كان هذا الأسلوب في الانتقاد مما يؤلم عمال الدولة وغيرهم أكثر من السباب والشتائم، وكنت أتوقى أن أمسَّ إنساناً فيما أكتبه، وحصرت الجهد في مناقشة العمال، وكان كل ما يكتب في الغالب مستنداً إلى وثائق، مدعوماً بنصوص القوانين، ويؤازرني سراً في ذلك بضعة شبان سوريين تخرجوا من المدرسة الملكية في الآستانة[٢]، مدرسة السياسة والإدارة، وعادوا إلى سورية ليتمرنوا في دواوين الولاية، ثم يعينون قوام المقام، وهم الذين كانوا يكتبون بالدقيق والجليل مما يجري في مقر الوالي، ومنهم من كانوا من أعز أصحابي، وممن عرفوا بإخلاصهم للدولة وحبهم للعرب والعربية. وعمدتنا في مراسلات الجهات على أناس متعلمين من أصدقائنا كانوا يعاونوننا بجلب الأخبار الصادقة حباً بالإصلاح لا طلباً للظهور ولا للمادة، ولذلك جاءت تأثيرات الجريدة فوق المأمول، فكانت إدارة فعالة في تنحية الولاة، وعزل المتصرفين، وقُوّام المقام وغيرهم.

---

(١) سائق عربة الخيول.

(٢) أي إسطنبول.

ارتشت محكمة الاستئناف في جناية ارتكبت في دمشق، كانت من أفظع ما سمع من أصناف الجنايات، فما زلنا نكتب في تبرئتها للقاتل، وكان والده من كبار المرابين، حتى أقيلت المحكمة بكل من فيها من كتاب وأعضاء. وكان عبد الرحمن باشا - وزير العدل على عهد أواخر السلطان عبد الحميد الثاني - رجلاً عظيماً يكره المرتشين كراهة شديدة، إذا ثبت له أن بعض القضاة تلوث برشوة وأضاع الحقوق والدماء، يغتاظ ويحنق ويكتب بجانب اسمه (م) في مفكرته، ولا يعود إلى توسيد عمل إليه، ولو طلب إليه ذلك السلطان نفسه، وكان السلطان يحترمه لهذه الأخلاق، ولا يتدخل في شؤونه.

أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية - التي تصدر باللغة العربية - لأنها كانت تكتب بحرية زائدة حتى ليظنها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر، تصدر على عهد العميد لورد كرومر، وفي ذاك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الإنكليز.

ولطالما هدد أصحاب الظلامات صغار الموظفين إذا لم ينصفوهم بأن يرفعوا شكواهم إلى المقتبس، أي أن المقتبس صار حكومة أو محكمة على الأقل، وهذا النفوذ هو الذي كان يتخوف منه الولاة، ويكتبون به إلى مرجعهم الأعلى في دار الملك، وهو يعظم وينمو كل يوم.

ويعذر الاتحاديون على تأففهم من نقد الجريدة، لأنها كادت تكوّن رأياً عاماً في ديارنا، وهذا ما راق ولن يروق أحداً من الأتراك منذ القديم، وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد، وهي ألا يعترفوا للعرب بشيء من الحقوق، لئلا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبيهم وسادتهم، وكانت المركزية في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركزية فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج. وكان كل إنسان يطلب إصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة، يعامل أسوأ معاملة؛ ينفى ويسجن ويصادر[1].

---

(١) هذا الكلام فيه تعميم وتجاوز لا يليقان.

استعمال الألفاظ غير العربية

أورد الأستاذ بحوثاً لغوية مهمة تدور حول استعمال الألفاظ غير العربية في زماننا هذا، ومازال أكثر ما أورده من ألفاظ مستعملاً في بعض البلاد العربية إلى اليوم، هذا وقد تكلم في مجمع اللغة العربية في القاهرة يناشد أعضاءه الجد والاجتهاد في نشر الألفاظ الفصيحة والاكتفاء بها عن غيرها، لكن المجمع في واقع الأمر لا يملك أن يحيل توصياته إلى قرارات، وهذا من عمل الحكومات ووسائل الإعلام التي تتداول الألفاظ وتنوه بها، وترفعها أو تضعها، وقد اخترت لكم من كلامه بعض اللطائف، وأبقيت ما زال من الألفاظ مستعملاً إلى يوم الناس هذا، وحذفت ما أظن أنه قد اندثر ـ وهو جملة وافرة، أو أنه غريب عن جمهرة القراء الكرام ـ وإليكم كلامه مهذباً مختصراً:

«لو حلفنا للعامة بكل محرجة من الأيمان أن كلمة سيارة ودراجة وقاطرة وشاحنة وسفينة أرق وألطف وأدخل في موازين اللغة من أوتومبيل وبيسكليت ولوكوموتيف وفاغون ووابور ما استجابوا ولا صدقوا.

ولو قلنا لهم إن لفظ برق وبريد وهاتف أرشق من بوسطة وتلغراف وتلفون، وجسر خير من كوبري، ومعمل ألطف من فاوريقة أو فابريكة، والثّوي أحسن من السلاملك، والمثوى أنفع من بانسيون[1]، والحساء من شوربة، والشطيرة من سندويتش، والذرور من بودرة، والجعة من بيرا، وعقود من كنتراتات، ومصرف من بنك، ودار الندوة ودار الآثار ودار الكتب أحسن من بارلمان وانتكخانة وكتبخانة ما سمعوا ولا ارعووا.

وحيثما انقلبتم في مصر وأنصتم إلى المتكلمين في مدنها وأريافها يترامى إلى أسماعكم نموذجات غير جميلة من الأسماء التركية، حتى لتسمع في بعض البيوت

---

(١) أي فندق.

القديمة إلى اليوم لفظة أبله، داده، تيزه، نانا، بابا، فرشة، طقم، طربة، بُقجة، شنطة، طلمبه، سادة، بويا، تخته، خوجه، جزمة، شادر، شاكوش، بشكير، خردة، إلى عشرات غيرها.

وفي الشارع تسمع كلمات طليانية وروميه وإفرنسية وتركية، فتراهم يقولون في المطاعم مستاردا، روستو، فينو، اومليت، سبكيتي، ترشي، ضولمة، يخنى، كفتة، أوزي، صلاطة، صاصة، جاتو، وعشرات مثلها مما له مقابل في لغتنا، وهو أسهل وأسلس على النطق من اللفظ الأعجمي.

نسمع من أفواه المتمدنين والمتمدنات في الصباح والمساء كلمة فاتورة، فورمة، موضة، بروتستو، كارو، مناورة، بلاج، كابين، كابينه، بوفيه، أوبرج، كورنيش، فرنيش، مايو، كلسون، كومبينيزون، شورت، سبور، لوكاندة، أوتيل، أوسته، فانتيزي، ياقة، باترون، مارمتون، جارسون، روب، روب دي شمبر، بيجاما، جاكيتة، بالطو، بنطلون، ساتين، موسلين، إشارب، سواريه، كريم، بودرا، روج، مانوكور، تواليت، فيترين، بانيو، صالة، صالون. ولهذه الألفاظ كلها ما يقابلها من العربية، وقد يعرفها العامة دع الخاصة، ولا تحدثهم أنفسهم باستعمالها نكاية بهذه اللغة وكيداً لأهلها، أو حتى يقال عنهم على الأقل إنهم متمدنون، والألفاظ الإفرنجية أقرب إلى أذواقهم من الألفاظ العربية، وما شاء الله كان»[1].

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ مواصلاً الحديث في هذا الباب:

«في علمكم أيدكم الله أن الفساد عرض لألسنة العرب بعد الفتح بقليل لمجاورة العجم ومداخلتهم. وكان هذا الفساد يزيد وينقص بقدر بعد العرب وقربهم من الجزيرة، وقد سلمت اللغة الفصحى في بعض الأرجاء إلى ما بعد القرن السادس من الهجرة كما كان من شأن بعض قبائل اليمن لأنها كانت تعيش في أوديتها وجبالها

---

(١) المذكرات: ١٠٩٦/٤ ـ ١٠٩٧.

بعيدة عن الأعاجم. واحتفظ أهل الشام بكثير من الفصيح لانعزال بعض سكانها في أقاليم يكاد يكون الاتصال بينها معدوماً. وما كان الناس في القديم يرحلون كما نرحل، ويسيحون كما نسيح بهذه الكثرة، ولا يتمازجون بجيرانهم وغير جيرانهم هذا التمازج، ورأينا الشام تكثر فيها الألفاظ السريانية كما تكثر الألفاظ النبطية والفارسية في العراق والقبطية في مصر. وبقيت في الشام ومصر والعراق والحجاز ألفاظ ليست بقليلة أصلها رومي وتركي. وكانت ألفاظ الزراعة والفلاحة في الشام سريانية، وألفاظ المدنية فارسية صقلتها الألسن فعاد أكثرها كأنه عربي الأصل، ودخلت في معاجمنا وأصبحنا لا نعرف غيرها.

فمن الألفاظ النبطية أو السريانية، أي الآرامية الباقية في لهجة غوطة دمشق: شتل الغراس: أي غرسها، ومنها المشتلة: أي المغرسة أو المستنبت.

ومنه: الشرش: الجذر، ويقولون شرش: أزال الشرش من الأرض، (قلم الشجرة وقلّمها) قطعها.

كوّش الزرع أو الحنطة: جمعها.

شكارة القمح: مقدار ما يزرع في قطعة أرض.

(تخ الخشب) أو الحطب أو تختخ: يبس وجف وتهرأ.

الشوب: الحر، و(طرش الثوب) وسخه.

وأخذوا من الفارسية الجادة، والدهليز، والدولاب، والزنبيل، أو الزبيل، والإبريق، والدورق، والكأس، والكشكول، والقمقم، والجام، والفنجان، والزنبرك، والهاوون، والبركار، والصنج، والدف، والناي، والكمنجة، والبرواز، والخرج، والكَمَر: (مِنطقة من الشعر)، والهِمْيان. والتخت في الأصل: وعاء تصان فيه الثياب، وفي الاصطلاح مقعد كبير من الخشب.

والخاتون، والخاقان، والدرويش، والأستاذ، والبلور، والياسمين، والنسرين،

والنرجس، والجلنار، والخضراوات، واللوبياء، والكعك، والطاجن، والتازج: يقولون تازة بحسب أصلها، و(الجلاب): ماء الورد ومنه كل آب لصنف من المشمش حرفوه فقالوا: الكلابي، والسميذ، والخشكار: الطحين الخشن، والجوسق، والميزاب، والخنجر، والصابون، والأشنان، والخلخال، والخمار، والزركش، والسرداب، والسراي = السرايا، والداية: القابلة، والديدبان: الحرس، والغوغاء: الجلبة وكثرة الأصوات، والسنجاب، والهزاز، والسنديان، والهذار، والغار، والهليون، والفهرست، والدستور، والفرمان، والخان: معناها الدكان، والحانوت، والإيوان، والميدان، والأنبار، والكرخ، والخردة، والدستة.

وأخذوا من الرومية الصراط، والقرطاس، والبطاقة، والخارطة، والأطلس، والترمس، والإبريز، والأريكة، وأساطير، والإسطرلاب، والأسطول، والأسقف، والماس، والأقيانوس، والأيقونة، والبرج، والفانوس، والبطريرك، والبلغم، والترياق، والجغرافية، والدرهم، والإزميل، والسفسطة، والطقس، والفندق، والإقليم، والكورة، والقصدير، والقيراط.

وفي اللغة الدارجة في مصر والشام كثير من الألفاظ اللاتينية والإيطالية مثل: أنفلونزا، وبابور، وبارجة، وبالة، وبترول، وبرميل، وبرنيطة، وبسبور، وبطارية، وبنادورة، وبيرا، وتياترو، وليمونادة، وجرنال، وجندرمة، ومالاريا، وجنرال، ودوطة، ودينار، ولوكندة، ورصيد، وسطل، وصابون، وطاولة، وفاتورة، ومسطرة، وفاصوليا، وورنيش، وفسقية، وقنطار، وقرصان، وقوماندان، وكولونيل، وكبسول، وكربون، وكرتون، وكرنتينا، وكروسة، وكمبيالة، وكمبيو.

ومن التركية أسماء البقول والمآكل مثل: البقدونس، ودره أوتي (حشيشة الوادي)، وإسباناخ حرفوها بسبانخ، والقاورمة اللحم المجفف، والشاورمة اللحم المشوي بالنار، والباصدرمة: اللحم المجفف بالشمس، والدندرمة أو الجلاس،

ويابراق الورق[١]، ويخني، وترلي، وإكْمك، قطايفي، وشوال: كيس، وبازار: السوق، والقشلاق من قشلق أي المشتى، وكل اسم انتهى بخانه أو جي مثل جبخانه أو كرخانة وخسته ودوه جي ويازجي وخانجي، إلخ.

هذا مثال من الألفاظ الدخيلة، أما الفصيح الباقي في الألسن على ما كان العرب يستعملونه فهو كثير، وقد عرض لبعضه قليل من التحريف.

فمن فصيحهم قولهم في زجر الغنم وغيرها من البهائم إذا أبعدت وطردت حايّ حايّ، وحاى حاى، وحاين حاين، ويقال هذا إذا دعيت وأريد قربها ودنوها. وهكذا ينادون على غنمهم ومعيزهم وأبقارهم وحميرهم.

ويقولون أيضاً: هس: لزجر الغنم، وهقط: زجر للفرس، وتخ تخ: زجر للدجاج، وسق سق: زجر للثور، وعاى: لزجر الخروف والغنم، والنخ: قولك للبعير إخ إخ ليبرك نخنخه فتنخنخ. والقرمشة: صوت الخبز المقمر وفي الأصل صوت الجوز، وقرقرت الدجاجة: صوتت، ودن الذباب: صوّت وطَنّ، ونقت الضفدع، والدندنة: أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا تفهمه، يقولون: سمعته يدندن أي ينغم بحيث لا يفهم معناه. فلان ينود ويرفع صوته بالشكوى من ناد ينود: تحرك، ومنه: نودان اليهود في مدارسهم أي تحريك رؤوسهم وأكتافهم في بيت عبادتهم، وعندهم الزياط، واللغط، والخشخشة، والحمحمة: (صوت الفرس دون الصهيل)، والنشنشة: صوت المقلى، والزقزقة، والوقوقة، والقرقرة: الضحك العالي حرفوها فقالوا: كركرة، والبقبقة، والغرغرة، والولولة، والرجرجة، والخرخرة، والوشوشة، والثرثرة، والفأفأة، والتأتأة.

ومن فصيحهم: البحيرات جمع بحيرة: وهي ما انخفض من الأرض. وعندهم أرض تسمى البحرات.

---

(١) أي: ورق العنب.

الزور: الأرض البعيدة من الأرض الزراعية والأجمة ذات الحَلْفاء والقصب والماء، وهم يطلقونها على حرم نهر بردى ويضمون زايها؛ كما يطلقها الحمويون على حرم نهر العاصي.

ومن فصيحهم: (الضيعة)، (القرية)، (الغيضة)، (الروضة)، (المرج)، (الجنينة)، (الحاكورة)، (الحَرَجة) بالتحريك: مجتمع الشجر الملتف ج حرج وحراج، يقولون حرش وأحراش، ومنه حرث الأرض وعمرها، وخربشها، وخرمشها، وقلبها، وكربها، وحفرها، وسحاها، وعزقها، ونبشها، ومهدها.

ويقولون: أنا محادُّه: أي أرضي أو داري في حدود أرضه وداره.

وفلان (زليقي ولزقي وبلزقي أي بجنبي)، ومنه: (القلاع): المدر يقتلع من الأرض يرمي بها.

ومن أمثالهم الفصيحة (نأناً في الأكل) أكل أكلاً ضعيفاً.

البرطمة: غضب مع عبوس، فلان مبرطم: مغيظ.

لزه على العمل: حثه عليه.

دحس الثوب في الوعاء: أدخله؛ يلفظونه بالشين، كما يقولون الفرشخة وهو أن يقعد الإنسان ويفتح ما بين رجليه، يلفظونها بالشين وفصيحها بالسين.

ويقولون (قلّعنا) يا فلان من هنا، من قلعه حوله من موضعه أي هيا بنا ننزل مكاناً آخر.

قب الجرح: إذا يبس وذهب ماؤه.

قيّح الجرح: صار فيه القَيح وهو الصديد.

بط القرحة: شقها.

خنخن في كلامه: إذا تكلم من خياشيمه، فهو أخن ويقولون له: خن.

زنأ البول: احتقن.

قف الشعر: قام من الفزع.

أصن: سكت، فهو مصن.

هبش لعياله: اكتسب.

طمس على مال فلان: استحله، من اطمس على أموالهم: أهلكها، وفلان مطموس القلب: ميته، وعندهم يطلق على الجاهل الذي لا يتعلم.

الفضفضة: سعة الثوب والعيش ويقولون خذ هذه الدراهم تتفضفض بها أي تتسع بها وتقضي حوائجك.

رحرحة الثوب: اتساعه، وثوب مرحرح.

خشت فيه: دخلت، فقولهم خشّ يا فلان عربية الأصل.

فلان متعنفص: متصلف مزهو.

قرط عليه الدراهم: إذا أعطاه منها قليلاً قليلاً أو حرمه.

التجليط: الكذب، من جلط.

نوس المصباح: قلل إضاءته.

ثوب بايخ: متغير، وحديث بايخ لا محصّل له.

الفوج، الجوقة، الغوغاء، الزمرة، اللمة، الأوباش، الشرذمة: كل هذه أسماء معناها واحد، وهو الجمع من الناس، وهي دارجة في اللغة الدارجة.

العزوة: العصبة، العصابة، واعتصبوا: صاروا عصابة.

هو شرواك: مثلك.

أعطني (شوية) أي قليلاً، وفي الفصيح ما بقي من الشاة إلا شواية بقية يسيرة، والشواية بالضم الشيء الصغير من الكبير.

يقولون سقاني نتفة من اللبن: أي شيئاً، وهي ندفة في الفصيح.

يقولون هذه الطابونة: من طبن النار دفنها لئلا تطفأ، وذلك الموضع طابون، والطابون: فرن في الأرض، وكانوا يستعملون الطوابنية للخبازة وقد أهملت اليوم كما أهملت (الشرائحية): باعة شرائح اللحم واستعاضوا عنها بالشوائين أو الشواية، وأهملوا (المقاصف) واستعملوا بدلها القهاوي والمقاهي.

وكذلك (الحلاويون) باعة الحلواء يقولون اليوم الحلوانيون واحدها حلواني، ومن أمثالهم: ما كل من صف الصواني قال أنا حلواني.

ورأينا بعض ألفاظ المآكل وباعتها قد أهملت مثل: الهرائسي بائع الهريسة، والرآس بائع الرؤوس ويقال له: الروّاس وهو لحن، الفقاعي بائع شراب من الحبوب والأثمار وغيرها سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد، وكان يطلق في الشام على باعة نقيع الزبيب[(١)].

واعتاضوا عن الطاهي بالطباخ.

وأهملت ألفاظ كانت تطلق على أمور بطلت مثل سوق العطارين، وكان أصحابها يبيعون فيها العطور، فأطلقت على باعة البزور والسكر والأرز.

والقزازين صناع القزاز وباعته، والبزازين صناع البز أو القماش، والبزوريين باعة البزور، والسكريين باعة السكر، والأمشاطيين باعة الأمشاط، والسدارين والبواردين يطلقونها على من يصنعون الأمشاط ويطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون والدلوك والأُشنان، والبوارد طعام البقول المطبوخة، وكان فيها سوق الدباغين والصباغين والدقاقين والقماحين والناطفانيين (الناطف: نوع من الحلواء) وكان في دمشق لكل من هذه الصناعات سوق خاص، ومنها سوق الحرير وسوق القطن وسوق القشر (قشر القنب).

ومنه سوق المناخليين باعة المناخل وصناعها، وسوق السروجيين صناع السروج، وسوق النحاسين، وسوق الحدادين، وسوق القصاعين باعة القصاع.

---

(١) وهو الذي نقول عنه: سوبيا.

ولا يزال سوق الخيل، وسوق الجمال، وسوق الغنم، وسوق البقر، وسوق الحمير بالطبع، ويقال لمخزن الحطب الشونة وهي مصرية، ويضمون شينها.

وكانت لهم أسواق بحسب أيام الأسبوع: فسوق الجمعة، وسوق الأحد، وسوق الثلاثاء[١]، تباع فيها أصناف المأكول والملبوس.

فمن هذه الألفاظ ما بطل استعماله بإبطال ما كان يطلق عليه، وباختراع ما أغنى عنه وعن اسمه، ولكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر أدبه، فبعض الألفاظ التي راجت في القرن الثالث والرابع نسيت في القرن السابع والثامن، وما راج في هذين القرنين نسي في العاشر وما بعده. فألفاظ عهد المماليك في مصر غير ألفاظ الترك بعدهم، فقد كانوا مثلاً يستعملون كلمة التقليد والتصرف فأبدلوهما بالتولية ثم بالتعيين والنصب والاستخدام، وكانوا يستعملون لفظ القماحين والدقاقين ويقولون اليوم تجار الحبوب والطحانة، وألفاظ مصر زمن المماليك وحدها تحتاج إلى مبحث خاص برأسه. ومن نظر نظراً خفيفاً في كل قطر عربي لا يلبث أن يرى أن ما كان شائعاً في العراق لم يشع في الشام ومصر، وما كان في مصر لا يعرفه الغرب الأقصى ولا الأندلس من قبل.

وفي كتب الحسبة وبعضها إلى الآن لم يطبع، كثير من الألفاظ دونت المعاجم بعضها ولا نستعملها اليوم، نسقط على نموذج منها في كتاب «نشِوار المحاضرة» للمحسن التنوخي[٢]، وفي كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوي منها:

البزيون: ضرب من نسيج البز ومن رقيق الديباج.

المطبق كمحسن: السجن تحت الأرض.

الفامي: بائع الفوم أي الحنطة والحمص وسائر أنواع الحبوب التي تخبز.

---

(١) ما زالت هذه الأسواق إلى اليوم في الحجاز.

(٢) طبع هذا الكتاب.

الزيرباج: أكلة بلحم وحمص وخل وسكر ولوز.

البزماورد: طعام من اللحم والبيض.

العصيدة[١]: دقيق يلت بالسمن ويطبخ.

ومنها المطالب: الكنوز.

الفيج: رسول السلطان... إلخ. وهذه الألفاظ تتطلب درساً خاصاً كما تتطلب مآكل العرب في الجاهلية ومآكلهم في الإسلام دراسات أخرى.

وأطعمة العرب ما تعدت الألبان والتمور واللحوم، وتقل فيها الخضراوات والبقول، وكلها بين مطبوخ وملتوت وملبون ومتمور ومسمون ومعسول.

سادتي:

أوردت مثالاً ضئيلاً من أشغال هذا المجمع الفتي، وذلك بقدر ما يتسع له الوقت، وأرجو ألا أكون أدخلت الملل على نفوسكم. أعاننا المولى على القيام بواجبنا في خدمة لغتنا المحبوبة، وحياكم وأحياكم[٢].

❁ ❁ ❁

حال الكتاب العربي

وذكر الأستاذ كرد علي ـ رحمه الله ـ حال الكتاب عند العرب أوائل القرن الماضي، وللأسف الشديد، إن ما ذكره آنذاك لا يزال ينطبق علينا إلى اليوم، فكان مما قاله:

الكتاب العربي أتعس كتاب في العالم حظاً إذا اعتبرنا ماضي الأمة العربية، فهو كاسد في بلده وكاسد في أرجاء العالم، ينظر إليه بأنه شيء عادي كما ينظر إلى الأدوات التي يستغنى عنها في البيوت.

الكتاب العربي مقصور النفع على فئة قليلة من الأمة، ما كتب له رواج ذات يوم،

---

(١) العصيدة تستخدم في الحجاز اليوم.

(٢) المذكرات: ٤/ ١١٠٥ ـ ١١١٣.

وأصابه قليل من الانتشار مؤخراً، وظهوره بالقياس إلى ظهوره في أمة غربية لا يعد شيئاً، أي أن ما ينفق في كل من سويسرا والبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد والنروج لا يوازي ما تنفقه أمة لا يقل سكانها عن ثمانين مليوناً ومعهم أهل الإسلام والفئة المستنيرة منهم يقرأون العربية أيضاً.

والسبب في هذا التأخر أن أمر الكتب عندنا متروك للطبيعة، لا تروّج له الحكومات ولا الجامعات ولا الشركات على خلاف ما يفعله أهل الغرب ـ ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ـ ومن جملة ترويجهم للكتب أن يحملوا خزائن من الأسفار تطوف القرى وتعير كل طالب ما يستفيد من أسفارها، ومن دولهم من يطبع مقادير عظيمة من الكتب يحفظها في المستودعات ليوزعها على من يطلبها من الأمم الضعيفة، ولا سيما على الممالك التي تهدمت بفعل الحربين الماضيتين، وبذلك أعادوا لبعض خزائن تلك الأقطار رونقها السالف، ومن منا ـ والمال لا يعوزنا ـ ابتاع مقداراً كبيراً من الكتب وجعلها في الخزائن الكبرى، أو أسس لها خزائن جديدة في الأمصار التي هي في أشد العطش للقراءة، وأي حكومة من حكوماتنا وزعت على الطلاب المدنيين والريفيين كتباً يتثقفون بها؟!

وما برح الكتاب بضاعة مهملة لا تتناولها إلا أيد قليلة جداً، ولا يصل صوتها إلى غير الخاصة أو من هم في غنية عنها. كثر المثقفون بثقافة العصر في بعض الأقطار العربية، ولكن كم يبلغ عددهم يا ترى بالقياس إلى السواد الأعظم؟ وكم عدد من يتناول الكتب منهم ويدفع ثمنها طيبة نفسه[١]؟ وكم جمع منهم مجموعة حسنة ينزع إليها آونة الفراغ؟

---

(١) لما تولينا طبع كتبنا في العهد الأخير على حسابنا، أقللنا من الهدايا، ورأينا بعضهم ـ وهم من أرباب السعة والثقافة، وقد يدعون صحبتنا ـ يتطلبون أن نهدي إليهم، وقال بعضهم لمن قيل له ابتع لك نسخة من المذكرات: إني لا مال لدي، أعيروني نسخة وأعيدها إليكم! ومن الغريب أن وراقاً دنيئاً استلف بضع نسخ دون أن يدفع ثمنها وأطلقها للإعارة بأجر، كأن الكتب العلمية =

ولذلك كان الكتاب العربي سيئ الطالع جداً وعلى نسبة رواجه تشهد حال المؤلفين الذين يتوخون بما يكتبون نشر العلوم والآداب لا نشر الروايات والقصص الساقطة والآداب المكشوفة والأدب الرخيص في المجلات التي كادت تقضي على الكتاب بما تحمل للعامة من مغريات تهيج بها الشهوات، وما يعبث أحياناً بالأدب[١].

وقال في موضع آخر: «ثم إن القراء عندنا يسيئون ظنهم بأرباب الصحف ويزعمون أن الصحافة تضلل العقول وتكذب وتختلق وتسير مع أغراضها وأحزابها، ساءت سمعة الصحف فرميت بما رميت به، وكانت الحكومات هي التي جنت عليها، تنفق عليها وتفسدها بالمال لتقوم لها بدعايات ملفقة، ومن أحسن ما تم في عهد الثورة الأخيرة في سورية إلغاء نحو ثمانين صحيفة والاكتفاء بعدد قليل فقط. وبما أبقوا عليه من الصحف المحترمة يرجى أن تتحسن منازع الصحف، وأن تصدق ولا تتحامل ولا تختلق، وأن تحمل للقراء كل ما يفيدهم.

أما الكتب فهي في بلاء لا يشبهه بلاء لإعراض القوم عن تناولها إلا مكرهين، فالكتب المدرسية تؤلف للدارسين ولجيل خاص من الناس، ومهما سمت درجتها لا يتناولها الجمهور، وعلى الجمهور وما يتغذى به من الأفكار المعول الأول. والجمهور عندنا يتغذى كثيراً بالقصص والروايات ومنها ما لا يفيد في دين ولا

= بعض قصص الظاهر وعنترة. وطلب بعض من كان مظهرهم علمياً ولهم مال أن يحسم له شيء من نسخة يقتنيها وإلا فهو يستعيرها من دار الكتب، ويستغني عن الشراء. بهذه العقلية المنحطة نريد أن نكون أمة رشيدة.

(١) قد تحسن حال الكتاب العربي في هذا الزمان، لكن بقي كثير مما ذكره الأستاذ كرد علي على حاله، والعامة ما زالت بمعزل ـ في أكثرها ـ عن الكتب الجيدة.

دنيا، وكتب الدين مقصورة على طبقة بعينها لا تتعداها إلى غيرها، وأكثر رجال الدين يستعيرون الكتب إذا حفزتهم الحاجة إلى مطالعتها، وقل فيهم من يطيل النظر فيها.

بقيت طائفة من الناس تحب كتب الثقافة وهي ضئيلة، لا يعول عليها في نشر الكتب؛ لأن عددها إلى اليوم لا يتجاوز المئات، وإذا وصلت بعض الأسفار إلى أن يطبع منها ألوف فهذه من الكتب التي ألفها أرباب النفوذ أو من يحسنون عرض بضائعهم على القوم بأساليب لهم تفردوا بها. والمؤلفون في هذا الصنف من الكتب الشريفة لا يستطيعون أن يكونوا مؤلفين وتجاراً.

وما برح الوراقون يربحون من الكتب أكثر من المؤلفين.

ومن أجل هذا نقول: إن الكتب والصحف لم تبلغ المبلغ الذي كان يجب لها في الشرق العربي، ولعلها تصل إلى ما يرجى منها من التأثير بعد جيل أو جيلين؛ لأنا أخذنا نكثر من نشر المعارف، ولا سبيل إلى رواج الصحف والكتب بغيرها، ولا بد من قضاء الوقت اللازم لنضج الأعمال وإنارة العقول.

قال أحد سفراء أميركا وهو من هواة الكتب: إن لأرباب الملايين في أميركا خزائن كتب جميلة، والبلد لا يعد مثقفاً ثقافة حقيقية إلا إذا كان فقراؤه يقتنون الكتب»[١].

✽ ✽ ✽

المستشرقون والإسلام:

أشرت في الفصل السابق إلى أثر بعض علماء المشرقيات من أهل الغرب في التقريب بين الشرق والغرب، وكنت كلما مدحتهم أمام جماعتنا، يتأففون من سماع كلامي، لأنهم من الصنف الذي لا يعمل، ولا يحب أن يعترف لأحد بأنه يعمل. وقد

---

(١) المذكرات: ٣/ ٨١٤ ـ ٨١٥.

رأيت أن أنشر هنا مقالتين في هذا الباب كنت نشرتهما في جريدة «البلاغ» المصرية[١] قلت:

بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والإسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد، وما زالوا يبالغون بالعناية فيما يطبعون، ويقربون مناله على الباحثين بما يعارضون عليه الكتب من النسخ، ويُحلونها به من الفهارس، وقد طبعوا من هذا التراث العظيم إلى الآن ما تتألف منه خزانة عظيمة في مختلف العلوم والفنون، ولولا عنايتهم لبقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملة لا ينتفع بها، ولعميت علينا أسرار عظيمة من كنوز مدينتنا.

أما الشرق الإسلامي فلم يشرع بطبع كتبه إلا بعد قرنين من هذا التاريخ. وقلما جُوِّد الطبع، وعُني بالتصحيح والتعليق، ووضع الفهرستات؛ ذلك لأن معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبع والنشر كان قصدهم الربح لا الخدمة العلمية، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين؛ فإنهم يتوخون بطبع كتبنا الفائدة العلمية قبل كل شيء.

كنا على عروبتنا نخلط ونرتكب الفاحش من الأغلاط، وكانوا على عجمتهم يجيدون ويجودون، وما خلونا مع ذلك من دعوى عريضة، وظلوا هم على تواضعهم، يزيدون ما ينشرون تجويداً الحقبة بعد الحقبة. وجمدنا فلم نتقدم إلا قليلاً.

في مصر اليوم أكثر من مائتي مطبعة، وفيها ألوف من الدارسين والعالمين، ومصر تبيع مطبوعاتها من العالم الإسلامي، ومع هذا ما زلنا نتوقع عناية علماء المشرقيات بنشر ما حوت خزائن الشرق والغرب من أسفارنا، ننتظر ما ينشرون، ولا

---

(١) قال الأستاذ كرد علي: راجع بحثنا المطول (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية) في المجلد السابع من مجلة المجمع العلمي العربي.

تحفزنا الهمة إلى تناول ما تناولوا وتقليدهم فيه، وهم الغرباء عن هذا اللسان، والدخلاء على هذه المدنية. ولو قدر فقط لعلماء الأزهر ودار العلوم منذ خمسين سنة أن يختص كل واحد منهم بنشر شيء من مخلفات علماء الإسلام لما بقيت ألوف منها، لو طبعت لغيرت من طرق تفكيرنا، وأجزلت مادتنا من البحث والنظر.

نحن لو رزقنا جانباً من همم المستشرقين ودأبهم ما احمرت وجوهنا خجلاً عند إرادة التنظير بين ما يفعل الغريب بمال غيره، وما يفعل القريب بمجده وتراثه، وفي الحق إن من شهد بروح الإخلاص بما قمنا به في هذه السبيل، وقابله بما تم على أيدي أولئك الأعاجم، لا يسعه إلا أن يبالغ في الثناء على ما بذلوه من خدمة العلوم والآداب، فأحيوا ما كان مدفوناً، وعرفونا بما كان عندنا مجهولاً، فخدمونا بالعَرض، وخدموا العلم بالذات.

أمامي الآن مجموعة من أمهات كتبنا القديمة في الدين والتاريخ واللغة، نشرها مؤخراً ثلاثة من علماء المشرقيات من الألمان. الأول كتاب (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) لأبي الحسن الأشعري جامع مذهب أهل السنة، نشره في مجلدين العلامة ريتر، وهو اليوم ينشر «الوافي بالوفيات» للصفدي. ونشر العلامة برتزل كتاب «التيسير» في القراءات السبع و«المقنع» في رسم مصاحف الأمصار، وكلاهما للدانيّ المتوفى سنة ٤٤٤هـ؛ وقد أتم في مصر طبع كتاب «طبقات القراء» لابن الجزريّ في مجلدين، وكان بدأ بطبعه العلامة برجسترازر، فلما مات أتم ما بدأ به الأستاذ.

ونشر العلامة كرينكو «جمهرة اللغة» لابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهرسته في مجلد ضخم، و«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حَجَر العسقلاني في أربعة مجلدات، وكتاب «التيجان» لوهب بن منبه، و«أخبار عبيد بن شَرْيَة» و «حماسة ابن الشجري» ويطبع ويصحح كتاب «إعراب ثلاثين سورة» لابن خالويه، والمجلدات الثلاثة الأخيرة من «التاريخ المنتظم» لابن الجوزي، وطبع «معجم الشعراء»

للمزرباني و«المؤتلف والمختلف» للآمدي، وكتاب «نحاة البصرة» للسيرافيّ، وكتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني، إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر. وهو يحذق العربية، تعلمها كالفارسية والهندية بدون أستاذ، عدا ما يعرفه من لغات أوربا، فكأن هذا الكامل العامل مجمع علمي برأسه.

هذا مثال من عناية الغربيين بالعلوم الإسلامية[١]، وتفانيهم في نشر أصولها وفروعها، ولو أردنا أن نمثل لذلك بأمثلة أخرى ما عزَّ على الباحث إيجادها، فهل بلغنا مساماة أولئك الجهابذة الأعلام، أو وصلنا إلى نصفهم أو ربعهم؟ ونحن أصحاب البيت زهدنا فيه وبما فيه، فانتقل إلى من حرص على بقائه والانتفاع بما حواه، فنظمه على أحسن نظام وترتيب، ووقاه العوادي والبوائق[٢].

عنيت أمم أوروبا بلغتنا حتى فنلندا والسويد والنروج، وبذلت جهوداً غير قليلة لنشر آدابنا وعلومنا، ونحن متناومون عما نسمع ونرى، كأن الأمر لا يعنينا. ولئن كان لنا بعض العذر في الماضي لتخلفنا في ميدان الثقافة، فما عذرنا اليوم وقد تمثلنا كثيراً من طرائق القوم وأساليبهم، وجاريناهم في كثير من مظاهرهم، ولكننا على ما يظهر لم نحسن تقليدهم في تسلسل أفكارهم ونشاطهم، ورعايتهم للنظام، وولوعهم بالترتيب. وقصارى الرجل منا أن يوسع عليه في الرزق، فإذا نال ما تطمع فيه نفسه فكأنه حاز السعادتين.

قال لي أمس عظيم من عظماء مصر:

«إن الطلبة الذين خرجهم محمد علي في مدارس الغرب قد أنتجوا إنتاجاً نافعاً

---

(١) لا ريب أن الأستاذ كرد علي لم يورد ما كان ينبغي له إيراده من أن أكثر هؤلاء المستشرقين متعصبون وغير منصفين، وأنهم كانوا يسيرون في ركاب دول الاستخراب العالمي ـ في أكثرهم ـ ويأتمرون بأمرها، ويشوهون الحقائق . . . إلخ.

(٢) أي: المهالك.

للعلم، مع أنه ما كان يدرُّ عليهم في اليوم غير ثلاثة قروش، اختارهم من النابهين من طلبة الأزهر إذ ذاك، وأدار شؤونهم وهم في باريز ومصر إدارة عسكرية فأفلحوا وأفادوا، وإن الأزهر لما كان العالم فيه يتبلغ براتب لا يتجاوز في الشهر ثلاث جنيهات أو أربعة أو خمسة كان يفيد المسلمين أكثر من العهد الذي زيدت فيه الرواتب حتى أصبح الأستاذ يتقاضى ثلاثين جنيهاً أو أربعين أو خمسين، وإن المدرّس بهذه التوسعة عليه انصرفت همته إلى رفاهيته، وكانت من قبل مصروفة إلى الإفادة والاستفادة».

في هذا القول كثير من الحق لا يسع المنصف إلا إقراره. وسر هذا الوناء[1] استحكام داء التوظف في الدينيين والدنياويين، سرى إلى من وكل الله إليهم أمر دينه وخدمة شريعته، وكان المأمول أن تبعد بهم مواهبهم الكسبية واللدنية إلى مدى أرفع من المنافسة على المناصب، والطمع في تسلق المراتب، وأن يجعلوا لهم غاية نافعة غير المادة يتوجهون إليها بعقولهم وقلوبهم، وكان بعض الطلبة من العرب اليوم، على استمتاعهم بحرياتهم والتوسعة عليهم في إداراتهم، لا يطمعون في غير إحراز شهاداتهم، حتى إذا حازوها كان التوظف في دواوين الحكومة ومقاصير القضاء أقصى ما تطمع فيه نفوسهم، لاعتقادهم أن الموظف يعيش آمناً مطمئناً في حياته ومماته، فإذا تم لهم ما أرادوا لووا وجوههم عن المقاصد العالية، وما لهم ولها بل ما لها ولهم، وهم قد بلغوا ما تطالوا إليه من رفيع الدرجات.

كلما قلنا لأساتذتنا الدينيين والمدنيين: إن علماء الغرب ممن يخدمون العلم أجلّ خدمة هم من طبقة الفقراء المفلوكين[2]، قالوا: ونحن أيضاً صعاليك مفاليس ليس لنا مال يساعدنا على إتمام أمر، ولا حكومات تعطف على ما تتوفر على إخراجه، ولا جمعيات منظمة تضم شملنا وترعانا، كلام من يقر على نفسه بالعجز

---

(١) أي البطء.

(٢) أي المعدمين.

المطلق، وحِجاج من ماتت فيهم الهمم، فاعتذروا عن كسلهم وتقصيرهم اعتذاراً لا يؤيده الحق. هذا ونهضة الغرب ما قامت لأول عهدها إلا بأيدي أبنائه لا بأيدي حكوماته، وأبناؤه هم الذين أكرهوا ساداتهم وكبراءهم على السير في طريق سعادتهم، فأنشأ الأفراد الصالحون الحكومات الصالحة.

أظننا لم نشهد رجلاً جود شيئاً ولم يظفر بمن يعاونه على تحقيقه. وشهدنا من قعدت بهم الهمة عن إتمام عمل جدي ينتظرون أن تضمن لهم منه الماديات من أول يوم، ومن يعتقد منا أن كل عالم أو أديب أو مخترع أو مكتشف في الغرب ينال كل رعاية منذ اليوم الذي يتكوَّن فيه عمله تكوُّن الجنين في بطن أمه، وأنهم كلهم من أصحاب الألوف وعشرات الألوف؛ فهو مغالط لنفسه ولأمته. فما كل حرفة في الغرب تغني صاحبها، ولولا الغرام بالمعنويات كحسن الذكر والأثر، وعظيم الأجر والفخر، ما قام دين ولا صلحت دنيا. ولولا هذه العوامل ما بهرتنا هذه المدنية الحديثة، وغزتنا بكل ما فيها من قوة وإبداع، ونحن عما يصلح لنا منها غافلون.

لولا تفضيل المعنويات على كل أمر ما قام علماء الإسلام ـ في الدهر الغابر ـ بما عقمت الأيام عن تحقيق عشر معشاره اليوم على أيدي من خلفوهم.

وقرأنا سيرة أئمة المسلمين، فما رأينا الموسع عليه منهم غير أفراد في كل عصر، وأيقنا أن الأصل في جماعتهم الفقر. وهذا لم يمنع العاملين منهم من الضرب بسهم وافر في كل ما عانوه من أدب وعلم.

ليت شعري ماذا أصاب هذه الأمة، وهواؤها هواؤها، وسماؤها سماؤها، وأرضها ما زالت تلك الأرض التي سار على أديمها الآباء والجدود، ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة، والعلماء غير مُقتّر عليهم كما كانوا في سالف الأعصر، يستمتعون بحريتهم، والعبر تأتيهم تترى فيعتذرون عن القصور والاتكال بما لا يقبله المنطق ولا يقره العقل.

ألفنا أن نتوقع كل خير من الحكومات تضمن لنا مقدماته ونتائجه.

ومن هي الحكومات حتى نعتصم بها ونجعلها معقد آمالنا في كل شيء؟ للحكومات فروض غير التي نتطلبها منها، إن هي أحسنت القيام عليها فليس من الإنصاف أن نتقاضاها غيرها. الحكومات لا يتطلب منها غير إحقاق الحق، وإلقاء السلام، وضمان حريات الناس، وما عدا ذلك فهي إن لم تر من مصلحتها التنشيط فلا يسعها التثبيط.

الحكومات منا ولنا، فهل سمعتم بحكومة قام فيها عقلاء من بنيها، وتذرعوا للقيام بمشروع مفيد، فحالت بقوتها دون انبعاثه؟ هل حاربت حكومة أولئك الأفذاذ من رجالنا لما أجمعوا على تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية، وجمعية العروة الوثقى، وبنك مصر، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، ومشروع القرش، وغير ذلك من المشاريع العلمية والاقتصادية والصناعية، أم شهدناها تأخذ بأيدي القائمين عليها، وتفاخر بهم لما أثمرت جهودهم؟!

لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه، وما وقف مشروع قط إلا بضعف في تراكيبه، وخَوَر في عزيمة القائم به، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان غيره، يستصفيه هيناً ليناً، ويتصدر فيه من دون صاحبه إن لم تؤهله له نفسه، والعاقل العاقل يشق أبداً بذاته طريق نجاحه، ولا يعتمد على غير جهده وكده.

انظروا قليلاً في سيرة نوابغ مصر لعهدنا هل ترونهم توقفوا في أول أمرهم على أحد، أم ذللوا بأنفسهم لأنفسهم ما اعترض سبيلهم من العقبات، وراحوا ينسجون بأيديهم أسلاك مجدهم، وينشئون بدأبهم صرح سعادتهم، حتى إذا تمت أدوات الفضل فيهم صفقت لهم أمتهم وهللت، ومضت تمشي وراءهم طائعة مختارة.

قل للعالم الأزهري: إن ما يتطلبه منك دينك ومجتمعك كثير، وعليك وحدك تبعة عملك. وقل للعالم المدني: إن اكتفاءك بأخذ المناصب، وتوقع الترقية في مصالح الحكومة صنيع من سقطت هممهم، وأمتك ترجو منك أكثر مما تقوم به، وقل لمن يتعلمون: لو تعلمتم العلم للعلم، وآمنتم أن العلم يقصد لنفعه ولذته، وقمتم بواجبكم من دون جلبة، لحمل إليكم علمكم شيئاً من الماديات.

وتحدث أيضاً ـ رحمه الله ـ عن عمل المستشرقين حديثاً جيداً فقال:

«ألقيت في دار المعلمين العليا بالقاهرة (يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة في «أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية» عددت فيها ما نشره المستعربون من علماء المشرقيات من الكتب العربية القديمة، وأثنيت على هممهم في إحيائها، وإتقان تصحيحها، والتعليق عليها، ووضع فهارس لها، وتمنيت لو ساهم علماؤنا وأدباؤنا في هذه الخدمة الجليلة؛ لأن الكتب كتبنا، والمدنية مدنيتنا، وصاحب البيت أحق بالعطف عليه وعلى من فيه.

فنهض صديقي العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله عند إتمام كلامي يقول: إن علماء المشرقيات لا يتوخون من خدمة علومنا إلا خدمة أممهم في سياستها ودينها، ويطعنون في الإسلام والعرب بلا حق، والتعصب الديني يعميهم. فتبرم بعض الأساتذة الحاضرين بكلام الأستاذ جاويش، وعدوه خروجاً على الموضوع[1]، لأني أثنيت على المستعربين من الغربيين من حيث أفادوا حضارتنا، ونحن استفدنا منهم بالعرض. وكان ممن شهد المحاضرة الأستاذ علي الشمسي باشا وزير المعارف يومئذ فقال لصديقي الأستاذ سيد كامل: سامح الله الشيخ جاويش على ملاحظاته على هذه المحاضرة التي تجلى فيها البحث ومبلغ تمكن صاحبها من موضوعه، وهو لم يتعرض لمدح المستشرقين في السياسة والدين، وإنما ذكر أفضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتب أسلافنا، أو ما هذا فحواه.

أعجبت وما برحت أعجب بما تم على أيدي علماء المشرقيات في خدمة أدبنا، مع علمي أن جُلتهم يعمل لسياسة لا تنفعنا، وأن منهم قسيسين ودعاة دين، وجواسيس يتخذون من الاستشراق آلة للوصول إلى مآرب أخرى لهم. وأُحب مع هذا

---

(١) بالعكس فكلام الأستاذ جاويش تتميم للموضوع وليس خروجاً عنه أبداً، وكان مهماً للغاية، فجزاه الله خيراً.

ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نطلب ممن لم يتأدبوا أدبنا، ولم تفعل فيهم أحاسيسنا، ولا دانوا ديننا، أن يعتقدوا ما نعتقد، ويكتبوا فينا ما نحب[1]، فلكل جنس تفكيره، ولكل قبيل نزعته، ولكل جيل غرضه. على أن ذلك لا يمنعنا من الحذر من هؤلاء المستشرقين؛ وخاصة ممن كان لبلادهم غايات سياسية في بلادنا[2]».

❁ ❁ ❁

(١) نحن لا نريد أن يكتبوا فينا ما نحب، إنما نريد أن ينصفونا، والإنصاف قليل عندهم، كما هو معلوم.

(٢) «المذكرات»: ٤/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٢.

المبحث التاسع:

الجانب العلمي

كانت أغلب البلاد العربية تعاني من جهل فظيع أوائل القرن الفائت، حتى إن نسبة الأمية في بلاد الشام أيام أواخر دولة العثمانيين بلغت ٩٧٪ على ما قال الأستاذ كرد علي، وهو رقم فظيع، وقد أشار الأستاذ علي الطنطاوي في ذكرياته إلى هذا، وذكر أن الرسالة كانت ترد إلى أحد أحياء دمشق، فتظل تدور على بيوت الحي فلا تجد من يقرأها!! هذا في دمشق فما بالكم بالقرى والبوادي؟!

وكانت البلاد الشامية تعاني من نقص عظيم في عدد المدرسين والمدرسات - على جهل أكثرهم - والمدارس النظامية النافعة تكاد تكون نادرة، والمواد التي تدرس قديمة وأكثرها باللغة التركية، والعلوم النافعة قليلة، فلا غروّ إذاً أن يجد المستخرب الفرنسيّ الطريق مفتوحة أمامه، فالقوم - في أكثرهم - يلفهم الجهل، وتغشاهم الخرافات، وصدم الناس لما دخلت فرنسا سورية بالحضارة التي عند الفرنسيين، كما صدم إخوانهم المصريون قبل قرن ونيف بالفرنسية لما غزوا مصر، وكانت للصدمة الحضارية هذه في مصر والشام أوفى العواقب وأسوأ الآثار على دين المثقفين المسلمين وتصوراتهم العقدية والفكرية والثقافية[1]، ولقد تأثر أيضاً الأستاذ كرد علي تأثراً بيناً بهذه الصدمة الحضارية، ولقد بينت في مواضع من هذه المذكرات ما تأثر به وفندته، هذا عدا عن كثير طويته فلم أر إيراده.

ثم إنه ذكر بوادر نهضة تعليمية في بلاد الشام بعد الحرب العالمية، لكنها نهضة ناقصة لأننا إلى اليوم لم نر ثماراً لها نافعة، ولا آثاراً ثابتة، وما زلنا عالة على البلاد

---

(١) ولولا أن الله تعالى قيض بعض المخلصين ممن درس في الشام ومصر - في الأزهر - من الشاميين لكانت البلاد قد تدهورت إلى أكثر مما بلغته من تدهور بكثير.

الغربية والشرقية في كل أمورنا تقريباً، وإلى الله المشتكى، وإليكم كلامه الذي يوضح بعض الجوانب العلمية آنذاك.

❁ ❁ ❁

حال المعلمين والمعلمات:

قال الأستاذ كردعلي:

لما توليت وزارة المعارف كان من أكبر همي أن أسرح من الخدمة العاجزين الجاهلين من المعلمات والمعلمين، وأن أستعيض عنهم بمن يتخرج في دور المعلمين، أو من أحرزوا الشهادة الثانوية.

وحاولت أن أشرّف صناعة التعليم، وأعرّف القوم أن المعلم مرشد وممدن، يجب احترامه وإكرامه، وإن أهيء الأسباب لترغيب الشبان في هذه الصناعة، وكان الإقبال عليها قليلاً، لأن الحكومة ما قدرت لضعف مواردها أن تجعل رواتب المعلمين على مستوى رواتب غيرهم من الموظفين في الدولة.

كان قسم عظيم من المعلمين والمعلمات قبل تخريجهم في دور المعلمين عبارة عن جهلة وجاهلات، وأكثرهم لا يعرف شيئاً من علم التربية الحديثة، ويعلم على طريقة الكتاتيب التي كانت شائعة في القرن الماضي، ولذلك أخرج من الخدمة سلفي في وزارتي الأولى كلَّ من لم يره صالحاً للتعليم. وجاءني ذات يوم أحد من أخرجهم يشكو ظلامته، ويقول: إنه طرد من عمله بغير حق، فقلت لمن كان معي: إني لن أعيد معلماً أخرجه الوزير السابق؛ لأن الملحوظ فيه أنه يعرف ما ينفع، ومن تلطف وكنس لي الدار فألقى بالقمامة خارجها، فسهل بذلك عملي بعض الشيء؛ حريٌّ بالشكر، وليس من العقل أن أعيد الكناسة إلى محلها السابق، تؤذي السكان، وتلوث المكان.

أما خلفي في الوزارة السيد نصوحي البخاري فقد أعاد إلى سلك التعليم كلَّ من كنت نحيتهم عنه. أراد من ذلك اتباع سياسة الإرضاء، وتجاهل أن الجاهل لا يخرج من بين يديه إلا جاهل. وكان صاحبي مولعاً بالاقتصاد من موازنة المعارف على

ضآلتها، فلا ينفق ما كان عليه أن ينفقه في سنته حتى يستحق وبعض من كانوا معه مكافأة عن الأموال المقتصدة! وهذا اجتهاد لا أرضاه، لأن المنطق يأباه. أما اجتهادي فكان أن أنفق كل ما خصص لي في السنة نفسها، لعلمي أن لوازم المعارف كثيرة جداً، ولو كان ما يظن أنه وفَّر عشرات الألوف ما صعب على الوزير إنفاقه إنفاقاً مثمراً، في دولة حديثة العهد بإنشاء المدارس وينقصها كل شيء. ومن يحاول إرضاء جميع الناس يغضب المصلحة العامة، ومن يمزج الإدارة بالسياسة كمن يمزج السكر بالجبس، أو الكافور بالدبس[1].

❁ ❁ ❁

المدارس في سورية

فيما يلي صورة تقريرين أرسلتهما في أمر المعارف والإدارة إلى رئيس الدولة يومئذ: الأول في طرق الاقتصاد من موازنة الجامعة السورية لفتح مدارس ابتدائية، والثاني في الإصلاح اللازم في جزء عظيم من أجزاء الدولة، وقد اقتصرت في الأول على ما له علاقة بالتعليم عامة.

تعلمون أن إدارة الصحة العامة طالما أنذرت وزارة المعارف بإقفال المدارس غير الصحية، ففي مدرسة في صميم دمشق تضم نحو أربعمئة طالبة وهي لا تسع في الحقيقة مئة، ولم تستطع المعارف أن تستأجر داراً قوراء[2] تؤوي البنات فيها لضيق مخصصاتها، وهكذا الحال في غيرها. وتعلمون أيضاً أن عشرات من القرى أعدت الدور وتكفلت بلوازمها على أن ترسل لها المعارف المعلم أو المعلمة، وإلى اليوم لم نجب الطلب لضيق موازنة المدارس الابتدائية. وأنه لو كان للمعارف أماكن صالحة واسعة لزاد عدد المتعلمين زيادة كبرى، ولم يقف عند حد ٢٦٧٣٦ تلميذاً يدخل في

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) أي واسعة.

ذلك تلاميذ التجهيزيات ودور المعلمين والمعلمات ومدارس الصنائع والمياتم وطلبة لواء الإسكندرونة[1]، في دولة لا يقل نفوسها في الحقيقة عن مليونين. وتعلمون أيضاً أن لواء دير الزور كان فيه أيام الدولة العثمانية نحو أربعين مدرسة، وليس فيه اليوم سوى اثنتي عشرة مدرسة، هذا مع أنه أضيف إلى أملاك الدولة السورية من الشمال نحو ثلث الجزيرة العليا، ونحن نتاخم العراق من جهة وأربع ولايات تركية من أخرى وهي ماردين وسيورك وأورفة وعينتاب، وتُعنى الدولتان المجاورتان كل العناية بالتعليم والتربية.

احتاجت المعارف في السنة الماضية إلى إصلاح مقاعد مدرستها في مركز قضاء الميادين؛ فلم تجد نجاراً في القضاء كله، وبعض الأقضية لا نجار فيها ولا حداد ولا بناء ولا حذاء ولا حائك. وقد بدأت في السنة الماضية بعد أن شهدت هذا التأخر بالذات، فأدخلت زمرة من أبناء لواءي حوران ودير الزور في مدرستي حلب ودمشق الصناعيتين، ولكن الأمة تحتاج من هؤلاء الصناع إلى المئات بل إلى الألوف، ولذلك وجب على الحكومة أن تتوسع في تعليم البسائط من هذه الصناعات؛ التي لا يستغني عنها أهل مجتمع مهما بلغ من انحطاطه.

إن عدة أقضية في الدولة السورية تحوي بضع مئات من القرى والمزارع، وليس فيها سوى مدرستين أو ثلاث. إن من القرى في أرجاء حلب ودمشق ما فيه بضعة ألوف من السكان وليس له مدرسة، وفي غوطة دمشق مثال ظاهر من هذا النقص الذي يتحتم على حكومتكم السنية أن تنظر فيه كله نظراً بليغاً، خصوصاً بعد أن ثبتت قابلية أمتنا ـ بدوها وحضرها ـ للأخذ بأسباب التعلم والتعليم الابتدائي وما بعده إن أمكن، هو الخبز الذي يحتاجه الناس للغذاء. وأمتنا أحوج ما تكون إليه أولاً وفي دولتكم نحو خمسة آلاف قرية ومزرعة، ومنها ما هو كبعض المدن ليس فيها إلى اليوم سوى

---

(١) هو اليوم في تركيا.

٣٤٠ مدرسة ابتدائية ووسطى وعليا، وإذا لم نبدأ بتجهيزها بالجهاز المطلوب فمتى نبدأ؟! وإذا لم نقتصد من الكماليات كيف تتم لنا الحاجيات؟!

هذا ما أراه صالحاً لخير التعليم المنتج، وبهذه الطريقة تصرف الأموال على من جبيت منهم بطرق مشروعة معقولة، ورأيكم العالي الموفق مولاي.

[دمشق في ٢٦ شوال ١٣٤٧ و٦ نيسان ١٩٢٩[١]].

✿ ✿ ✿

حال العلوم في الشام:

وذكر الأستاذ محمد كرد علي حال مدينة دمشق في زمانه ـ وهي حال صعبة؛ إذ المدينة مقفرة من العلوم النافعة ـ فإذا كان هذا حال دمشق فكيف بغيرها من بلدان الإسلام النائية؟ وكيف حال البوادي والقرى؟ وإليكم شيئاً من كلامه:

«أدركتُ مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانوني، ولا صيدلي قانوني، ولا حقوقي قانوني ممن درسوا هذه الفروع على الأصول، وعرفوا صناعتهم معرفة ثاقبة، لعهدي بها وليس فيها حيسوب[٢] لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بدون حساب، أما العلوم الرياضية التي كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن والحديث فقد غدت عندهم أسماء لا مسميات لها، أو من المعارف التي يُستغنى عنها؛ ذلك لأن الأمة لا تحبُّ التقييد، ولا ترغب في التدوين، وهي سائرة على البركة في كل ما يصلحها. حدثني من أثق به أن والده أراد أواخر القرن الماضي أن يفتح كُتّاباً في دمشق، فرأى أنه لا يعرف من الحساب إلا الجمع والطرح والضرب، فقصد عارفاً بالقسمة وعرض عليه أن يعلمه إياها مقابل ألفي قرش، وبعد يومين صرح المعلم لتلميذه الجديد أن في تعليمه القسمة قطعَ رزقه؛ ذلك لأنه إذا كثر سواد العارفين بها في المدينة انصرفت الوجوه عنه!

---

(١) «المذكرات»: ٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥

(٢) أي: مَنْ يحصي المال ويعدّه، بمعنى المتخصص في الحسابات المالية.

أما العلوم الطبيعية فما وقف على بعض حقائقها واحد في العشرة آلاف، ويتلقف أكثر الجمهور من ذلك تخريفات من أفواه العجائز والزنجيات، وما كان العقلاء يجرؤون أن يلفظوا اسم الطبيعة وعلوم الطبيعة؛ لأن البحث فيها مَدْرَجة إلى الكفر عند أشباه الفقهاء، فإذا أراد أحد أرباب النباهة ذكرها أطلق عليها اسم (خواص الأجسام) أو غير ذلك من الأسماء التي لا تكاد تنطبق على حقيقتها، ليبعدوا من ذكر اسم الطبيعة لأن من قال بالطبيعة وتعلم علوم الطبيعة أضاع دينه حتماً...[(١)]».

❁ ❁ ❁

حسنات الأزهر في بلاد الشام

كان للأزهر أياد بيضاء على العالم الإسلامي، ومن أياديه البيض على بلاد الشام ما ذكره الأستاذ كرد علي قائلاً:

«مهما قيل في خلل طريقة التعليم في الأزهر ـ وهو خلل دام إلى الثلث الأول من القرن الرابع عشر من الهجرة ـ فإنه خرج رجالاً خدموا الشريعة، ونشروا اللغة العربية. نشأ في أواخر القرن الماضي عالمان جليلان: شامي وعراقي درسا في الأزهر وأحكما ما درسا، ثم صار كل منهما شيخ رواق الشوام وشيخ رواق البغداديين، فلما ارتويا من العلم رجعا إلى وطنهما يجددان فيه ما عفا من رسوم الشريعة، عنيت العلامة الشيخ عبد القادر القصاب من جبل قلمون في الشام، والعلامة الشيخ حسين العزّي من عرب سقي الفرات، وكلاهما قعد لإقراء الناس في عودته إلى بلده، فخرج الأول وعاظاً وفقهاء، وتخرج بالثاني في العلوم الدينية كثيرون في أرجاء الفرات، ومن أنبغهم اليوم الشيخ سعيد العرفي، وأتم هذا التلميذ ما بدأ به أستاذه من بث روح العلم في أبناء تلك الديار، وكانت بلده دير الزور في جهلها كالبادية، أو أجهل من بادية؛ قبل أن يقوم فيها ذاك الأزهري العظيم. ولولا عمل

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ١٠٧ ـ ١٠٨.

هذين العالمين لاضمحل الإسلام في هذه الأصقاع العظيمة، فانظر إلى فضل جامع الأزهر، واعجب بما بثه ويبثه من الأنوار في القاصية والدانية[(١)]».

✿ ✿ ✿

بدايات النهضة في أوائل القرن الرابع عشر/ العشرين:

ذكر الأستاذ كرد علي كيف تدرجت الشام من جهل مطبق إلى رقي لا بأس به في العلوم والآداب والفنون، فقال:

«أتى القرن الثالث عشر وقد نَفِد من العالم العربي أكثر ما تقوم به حياة الأمم من المعارف، وأصبحت الأفكار في رقود، وأهمل كل ما يرقى بها، وأمست الأقاليم تسير على غير هدى، لا منهاج تعمل به ولا دليل يقتادها. وآلت السياسة إلى أيدي الأعاجم لا يسمحون لرعاياهم أن يتعلموا على حساب أنفسهم ولا على حساب غيرهم؛ لاعتقادهم مضرة النور على العقول، وإن كان هناك تعليم فهو ناقص الجهاز من معظم نواحيه.

دام هذا إلى أن قامت مصر بإنشاء دولة عربية، فسرت منها شعلة ضئيلة من العلوم الحديثة إلى الأقطار المجاورة؛ بفضل ما أنشأه محمد علي من مدارس ومعامل، وما أرسله من بعثات لتخريج الأذكياء بالعلوم، وفي هذه الحقبة كان باي تونس يسير على منهاج والي مصر في التمدين. وبعد سنين توارد دعاة التبشير إلى الساحل الشامي فأنشأوا فيه مدارس، ونشروا مع مذاهبهم مدنياتهم. فصاحب الفضل الأول في نهضة العرب هو محمد علي الكبير، ولو كتب له أن يضم إلى مصر ديار الشام والأقطار المجاورة كجزيرة العرب وبلاد الرافدين لكانت خدمته للمدنية العربية أوسع نطاقاً وأوفر عائدة[(٢)]».

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٨٥٩.

(٢) ما تحدث عنه الأستاذ من أن محمد علي هو صاحب الفضل الأول في نهضة العرب صحيح =

لا جرم أنه كان لمصر ـ حتى على عهد قوة العثمانيين ـ شيء من الحكم أشْبَهُ باستقلال داخلي، وكان أهلها يختلطون كالشاميين بشعوب البحر المتوسط، وبدأوا يحسون منذ أول القرن الماضي أنهم دون شعوب جنوبي أوربا في كثير من مقوّمات الحضارة.

وإلى ذلك كان الأزهر في مصر، وفيه حفظت ثمالة علوم اللسان والدين، أرقى من جامعي الزيتونة والقرويين، ومن بعض مدارس دمشق وحلب والقدس والموصل وبغداد والنجف والحرمين وصنعاء وصعدة.

ومن الأزهر خرج أُناس جسروا على الأخذ عن بعض العلماء الذين رافقوا نابليون يوم وافى مصر فاتحاً، ومن الأزهريين نشأ بعض دعاة التجدد وأركان النهضة المصرية الحديثة. خرج الأذكياء منهم بنور سرى إليهم بعضه من تلك البيئة الضعيفة، فأحسنوا استخدامه ونشره في الجملة. والأزهر في أكثر عصوره كان يخرج أئمة للجوامع ووعاظاً للقرى، أما النوابغ الممتازون فالقرن الواحد قلّ أن يجود برجلين أو ثلاثة. وغاية علم العالم يومئذ أن يجيد حفظ ما روى عن القدماء، لا يزيد عليه ولا ينقص[(١)].

وقال أيضاً:

«لا تشكو بلادنا جدباً في تربتها، ولا ضعفاً في ذكاء أبنائها، وإنما تشكو خللاً في التربية، وقلة إتقان في الأعمال، ونقصاً في استخدام القوى الضائعة، وأن يتعلم أبناؤنا الصدق في القول والعمل، وألا يحتقروا ما يبدو لأعينهم حقيراً لأول وهلة،

= جزئياً، إلا أنه لم يذكر السلبيات الكبيرة التي صاحبت هذه النهضة، وكان محمد علي سبباً مباشراً فيها، ولم يتحدث أيضاً عن مساوئ صنيع باي تونس ـ أي حاكمها ـ وكيف ساق تونس إلى الاستخراب الفرنسي، وكذلك ذكر مآثر التنصير ولم يذكر مساوئه الكثيرة.

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ١٤٤ ـ ١٤٥.

ولا بد من القول أن ما ذكره صحيح، إلا أنه ـ كما سبق في التعليق آنفاً ـ لا يلتفت إلى السلبيات الكبيرة التي صاحبت تلك النهضة الجزئية.

ولا يتكلموا قبل أن يتفكروا، وألا يغتروا بما تعلموا ودرسوا. ونحن إذ نطلب هذا لا نطلب المحال، ولا نتكلم من عالم الخيال. فقد رأينا كيف نهضت الديار الشامية مثلاً في إبانها، وأخذت المقام الأول بعد مصر دون سائر الأقطار العربية، لَمَّا توفرت على إحياء قديم لا بأس به، واعتمدت على سواعد أبنائها أكثر من اعتمادها على الغريب، وما استطاع المهيمنون أن يزحزحوها عن حياض العلم لما صحت نية أبنائها على المضي فيه، وما وفق المسيطرون بعد أن اختاروا طبقة من المتعلمين للإخصاء[1] في الجامعات ليكونوا دعاة لهم، ورجع أكثر من ذهبوا متشبعين بحب قوميتهم، لا يتخذون عن خدمة أُمتهم بديلاً، ولا يفكرون في أن يهجروا أرضهم إلى غيرها حتى قال أحد علمائهم: ما أدري كيف تم ذلك، فنشأ من تخرجوا في جامعاتنا نشأة لا تتفق مع مصلحتنا، وعادوا من أكثر الوجوه بأفكار كنا نود أن يحملوا غيرها مما ينفعنا، ولعلنا أخطأنا في تركنا المجال حراً لهم، فاختاروا الأصلح لأنفسهم لا لسياستنا.

وفي جيل واحد بدأ سنة ١٩٠٨ بنشر الدستور العثماني وقوي بعد سنة ١٩١٨، وقد غادر الترك الشام، وُضعت أُسس التعليم الابتدائي والثانوي والعالي والصناعي والتجاري، وأنشئت دور الآثار والكتب في الحواضر، وخزائن الأسفار في المعاهد العلمية، وتخرج مئات من الأطباء والحقوقيين والمهندسين والماليين والزراعيين والمعلمين والمتأدبين، ومنهم من أتموا علمهم العالي في جامعات الغرب، وأتقنوا بعض لغات العلم، وأحكموا النقل عنها، وأتوا قومهم بما لم يعهدوه من معارف غيرت في كيانهم.

ودخل النظام الحديث على البيوت المالية التجارية والصناعية، وعرف أهل المدن فائدة الشركات فألفوا من أصنافها ما ساعدتهم حالتهم عليه. وكان يندر في

---

(١) أي: للتخصص.

القرويين من يحسن قيد حساباته، فغدا بعضهم يمسكون دفاتر بدخلهم وخرجهم، ويَزْكنون[١] حوالة الأسواق وتصريف حاصلاتهم، وأصبحوا يستكثرون من غرس الأشجار يستجيدون لها أصنافاً لا عهد لأرضهم بها، ويختارون بذوراً وأسمدة وطرق حرث وكرث كلها جديدة، وبذلك كثرت الثروة، كما كثر عدد السكان بانتشار المعارف ومراعاة مبادئ الصحة، وظهرت أمارات الغنى على بعض أهل القرى، فاستجدوا البيوت وتأنقوا في فرشها على نحو ما فعل أهل الحواضر، وانقلبوا يتجملون بالثياب النظيفة، وجاروا أهل المدن بأزيائهم وهندامهم.

ومن أعظم مظاهر هذه النهضة ارتقاء أحاديث العامة، ودخول تحسين كثير على لهجاتهم، وكلامهم اليوم أرقى من كلام بعض الخواص في القرن الماضي، وكتابتهم أرقى من كتابتهم، وقد شاعت الكتابة بالعربية، وكان لا يحسنها غير أفراد قلائل في المدن، كما شاعت معرفة كثير من اللغات الغربية، تعلموها في أسفارهم وأخذوها من المدارس. وما صدر بالعربية من التآليف خلال ربع قرن في الفنون المختلفة برهان جليّ على أن الذكاء كان مدفوناً انكشف لما صقلته التربية الحديثة، ومن ذلك رغبة جميع الطبقات حتى البوادي في تعليم أبنائهم وبناتهم، وكانوا إلى عهد قريب يبعدون بهم عن التعلم لاعتقادهم بأنه يضر بمعتقداتهم ويعبث بآدابهم.

وكان بعضهم في القرن الماضي يحتالون حتى لا يعلموا أبناءهم، وغدوا في هذا القرن يلجأون إلى أنواع الحيل ليعلموا أولادهم على ما يحبون وتقتضيه حالة العصر.

ألف الناس المطالعة بل اشتد غرام المتعلمين بها، وكثر اختلاف القوم إلى الأندية العامة لسماع المحاضرات والخطب مع ما يستمعون إليه كل يوم من أحاديث الإذاعات العربية المنوعة الموضوعات، وأنشئت الجمعيات والشركات المختلفة المقاصد تعلم الفقير واليتيم، وأثبت الشامي كفاءة في أكثر الحرف والصناعات،

---

(١) يتقنون.

وكلما صحت نيته على الجمع بين القديم والحديث تستقيم له أداة تمدن لا تنزع منه مشخصاته، وتقربه من كل ما في مدنية الغرب من حسنات.

مشت الشام على أثر مصر وأخذت العراق بأخرة تحذو حذوهما في تلمس أسباب الترقي، وتخلفت الأقطار العربية الأخرى حاشا تونس عن اللحاق بالأقطار الناهضة، والرجاء مع هذا ألا تمضي أعوام قليلة حتى يشترك كل قطر عربيّ في الأخذ بمذاهب هذا التمدن، ويلحق اللاحق بما سبقه إليه السابق، فيظهر النبوغ في أكمل مظاهره على ما كان في القرون الأولى للإسلام.

استفاد العالم العربي من كل قوة جاءته من الغرب[1]، لأنه كان وما برح كالصلة والعائد بين المعروف من قارات الأرض القديمة، وأثر ذلك في عمران هذه الأقطار تأثيراً حسناً. وكان على نسبة أخذ القطر الواحد بحظ من هذه المقدمات تتبدل طرق حياته ومناهج تفكير بنيه. وما نراه من تنظيم طرق الري وطرق الحديد ورقي الزراعة والقضاء في مصر، وما يظهر من جميل هندسة البناء وتجويد بعض الصناعات والأعمال الزراعية في الشام وتونس، كله من آثار العلم الذي لقفناه وتمثلناه.

إن زراعتنا اليوم غيرها بالأمس، وتجارتنا اليوم غير تجارتنا البارحة، وهكذا قل في صناعتنا وأعمالنا الحرة والاتكاليّة، ونحن ما زلنا نبحث للوصول إلى الكمال، لنستر مواطن النقص، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال، والجهر بالقول أقرب مرحلة إلى بلوغ الأمل من العمل، وخير النهضات كخير الثروات ما قام بأيدي أصحابه، وسار بسير القانون الطبيعيّ، وكل ثورة اجتماعية أو فكرية هي محصول الكتاب والكتّاب، والعقل العربي الذي شاد في القديم قصر غمدان وسد مأرب، وعمر في الإسلام أمويّ دمشق وأقصى البيت المقدس وقصور سامرّاء والفسطاط،

---

(١) لم يذكر الأستاذ أن العرب أخذوا مع مدنية الغرب كثيراً من سيئاته وسلبياته، وفي الوقت نفسه لم يستفيدوا الاستفادة المرجوة من الحضارة المادية الغربية.

وقصرَ الحمراء وجامع قرطبة وسدود بَلَنسية، لا يستحيل عليه يوم يتمثل المدنية الحديثة حق التمثل أن يعمل أكثر مما عمل إن شاء الله»[١].

وقال أيضاً عن مسألة النهضة العلمية، وكيف انتقل العالم العربي من التخلف إلى بدايات النهضة:

«بعد حين ظهر الأطباء والحقوقيون والمهندسون والزراعيون ورجال التربية والتعليم، ونبغ كتاب وشعراء وأدباء وخطباء، وشارك النساء الرجال في هذه النهضة المباركة، فأصبح منهن المؤلفة والمربية على مثال الرجال بمقياس صغير.

وأخذت الحكومة ترسل إلى جامعات فرنسا بعثات من نبهاء الطلاب للتخصص في العلم والأدب ليتولوا التدريس في التعليم العالي والثانوي. وتعاطى بعضهم الأعمال الحرة، وخدم بعضهم الحكومة، ومنهم من تعلموا على نفقتهم الخاصة في فرنسا وفي مصر وغيرها، ولا يقل عدد من تعلموا العلم العالي في جامعات الغرب عن بضع مئات، وهم الذين وضعوا كما وضع بعض أساتذتهم تآليف مدرسية ومصنفات راقية يظهر عليها الإتقان والبحث، وذلك في الحقوق والطب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والتربية والزراعة والمالية والاقتصاد والكيمياء والأدب والقصة.

ونازعت دمشق بيروت في هذا الشأن، وكانت هذه مستأثرة بطبع الكتب ونشر الجرائد والمجلات، فبدأت عاصمة سورية تنافس عاصمة لبنان منافسة ظاهرة، وانفسح لها المجال لذلك خصوصاً بعد أن اتجه التعليم في مدارس لبنان وجهة إفرنجية في العهد الأخير، وضعف الغرام بالعربية وآدابها.

وما صدر من التآليف العلمية في سورية الداخلية منذ عشرين سنة، وما تُلي على منبر المجمع العلمي العربي من محاضرات الأخصائيين، وما حملته مجلة المجمع

---

(١) «أقوالنا وأفعالنا»: ١٥١ ـ ١٥٤.

في ثلاثة وعشرين مجلداً من الأبحاث بأقلام علماء وأدباء شاميين، وما نشر في مجلات الطب والحقوق والزراعة والتربية والأدب من مقالات وتحقيقات ـ عدا ما تنشره للشاميين الصحف المصرية وغيرها ـ برهان جلي على ما نقول. وكان للجمعيات الخيرية والمدنية أثر مهم في التربية ونشر الثقافة، ومنها ما علم اليتامى واليتيمات، ومنها ما علم الكبار، ولا سيما في المدن الأربع ـ دمشق وحلب وحمص وحماة ـ وذلك في مدارس ليلية تعلم فيها عشرات الألوف من الشبان ما خرجوا به عن حد الأمية.

وإنا إذا نظرنا إلى النهضة في سورية والنهضة في لبنان، نجد أثر الغريب في النهضة الأولى أقل من القريب، ونجد العكس في الثانية، أي أنا إذا حللنا النهضتين ـ إذا صحت تسميتهما بهذا الاسم ـ يثبت لنا أن حظ الوطني من نهضة لبنان كان أقل من حظ الأجنبي، وحظ الوطني في سورية ظاهر كل الظهور، ويد الغربي ضئيلة الأثر فيما تم.

ومن الظواهر الغريبة أيضاً أن أكثر من تعلموا العلم العالي في فرنسا وغيرها عادوا إلى وطنهم يدعون للمدنية العربية، أي أنهم تلقفوا من المدنية الغربية ما استعانوا به فقط على بث مدنية أمتهم.

استفادت سورية لأول أمرها من نهضة لبنان، كما تستفيد الآن من نهضة مصر، ونهضة سورية اليوم تشبه النهضة المصرية من وجوه كثيرة، ولسورية من الأوضاع مثل ما لمصر. والجامعة السورية هي الوحيدة من بين جامعات الشرق التي تدرس العلوم العالية بالعربية، وقد وضع لها الأساتذة ألوفاً من الألفاظ العلمية في الكتب التي ألفوها مباشرة أو نقلوها من إحدى اللغات.

وسورية تتناول بكثرة كتب مصر ومجلاتها، وربما عرف الشامي عن مصر أكثر مما يعرف المصري عن بلده.

ومن الظواهر في أخلاق المتعلمين على المناحي الغربية أنهم يُعنون في سورية

بأن تكون أرضهم ميدان عملهم ومجالهم الحيوي، في حين كان أكثر من تعلموا في مدارس لبنان يؤثرون الهجرة إلى الأمريكيتين أو مصر أو السودان، وبمغادرتهم مساقط رؤوسهم، وصرف جهودهم في الأصقاع التي ينزلونها ضعفت قواهم بالطبع عن خدمة بلادهم الأصلية، وقد تطول هجرتهم أو تصبح قطعية في أرض غير عربية، فينشأ أبناؤهم بعيدين عن العروبة.

وفي الحق أنه كان من منافسة الطوائف وجمعيات المبشرين نشر التعليم في لبنان، فقل فيه عدد الأميين، ولا تصل سورية إلى مستوى لبنان في ذلك قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الأعوام. والمأمول أن يزيد العلم في ألفة المتخالفين في مذاهبهم، وأن تضمحل الفوارق من بين أهل الوطن الواحد، ويدرك الخاصة والعامة معاني القومية التي لا تعيش الأمم بغيرها[١]، خصوصاً في قطر كهذا تكثر في المذاهب والنحل، وفيه منها عشرون أو أكثر، فهو فسيفساء أديان بعقيدته، ومجموعة بدائع في طبيعته.

لا جرم أن إصلاح التعليم على اختلاف درجاته قد سهل أخذ العلم على معظم الطبقات، ونظام البكالوريا الجديد أدخل الدراسة في طور عملي نافع، وبالتعليم ارتقت لغة التخاطب والتكاتب، وأصبح ما كان يجهله الدارسون من الشيوخ يتقنه، بل يتمثله صغار الطلبة الذين لم يبلغوا الحلم. وفعلت الثقافة في تحسين الملكات والعادات، وأصبح المتعلمون ـ حتى من اقتصروا على التعليم الابتدائي ـ يميلون إلى التجمل والنظافة وحسن الهندام، ويألفون النظام والترتيب في معظم مرافق حياتهم. وكانت المدن والقرى إلى عهد قريب على حالة ابتدائية من مظاهر المدنية، وبانتشار العلم في بيئات ما كان يظن أنه يسري إليها، حسنت حالة البلاد الأدبية والاقتصادية،

---

(١) قد رأينا من بلايا القومية بعد ذلك على يد عبد الناصر ما زهدنا فيها تماماً، وأنه ليس للبلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة إلا الإسلام، وهو اليوم سيد الساحة في البلاد العربية والإسلامية ـ بعد تخبط طويل في ظلمات القومية ـ ولله الحمد.

ومما أعان في هذا الشأن كثرة التنقل في طلب الرزق في الممالك الأجنبية، وسهولة تناول الكتب والصحف والمجلات، ويسر الاستماع إلى إذاعات المذياع ومحاضرات المحاضرين وخطب الخطباء، والفضل الأول في هذا التبدل للمدرسة.

ولو استطاعت الحكومات أن تبذل في نشر المعارف أكثر مما بذلت، وعاون الأهلون في هذه السبيل معاونة صحيحة، لعم التعليم القرى كما عم المدن، ولأصاب من نعمته البدو كما أصاب الحضر، ولظهرت الأرجاء بالمظهر الذي يليق بعظمتها الطبيعية والتاريخية، فجمعت إلى قديمها حديثاً تغتبط به من كل وجه أمام الغريب والقريب[1] .

❊ ❊ ❊

(١) «المذكرات»: ٣/ ٨٩٤ ـ ٨٩٦ .

المبحث العاشر:

الجانب الاقتصادي

ذكر الأستاذ كُرْد علي ـ رحمه الله تعالى ـ بعض القضايا الاقتصادية، فبين حال بعض التجار الصالحين، وحال آخرين من الظالمين الفاسدين، وذكر أحوال الناس الاقتصادية وضائقتهم المالية، واصطفيت للقراء شيئاً من كلامه الذي يدل بمجموعه على ضعف أحوال الناس، وقلة ذات يدهم، وإفقار المسؤولين لهم، وتعديهم عليهم، فانتشر الفساد، وعظمت الرشوة، وزادت المحسوبيات، وكل ذلك وغيره أمراض لازمة للتردي الاقتصادي المصحوب بالفقر الخلقي والإيماني، والله المستعان، وإليكم بعض ما قاله رحمه الله:

❁ ❁ ❁

مثال صالح على رجل أعمال:

فصل الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله تعالى ـ قصة رجل أعمال صالح كريم يصلح أن يكون قدوة لرجال الأعمال في عصرنا، فقال:

«كان لوالدي صداقة وثيقة العرى مع السيد عبد الغني القُوَّتْلي (جد رئيس جمهورية سورية الحالي) وكثيراً ما سمعته يقول: يا بُنيَّ قد تلد الولادة مثل عبد الغني القُوَّتْلي، ولكن أعظم منه بأخلاقه وكرمه فلا. وكان أبي يعجب من ثباته على عمل الخير، وتفننه في ممارسة ضروبه.

قال: كان يدعو إلى قصره العظيم كل مدة أربعمئة أو خمسمئة فقير يهيئ لهم ألذ المآكل التي تفاخر بها دمشق، ويجهز لهم الحلويات وما يتبعها من صنوف الفاكهة، حتى إذا طعموا خرجوا من الباب، وخدامه قد أعدّوا لكل مدعو قماشاً مع بطانته

يعمل منه ثوباً، ونعلاً يلبسه برجله، وريالاً ينفق منه على عياله، يعمل كل هذا لا يتبجح ولا يتنفج، ولا يقصد إلا وجه ربه.

بلغه مرة أن أحد سماره الذين يختلفون إلى داره قال: إن السيد عبد الغني القوتلي وجد كنزاً في داره، فعمر منه جامع السادات في سوق مدحت باشا، فكتم القوتلي الأمر، حتى جاء شركاؤه من البر فبعث يدعو صاحبه الذي اتهمه بالعثور على الكنز ليتناول طعام العشاء معه، ولما فرغوا من طعامهم استدعى صاحب الدعوة كاتبه وأخذ يحاسب عملاءه حتى نظر في حساب جملة منهم، فكان مجموع ما ربح بواسطتهم خمسة آلاف ليرة عثمانية ـ وهذا المبلغ ضخم جداً في حساب تلك الأيام ـ والتفت إلى المدعو صاحب الكنز وقال له: يا أبا فلان! إن من يربح من تجارته في سنة مثل هذا المبلغ العظيم عدا غلة أملاكه في القرى وريعها في المدينة لا يصعب عليه أن يبني مسجداً بثمانمئة ليرة. وهكذا بَكّته بهذا الأسلوب الرقيق.

وقصصت يوماً على شكري القوتلي قصة رويت لي مرة عن جده العظيم قلت: بلغني أن جدك حمل إليه ذات يوم من قريته اثنا عشر حملاً من الحطب، وكان يطل من غرفته على الشارع، فشاهد أحد الجمالة يقتطع حملين ويسوقهما أمامه، فاتبعه السيد حتى رآه أناخ الجملين أمام بيت في محلة النوفرة، فبصر في الدار فرآها خالية من كل شيء يدل على حياة، فأمسك بيد الجمال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلة أرز وسلة بن، وكل ما يلزم للطعام، وقال له ممازحاً: الآن يلزمك الحطب، أما من قبل فماذا تعمل به؟ مثال من التفنن في الإحسان.

وكان السيد القُوَّتلي لا تنقطع صدقاته بجريها على مئات من أهل الستر ومن ابتلاهم الله بالفقر مما تنوء به خزائن الملوك يومئذ، فكان حقاً ملك الكرم في عصره، ومثال الرجل الصالح، والمسلم الذي تمثل الإسلام حقيقة، دأبه جباية الأموال، ودأبه إنفاقها في وجوه البر وعلى المحاويج والمُعْوِزِين.

وكثيراً ما قلت للسيد شكري حفيده قبل توليه رئاسة الجمهورية: يجب وضع ترجمة حافلة لجدك فإن في سيرته ما ربما يحفز الناس إلى عمل الخير، وليس من العدل أن يقتصر أرباب التراجم على الترجمة للفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء فقط، وما كان أجدر برجال المال والأعمال أن يتدارس الناس سيرهم ليقتدوا بهم، فكان يصرح بأني أعرف عن جده ما لا يعرفه هو، فقلت له: الفضل في هذه المعلومات لوالدي.

وحدثني من أثق بصدقه من قدماء أصحابي أرباب المطابع قال:

إلى اليوم يتحدثون في حينا ـ حي القيمرية ـ بقصة وقعت لتاجر مفلس مع السيد عبد الغني؛ ذلك أن أحد جيرانه من التجار تأخرت أحواله، فعزم أن يبيع داره ويتوسع بثمنها ويستعيد شرفه، فبلغ القوتلي ما صارت إليه حال جاره، فأرسل يدعوه إليه وقال له: انتهى إلي أنك في ضائقة وأنك تريد بيع دارك قال: نعم يا سيدي ضرورة دفعتني إلى ذلك، قال السيد: أنت إذا زهدت في جيرتي فأنا لا أبيع جوارك مهما كلفني الأمر، وهذه صرة من النقود تدبر نفسك بها، وكف عن البيع لأجل خاطري، فذهب صاحبه مجبور الكسر وكان أميناً صادقاً، واشتغل بالتجارة، فاسترجع بعد زمن نعمته، وخفَّ إلى من أسدى إليه هذه اليد، وأولاده هذه العارفة يشكره يعيد إليه المبلغ الذي كان أقرضه إياه إلى أجل غير مسمى. فضحك السيد وقال للتاجر: أنا لا أنزل عن جوارك وأنفق أضعاف أضعاف هذا المبلغ لبقائك جاري، وإن كان لا بد من رده فأرجوك أن تتصدق به على من تحب. وهكذا ظهرت هذه المكارم في المحسن والمحسن إليه على أشرف ما كانت عليه أخلاق المسلمين يوم كانوا مسلمين عاملين بأكثر شروط الإسلام، وما تردوا في بؤرة هذه المادية القذرة. يوم كانوا مسلمين لا بورقة الهوية وتذكرة النفوس وكتب الجغرافيا.

حدثني الأستاذ الشيخ عيد السفرجلاني، مربي ثلاثة أجيال من أبناء دمشق، وقد اشتهر بتقواه وصلاحه، قال: حججت في بعض السنين، واتفق أن كان في الموسم

السيد عبد الغني القوتلي، فلو قلت لك يا سيدي أنه لم يبق في الركب الشامي رجل لم يأكل على مائدة القوتلي، أو أخذ من صدقاته، لكنت صادقاً في قولي، وأعتقد أني لا أقول إلا ما رأيت.

قال: إن فقراء بيت الله الحرام انهالوا عليه بما يضجر منه الحليم، فكان يفضل عليهم مغتبطاً، واتفق ذات صباح أن الشمس كادت تشرق والسيد يسارع إلى المسجد ليصلي الصبح حاضراً، وعلى ظهره عباءة ثمينة، فلقيه الشحاذ، والسيد لا يحمل كيس دراهمه، فما وسعه إلا أن خلع عباءته، ونجا بريشه مجرداً إلا من ثوب رقيق.

وحدثني أبي أن السيد عبد الغني القوتلي قاطع أخاه مراد أفندي، وكان لا يقل عنه بكرمه وحسن أخلاقه؛ لأنه بلغه أن السيد مراد قال للفلاحين في الحديثة: اتركوا مقبرة المرابعين بعد الآن لا تدفنوا فيها موتاكم، وقد خصصتكم بالأرض الفلانية للدفن، فقال السيد عبد الغني لأخيه: ما كفاك بضع مئات من الأفدنة في الحديثة وبالا حتى تعتدي على قبور المسلمين لتقيم عليها حديقة الدار التي تبنيها. وكان مراد وعبد الغني شريكين في الأملاك والتجارة، الأول يتعهد أملاك الغوطة والمرج، والثاني يقوم على التجارة في المدينة.

وربما يسأل أحد الفضوليين: وما معنى هذا الاسم التركي (قوتلي) يطلق على أسرة عربية؟! وقد حل هذا الإشكال لي من أثق به، قال: كان يقال لهذه العائلة بيت النحاس، وكانوا تجاراً كباراً في الثياب، وكان حجاج الأناضول من الأتراك يأتون في طريقهم إلى الحج كل سنة ويبتاعون هذه البضائع، ويقولون عند ما يساومون فيها بالتركية (حاجي قوتلي قماش ايسترز) أي يا حاج نطلب منك قماشاً متيناً (قوتلي). وما زالت هذه الكلمة تتردد بين البائع والمشتري حتى غدت تطلق على بني النحاس، والله أعلم[1]».

---

(١) «المذكرات»: ١/ ٦٩ ـ ٧٢ .

تأثر الاقتصاد في الحرب العالمية الأولى:

كان للحرب العالمية الأولى أثر سيئ في الجانب الاقتصادي، وعاد هذا الأثر على الأخلاق بشيء غير قليل من الفساد، وإليكم ما قاله الأستاذ كرد علي في بيان شيء من هذا الأثر:

"زادت الكارثة العالمية في الفساد، وضعف معدل الأمانة، وأصبحت السرقة والتزوير أموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو إنكاراً صورياً كما كانت أيام السلم. وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات، وعلى كثرة ما ربحوا ما شبعوا ولا ارتووا. وكان المأثور عن جمهرتهم أنهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى. ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صغارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد.

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة، وقد أساؤوا استعمال نفوذهم باتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به، حللوا لأنفسهم ما حظروا على الناس، وذلك تحت حماية رجال الأمن. وكان هؤلاء يشددون الضغط على الفقراء، ويا ويل من ينقل رطل خبز أو مدّ قمح من قرية إلى أخرى، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهربين رسميين، وأكثر ما يهربون المأكولات يجيعون بلداً ليطعموا آخر، ولا تهمهم من ذلك غير ما يدخل صناديقهم، ولا يقيمون للمروءة وزناً في هذا الزمان العصيب، فكيف ينكر على صغار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والأمة. وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه، أما هو فعفَّ عن ذلك مع أنه ربح عشرات الألوف من الليرات من التهريب، واستعان بقوة وظيفته على مقاسمة أناس من المهربين أرباحهم، كان له منها القسم الأعظم. وكان بعض رجال الأمن من يحسنون القيام بأعمالهم ولا يرتشون أيام كان المنتدبون يسيّرونهم، فلما استقلوا بأعمالهم ورفعت عنهم المراقبة ونشبت الحرب نسوا ما تعلموا، فأخذوا

يجورون على الرعية ولاسيما في الأماكن البعيدة عن الأنظار، ولا همَّ للمأمون على الأمن إلا مصادرة الحبوب وتهريب المحظورات، يشترك بذلك مع قادته.

ما أعجب طباع البشر! كنت أعتقد النزاهة في بعض الموظفين وإذا الحرب تنادينا إنهم كانوا كاذبين في دعواهم، يظهرون التورع عن كل ما ليس لهم خوفاً وطمعاً، وهم في الواقع ما عَدَوْا سيرة رؤسائهم، يتمرغون معهم في حمأة اللصوصية، لا يبالون الشرف والنزاهة، ودعواهم على فعلاتهم ارتفاع أسعار المعيشة حتى لقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم، نعم إن مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليه قبل الحرب، ولم تزد الرواتب أكثر من ضعفين أو ثلاثة، فمن الصعب على من لم يكن له مورد آخر غير راتبه، أن يعيش بمشاهرة ضئيلة[١]، وهذا أيضاً ليس فيه مبرر لسلب الرعية وإضاعة حقوقهم. ولولا أن أنشأ الإنكليز في هذه الأقطار مشاريع استلزمت شغل عشرات الألوف من الأيدي العاملة كفتح طرق وإنشاء جسور وإقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات ومآوي وملاجئ لعم الفقر الطبقات النازلة، وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات. وكلما تضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء فزادت الأسعار ارتفاعاً. كان في سورية ولبنان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق النقدي متداولة، فزادت في الحرب ثلاثمائة مليون آخر. وهكذا حال مصر والعراق وبعضهم في الأقطار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يعملون ويربحون. أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته، ولا يتجلى ما تؤول إليه إلا بعد الحرب، وإن رأينا بعض الأملاك والأراضي ترتفع أسعارها إلى ضعفي ما كانت عليه ثم تعود إلى النزول[٢]».

❊ ❊ ❊

(١) أي براتب شهري ضئيل.

(٢) «المذكرات»: ٢/ ٤٧٧-٤٧٨.

المبحث الحادي عشر

الجانب الإداري:

كانت إدارة حال الناس في زمان الأستاذ كرد علي ناقصة من جوانب كثيرة، وتعتريها جملة من المفاسد على رأسها سوء التخطيط والتنظيم، والرشوة المستفحلة في طبقات المسؤولين، ومن دواعي الأسف الشديد أن الأمة إلى الآن لم تع هذا الأمر، واستمرت في تخبطها الإداري وفساد تخطيطها وتنظيمها إلى يوم الناس هذا، وزادت الرشوة وتأصلت، وصارت فناً وعلماً يدرس ويورث!! والتاريخ عندنا يعيد نفسه، ولا نستفيد حق الفائدة من الدروس الكثيرة المنبثة فيه، وإليكم شيئاً من كلامه الصعب على النفوس، لكنه كان أمراً واقعاً وسبيلنا الاستفادة منه والاتعاظ والاعتبار:

❁ ❁ ❁

ارتشاء بعض المسؤولين:

حكى الأستاذ كرد علي ـ رحمه الله ـ أخباراً عجيبة ـ على طولها ـ تبين فساد ذمة أحد المسؤولين، وكيف كان يقبل الرشوة، بل كيف كان يخترع السبل لها، فقال:

«شاء ربك أن ينشأ (ي. ر.) من بيت يحب ربه أن يُهدي إليه. وكان قاضياً، ورجائي أن يكون من قضاة الجنة لا من قضاة النار. فنشأ ابنه على حب الإهداء والاستهداء، ونسي بعد حين عادة الإهداء وأتقن عمل الاستهداء. وأهدى صاحباً، أول نشأته، صندوقاً من التفاح، وادعى أنه من حديقة بيته وهو لا يملك يومئذٍ داراً ولا عقاراً ولا مزرعة، ليوهم مهديه أنه لم يكن استهداء، بل هو من ماله وصلب حاله، فأجابه صديقه بالشكر جواباً داعبه فيه، فأظهر أنه ما أحب منه هذه الدعابة،

وحلف ألا يهدي غيره بعدها شيئاً. اتخذ من مداعبته بما أغضبه حجة لينقطع عن الإهداء طول العمر. وخلاصة ما كتب له صديقه: «إني أردت أن أقابلك على هديتك، كما جرت عادة الناس، وتطلعت ذات اليمين وذات الشمال في الأرض التي أورثنيها أبي، فلم أرَ غير صنفين من الحاصلات: التبن والشعير، وهما أجدر بالتقديم إلى البغال والحمير، وشجيرة القنب، وهو لا يستخدم في غير الشنق والحرق، فإن كنت ترغب في استهداء شيء منها فأنا على أتم الاستعداد لأرسل المقدار الذي يلزمك عن طيبة خاطر».

ودار الفلك دورته، وعُمِّلَ هذا المهدي على بعض بلاد الجزيرة[1]، فعرف أهلها، أو عرّفهم هو بنفسه أنه يحب الاستهداء، فأهدوه حتى كادت تستنزف هداياه وُجْدُهم، فما هي إلا أشهر معدودة حتى صدر الأمر بنقله إلى عمالة أخرى بعيدة، أرادت الدولة بهذا النقل ألا يفوت سائر عمالاتها عدله وإصلاحه، لأنه كان حيث ينزل لا يفكر في الاستهداء بقدر ما يفكر في نشر العلم، وفتح المدارس، وعمارة الطرق، وإبطال الرشوة، وإمتاع الفلاح بحقوقه!!، ولما آذنت ساعة الرحيل كتب إلى صديق له أن أهل تلك العمالة ـ التي قضى بين أهلها أياماً عدها من أمتع أيامه، لأنه ما خلا فيها يوماً من استهداء شيء. هم فقراء بالنقد أغنياء بالماشية، إذا أحبوا أن يهدوا المولَّى عليهم هدية يهدونه مما حوت إسطبلاتهم وحظائرهم: بقراً، حميراً، خيلاً، بغالاً، خرافاً، تيوساً، معيزاً، دجاجاً، طيوراً، إلى ما شاكل ذلك من الحيوانات والدواجن. وأنه اجتمع له من هذه الأصناف قطعان يتعذر عليه نقلها إلى مقره الجديد، وليس يرى في ناحيته من يشتريها، ويدفع له ولو ثمناً زهيداً فيها، ولا تسمح نفسه بإرجاعها إلى أهلها، وسأل صاحبه أن يمنَّ عليه برأي يخرجه من ورطته، لينتفع بما كسبه من المال الحلال!.

وعين الله ترعى هذا الفاضل الكامل الذي فاق كل مستهدٍ أو مرتش على اختلاف

---

(١) الجزيرة الشامية.

في الأسماء، ولشدَّ ما صرف وكده، وبذل ما أوتيه من ذكاء ودهاء في اختراع طرق توصله إلى غرضه. وكانت له مزية لا تنكر عليه وربما عدها بعض أترابه ضعفاً ودناءة، وما هي إلا تفضل وتساهل. ذلك أنه ما كان يحب أن يشق على المهدي، فإن كانت المسألة تحتمل عشر ليرات قنع منه بخمس، وإن كانت تساوي خمساً رضي منه بنصفها، لاعتقاده ـ وهو من دارسي الاقتصاد السياسي ـ بأن الربح القليل من الكثير أعود على فاعله من الربح الكثير من القليل.

حقيقة أن خطْب الرجل سهل ونفسه متواضعة: كان مرة محافظاً في إحدى العواصم فوضع جُعلاً مقرراً على كل من له علاقة به، ليحمل إليه ولو إناء من لبن رائب وعشرين رغيفاً من الرقاق، وطبقاً من الزبد أو القشدة، وما شاكل ذلك من المأكول الذي يجود عندهم، ويخرج من أرضهم، أو تعمله أيديهم. يأتي هذا ليجعل للخبز والملح بينه وبين من يدير شؤونهم حقوقاً وواجبات، فانظر بالله ما أطيب هذه النفس!

وكان إذا زاد ما يصرفه من هذه الأصناف من طعامه يبيع الفضل ويجعله نقداً في صندوقه، وقاعدته أن الساقية الجارية خير من النهر المقطوع، وأنه إذا اقتصر على الأخذ من المسائل الكبرى يفوته جُعْل المسائل الصغرى والعدل يتقاضاه وهو من أكبر الغُير عليه، أن يساوي بين الجميع في القضاء والاقتضاء. ولولا أن الله حبب إليه المقامرة في بعض الليالي، وكان يخسر في أكثر ألعابه، لخلف ثروة عظيمة لا يخلف نصفها عشرة من أقرانه مجتمعين. هذا مع كل هذه القناعة في الأخذ، والضنانة في العطاء!.

وارتقى هذا البطل المغوار، وعين الله عليه، بهذه الصفات النادرة، وأصبح له من السلطان ما يستطيع معه أن يضر وينفع في الأمور الكلية، فأغلى الجعالة والهدية، ورفع ثمن كل قضية. واستنجد به أناس من المشتغلين بالدفاع عن حقوق الناس، كانوا أقصوا بدعوى سوء حالهم وجهلهم، فأخذته الشفقة عليهم أكثر مما أشفق على

حقوق هذه الأمة، لأن المجموع في نظره أغنى من الفرد، فهم لذلك أحق بالرعاية، فعلمهم ساعة من علمه اللدني، وأفاض عليهم من أدبه الكسبي، وأرجعهم على بركة الله إلى ما كانوا عليه، وما أخذ من أفرادهم ما يشق عليهم أداؤه، بل كان مجموعه حسناً بلغ ثمانمائة دينار، ثم إنه أخذه على أن يؤديه ـ كما قال ـ إلى رئيسه يتقاسمانه، وكان هو واسطة خير ليس غير، ورضي أن يخدمهم لوجه الله لأنه كان دائماً يقصد بمثل هذه الخدم وجه الله! وقد تناول ما تناول وقلبه مطمئن بالإيمان، ونفسه تحدثه، والله أعلم بالسرائر، بأن ما أتاه كان رحمة بهم وبالقضاء، وفي عمله إحقاق للحق ونصرة للعدل.

ومن عجب أمر هذا الرجل المولع بالاستهداء أنه نوّعَ الأساليب في أخذها، وما ترك فرصة تفلت من بين يديه، وكل ما يساوم عليه تكون عقباه الانتفاع بشيء يأخذه على سبيل الذكرى لتواضعه، ومن تواضعه أنه لا يجوز كسر خاطر أحد يقدم إليه شيئاً مهما قلَّ، فأعجب لهذه النفس الترابية التي لا تعرف الزهو والكبرياء.

وهو إلى هذا يجب أن يظهر بالعلم، وأن يشتهر بالأدب، وليس أشق عليه من رؤية أحد يتفرد دونه بشهرة، أو تكتب له مكانة في أندية العلماء، ويرى أن تفوقه في هذا الباب لا يكون إلا بإسقاط أرباب هذا الشأن ليخلو له الجو، ويستأثر بالصيت الحميد دونهم. وكان يسره ألا يذكر أحد بمحمدة، ويدعو إلى الاعتدال في تقريظ الممدوحين، حتى يكون الناس كأسنان المشط في الاستواء. وهو إذا كان يحب الاقتصاد حتى من أموال مهديه، فكيف لا يحب الاقتصاد في مدح من يعدهم منافسيه.

وما أدري أين تعلم مكارم الأخلاق: أفي مجالس الذكر عند إخوانه أهل طريقته الدينية؟ أم مع إخوانه في الماسونية الذين ارتقى إلى أعلى درجات رتبهم، وبرّز أيَّ تبريز في محافلهم؟ ومن مزاياه أن كل مفعول جائز، وأن للمرء أن يعمل كل ما يريد، لا يصده عن سبيله صاحب قوة، ولا مصطلح من عادة وخلق، وأنه إذا جاز سرقة مال

الغير فمن أيسر الأشياء أن يسرق أفكار الغير، ويغير على ألقابه فينتحلها غير خجل ولا وجل.

وعلى كثرة معرفته نسي أن المرء لا يأخذ أكثر من جرمه، وأن من واجب العاقل أن يقف حيث وضعته الفطرة، وأن من نجح في ناحية يستحيل عليه أن ينجح في جميع النواحي، وأنه إذا تعلم فرعاً من فروع المعارف البشرية، بطول الزمن وكثرة التمرين، يتعذر عليه أن يتعلم مثلاً علم الأخلاق ويعلمه، وصياد الدينار غير صياد العلم، وحب الدنيا لا يجتمع في قلب امرئ مع حب الآخرة، ومن الصعب الجمع بين طرفين متباعدين، والاحتيال على سلب الناس ثم النفاق عليهم بالأخلاق الفاضلة.

مسكينة هذه الأمة بليتها بالجهلاء كبليتها بالمتعلمين، ومصيبتها بالمعممين «المتجببين» كمصيبتها «بالمطربشين» «المتبنطلين». وربما كانت البلية بالمتعلمين أفظع لأن المتعلم يعرف كيف يضر ويؤذي، وكيف يهدي ويستهدي، وكم في الخلائق من إذا تأملت فيهم من يعجبك ظاهر حالهم، وإذا خبرتهم تَلْقمس[1] نفسك، تراهم على حسن سمت وجميل وقار، وتستمع من أفواههم ألفاظ المروءة والشرف والصون، فإذا فحصت نفسيتهم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وتكرم بعض المعلمين والمديرين فعاملوني كما عاملوا أكثر أسلافي وأخلافي بالهدايا يقدمونها، وكنت أردها إليهم ناصحاً لهم ألا يعودوا إلى إتيان ما لا يليق صدوره من طبقتهم، ومنهم من كنت أدفع أجرة عن هديته حتى أعيدها إليه. ومن أجمل ما رأيت من ضروب الإهداء هدية أحد التجار، زار المجمع العلمي العربي وأعطاه إعانة دفعتها للآذنين يشترون بها بذلاً صيفية، وما جاء الشتاء حتى رأيته يرسل إليَّ صندوقاً من سمك بحيرة الريحانية، وكان هو ضامناً لها، فرأيت بعد التردد الكثير

(١) أي تنقبض.

قبولها والمقابلة عليها، وماذا أرسل بدلها، وليس عندي تفاح ولا دراق، فقام في نفسي أن أهديه بدل هذه الألطاف كتباً ورسائل، وأحببت أن تكون من الجنس الذي يتيسر له الاستفادة منه، ويتسلى به آونة فراعه. وكانت هدية السمك تتكرر مرتين أو ثلاث مرات في كل شتاء، ودام الضمان ثلاث سنين، فكنت في المرات الأخيرة في حرج من قلة الظفر بكتب تروق صاحبي وتنفعه، وخفت أن تنفذ من حوانيت الوراقين في مصر والشام. ولما انتهت مدة الضمان هنأته وهنأت نفسي، وحمدت الله على النجاة من هدايا السمك اللذيذ، وإرسال كتب تلذ مطالعتها في مقابلها. وسألت صاحبي إذا كان ربح من الأسماك فقال: إنه خسر، وعين مقدار الخسارة، فقلت له: أصلحك الله. وقع العجز في ريع ضمانك لكثرة ما أهديت من هذا السمك الذي تلذذ به عشرات من أصحابك، أتقنت فن الإهداء، ولم تتعلم كصاحبي ذاك فن الاستهداء، فكان شأنك ما رأيت.

إن كان يقلُّ في الأمم المصلحون فإن في أمتنا يكثر المفسدون، وإذا كانت هناك اختراعات تنفع الأمم وتنشل الدول، فإن هنا اختراعات تضر بالجماعة وتدك معالم الممالك. وما عهدنا عندنا مخترعاً اخترع ما ينفع، ولدينا عشرات يخترعون في الشر فقط، يفسدون ولا يصلحون.

وهذا الرجل طلب صداقتي وأنا لا أعرفه (ي. ر) وخدمني على العهد التركي خدمة أنقذني بها من معضلة، وبت أرقب الأيام لأكافئه على جميله، وسعيت لما حانت الفرصة بإسناد منصب كبير إليه، تولاه وهو لا يصدق أنه يبلغه. وكان غاية ما عرفت عنه يومئذٍ أنه يحسن عمله، ولا يأتي ولا يؤاخذ عليه، متوسط الذكاء، وفي طبقة الموظفين كثيرون مثله.

*وما تربع في الدَّسْت[1] حتى حدثته نفسه أن السعادة أقبلت، وأن من لا يغنم

(١) أي المنصب.

الفرص يضيع الحزم، فشمر عن ساعد الجد، إلى أقصى حد، ورجع إلى فطرته، فأظهر ما كان يكتمه من مذهبه، وتجلت فيه عادة الاستهداء، فأخذ بالكبير والصغير، فكان له فيه اختراعات ومكتشفات، واطرح كلمة خذ، وأتقن كلمة هات. وساعده ديوانه أن كان متشعب الجنبات، كثير الأموال، جم الصادرات والواردات، وكونه عارفاً بصناعته تخرج فيها من البزرة كما يقول الترك، وأتقنها قبل أن يبلغ الحلم بحكم الضرورة. وعرف بمرور السنين مداخلها ومخارجها، كما عرف أهلها كبيرهم وصغيرهم. أما معلوماته فما زادت عن معلومات المدرسة الابتدائية، وكان يصطنع الرزانة ويتعمد الوقار، ويسكت في المجالس، ويبسم كأنه يفهم ما يلقى فيها، وهو بعض منسياته، على حين لا يمتاز عن العامة بمعلوماته، إلا أنه يتقن عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة.

وزعمت لك أنه أتقن فن الاستهداء، وله فيه مخترعات ومبتدعات، أما الإهداء فما عرفه، اللهم إلا ما كان من ورائه رد عادية غريب عنه، أو الاستشفاع إلى رجل له يد باسطة في تأخير أموره وتقديمها، أو له سيطرة عليه من بعيد أو قريب، وأحبَّ أن يقوى في ذاته فلم ير خيراً من الاعتصام بجمعية سرية[1]. فاتخذها مجناً يتترس وراءه، فيدرأ به عن نفسه العوادي، وأخلص في خدمتها حتى وصل إلى أرقى درجاتها، ونال أعظم مراتبها وأوسمتها، واقترح يوماً على صاحبه أن يدخل في جمعيته فتوسد إليه الوزارة بعد أربعة أيام، فقال له: إنه ما تولى منصباً باستظهاره بجمعية ولا بجماعة، وأولى له ثم أولى ألا يكون شيئاً من أن يدخل في شيء لا يريده للوصول إلى شيء قد يريده وقد لا يريده. وأحب أيضاً ألا يخليه من معاونته فتوسط له بإعطائه مبلغاً من المال باسم صحيفة له يشرف عليها، والمترجم له لا يحسن الإهداء إلا إذا كان من مال غيره، وفي سبيل تلويث سمعة من لم يتلوّثوا، من باب ودت الزانية لو كان كل النساء زانيات.

---

(١) هي الماسونية.

وأزيدك أن الرجل ما عرف معنى للصداقة طول عمره، ولا عطف على بائس عائل، ذلك لأن قلبه ما أحب إلا معبوداً واحداً هو المال.

ومن قواعده أن ما دخل عليه من النقد لا يخرج من صندوقه إلا إلى المصارف والمخابئ في داره، ويرى أنه لا يناسب منزلته أن يبتاع شيئاً من السوق، فيأتيه بكل ما يحتاج إليه أولئك الذين قضت الأقدار عليهم أن يصبحوا تحت يده، يصرّفهم ويتصرف بأمورهم.

ومن اختراعاته في الاستهداء أنه إذا جاء لاستلام منصب جديد يرسل منشوراً إلى من هم تحت إشرافه من العمال في الأرجاء يقول فيه: إن بيته يحتاج في سنته إلى ست صفائح من السمن، ويرجو أن ترسل إليه مصحوبة بقائمة ثمنها: فيأتيه السمن هدية من كل مكان، حتى تغص داره بما ضمت من الصفائح، وتمسي بسمنها أغنى مما يملك منه تاجر كبير.

هذا إلى ما يطلبه من كل مأمور من الحاجات الأخرى، وهو على رأس كل سنة وفي الأيام الأولى من كل موسم يجدد طلب السمن، ويطلب الصفائح منه، ومرؤوسوه يبيضون صحائفهم معه بأن يدرّوا عليه كل ما يطلب وما لا يطلب من حنطة وخراف وأوز ودجاج وطيور وأسماك وزيت وعسل وبيض وفاكهة وبقول. فإن فاض ما عنده منه عن حاجته، وحاجته منه قليلة جداً، اتجر بما اختزنه، ولا يعرضه في السوق على أيدي سماسرة بررة إلا عند ارتفاع الأسعار، والخوف على الفقير من الجوع. فيبيعه نكاية بالخائفين من التجار والمضاربين.

رأيت بهذا أنه وضع جُعلاً على كل واحد له به شبه اتصال، ومهر في استخراج الهدايا وتطبيق أساليب الاستهداء مهارة زائدة، وهو أبداً يجد ولا يتوانى في الاستخراج، والجد ينبض الماء من الحجارة. والكتمان منه وممن يعطيه أصل النجاح في هذا الباب، وكل سر جاوز الاثنين شاع.

وله مع من كانت يده كزّة[1] لا تندي بشيء أسلوب منتج للإهداء: يبدأ بتهديده تهديداً خفيفاً، كأن يقول: إنه مقصر في عمله، أو أن المستشار تكررت على مسامعه الشكوى من تقصيره، وقلة معرفته، وجهله بوظيفته، وأنه حاول هو رد هذه الشكاوى، وهو يجهد ليقيه العزل أو النقل، فيهرول المهدد البائس من ساعته ويدفع له هدية من الورق أو الوَرِق[2] أو من تلك الأصناف التي تمون بيت صاحبه طول السنة، فيستغرق ما يعطيه إياه راتبه أشهراً، ويضطر المسكين إلى الرجوع على أرباب المصالح ليسد عجز ميزانيته الخاصة، بما حوته جيوبهم، وغرّمه إياه رئيسه الجليل.

وصاحبي هذا يؤمن بالله واليوم الآخر، ويمارس من أركان الإسلام ما لا يكلفه مالاً، يصلي ويصوم، أما الزكاة والحج فلا، ويعتقد أن هذا بنعيم الآخرة، إلا أنه يفضل عليه نعيم الدنيا. ولدوام هذا النعيم تراه يضن بالدانق لا يبذره كيف اتفق. وما وصل إلى سمعي أنه دعا أحداً إلى طعامه، ويفضل أبداً أن يتناول من طعام غيره، وكيف يعمل حتى تتكرر له المآدب، ولا ينقطع سندها عنه ولو في الأسبوع مرة أو مرتين؟ ولبلوغ ذلك هداه ذكاؤه إلى اختراع كان من جملة ما سُجل من اختراعاته. ولما كان يستطيب طعام الناس أكثر من طعام بيته رأى أن يعوّد مرؤوسيه الكرم فأنشأ يدربهم عليه، ويستطعمهم بأن يقول لأحدهم: إن أهل بيتك يا هذا يجيدون طهي الصنف الفلاني. ومن الغد يطبخ له فيدعى إليه أو يحمل إلى داره مع أطباق أخرى لذيذة يقدّرون أنه يستطيبها. ويقول لآخر: بلغني أن الصنف الفلاني من الطعام يحسن حريمك تحضيره، وأنت يا فلان ممن كان الحجاب بينه وبينه مكشوفاً بعض الشيء - متى تدعونا إلى دارك ثانية، فقد طال العهد بآخر أكلة أصبناها من طعامك الشهي.

ومنهم من يكلفهم أن يخرجوا به إلى الحدائق والمنتزهات أيام العطلة مع ثلة ممن اعتاد قبول دعوتهم، فيجشم الداعي نفقات تدخل الضيم على وفره، إلى غير ذلك من ضروب التطفيل والتدجيل.

---

(١) أي بخيلاً.

(٢) أي الفضة.

اللصوص يسرقون على الأكثر في الليل من يحاولون سرقته، وهذا يسرق ليله ونهاره، وقريحته لا تفتأ تملي عليه اختراعات في هذا الباب. وهو لا يبالي بما يقول فيه مستخدموه في سرهم من التغالي في هذه الدناءات ويلعنونه في قلوبهم.

وما انتهت مهمة هذا العامل الجهبذ حتى كان قد استرهن من العقارات والمجوهرات الشيء الكثير، ووظف أمواله في أعمال رابحة، وكثرت صفقاته المالية حتى كادت تعادل بتنوعها وتفرعها أعمال مصرف من مصارف الرهونات.

وفي خزانته الخاصة من الأحجار الكريمة المرهونة التي يصعب فك رهنها ما لا تجد له مثيلاً إلا في قصور الملوك، اغتنم شدة عَوَز الناس فاستثمر أمواله بالربا الفاحش، واحتال على الذهاب بالأصل المرتهن، وهو كلما زاد الراهن عجزاً عن الداء في الميعاد أقدم على ضبط عقاره وحُليه.

وسألت بعض العارفين عمن أخذ هذا المحتال دروسه الأولى فقال: إنه أخذ عن أستاذ له كان أعظم لصوص عصره ومصره، كان هذا قابضاً سنين طويلة بيد من حديد على إدارة فيها كل أسباب الاستهداء وأخذ الأموال، وكان مخترعاً أيضاً إلا أن اختراعاته محدودة يجتزئ بضروب قليلة منها، يتربح بها كثيراً، وما وفق لما طلب إلا بمشاركته لرؤسائه في المغانم، وتهيئته لهم كل ما فيه مباهج حياتهم. وبينا كان الموظفون لا يتناولون في الدور الحميدي رواتبهم القليلة بصورة مطردة، وبينما كان أرامل المتقاعدين ويتاماهم لا يأخذون ما يتبلغون به، كانت تسول له نفسه أن يقتطع من رواتبهم مقداراً معيناً يعرفه الصيارف، وإذا كان في نساء المتقاعدين ذات الجمال يشفع لها حسنها فيعف عن راتبها ولا يعف عن عرضها. ومات وخلف ثروة كبيرة ما جمع مثلها أعظم الخائنين، وقد أنفق في حياته وأسرف في إنفاقه، وعاش عيش الملوك، وارتكب كل محرم، واحتقب كل إثم.

هذا الأستاذ البارع خلف ذاك التلميذ الأبرع، وما مات من خلَّف، وكلاهما لم يترك ذكوراً يذكرونه بالرحمة، وخلف مئات ممن سلبهم نعمتهم يجأرون إلى السماء -

في كل صباح ومساء ـ ألا يبارك الله له فيما أخذ واقتطع، وأكل وبلع. وكانت عاقبة الأول تبديد كل ما جمع، وستكون مثلها عاقبة الثاني إن شاء الله[١].

❁ ❁ ❁

ضعف العزيمة والتردد في اتخاذ القرار

ذكر الأستاذ كرد علي ضعف إدارة الملك فيصل بن الحسين يوم كان ملكاً على الشام، وأن من أسباب ضعف إدارته تردده وضعف عزيمته، وهذه سَوْءة إدارية كبيرة، فكان مما قاله:

«من أسباب زوال ملك فيصل من الشام ضعف إرادته، ومن ضعف إرادته أنه كان من أسرع ما يكون إلى نقض القانون فيعفو في الحال عمن التمس منه الصفح عنه، ولو كانت المادة مادة قتل والمسامحة بها تضر بمصالح الدولة، وكان كثيراً ما يعمد إلى سياسة الإرضاء، فقد نصب الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين رئيساً على العلماء في دمشق ولما تتجاوز سنه يومئذٍ الحادية والعشرين.

وكان المتكلم الأخير مع فيصل هو الذي يقبل رأيه ويعوّل على كلامه مهما بلغ من سخف وضعف.

وقد صحبه صديقي الأستاذ فائز بك الغصين ـ وهو من أذكياء العرب، كان أبوه زعل الغصين من رؤساء اللجاة ـ في رحلته إلى باريز فلم يلبث أن رجع، فسألته عن سبب دعوته قبل إتمام أعمال الأمير فقال: إن الأمير يصعب العمل معه، فهو أُذن يستمع لكل من يأتيه بخبر، تراه أبداً متقلقل الرأي، ضعيف العزيمة، وحقيقة ما قاله ابن الغصين، فإن الأمير لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين، ما وقعت وقعة ميسلون، ولا دخل المنتدبون أرضنا بالقوة، ومع هذا فقد كان من أفضل أولاد الحسين، أسمع صوت العرب في الغرب، وعرَّف السياسيين بأن للشعوب العربية

---

(١) المذكرات: ١/ ١٧٤-١٨٣ .

مطالب يثورون من أجل تحقيقها، وأنهم أمة ذات ماض مجيد، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار، فنشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربية[١].

❁ ❁ ❁

مثل على إدارة جيدة:

قلت لمستشار الزراعة السيد آشار[٢]، وكان يؤكد لي أنه يغار على مصلحة الفلاح، إن الهمة التي بذلها السيد جميل الدهان ـ متصرف حمص ـ في تشجير اللواء من أعظم ما عهد لرجل من رجال إدارتنا، فأجاب: لا تصدق ما يروى، هذا عمل مسطور على الورق فقط.

فقلت له: إني رأيت بعيني الشجر نامياً ونضراً، ودخلت الغابات الجديدة وفحصتها فحصاً دقيقاً. ولعل حكم المستشار نشأ من أن المتصرف أحسن التصرف باتكاله على نفسه أكثر من اتكاله على الحكومة المنتدبة، انتفع منها ما استطاع أن ينتفع، وراح يحث قومه على ابتياع الغراس بجلبها لهم من الأصقاع التي تجود فيها، وما استعان بحكومته الوطنية إلا في بعض الأحوال التي لابد من مراعاتها.

كانت عمالة حمص قبل أن يقوم هذا العامل بمشروعه تعمي عيون أهلها من الغبار طوال أيام الربيع والصيف والخريف، ولا يجدون حطباً يحتطبونه لطبخهم وخبزهم ودفئهم، فيعمدون إلى روث البهائم يجمعونه بأيديهم ويجففونه ويسمونه «الجلة» وبه يوقدون وبه يستدفئون، فلما جاءت هذه الغابات كان لهم منها وقاية

---

(١) المذكرات: ١/ ١٣٦.

وهذه التزكية لفيصل بن الحسين ليست على هذا الإطلاق الذي أطلقه الأستاذ كرد علي؛ إذ لا ننسى أنه وأباه خدعهما الإنجليز، ووعداهما الوعود المعسولة حتى ثارا على الدولة العثمانية، وحطما الخط الحديدي الحجازي، وأعلنا أنهما مع الإنجليز في الحرب إلى آخر تلك المخازي.

(٢) وهو فرنسي.

لصحتهم وغذاء لأجسامهم وانتفعوا بثمرها وحطبها، ثم إنهم اقتصدوا من روث الحيوانات فجعلوا منه سماداً زاد في خصب أراضيهم، وقد بلغ عدد الأشجار المغروسة في مائتين وخمسين قرية ملايين. خصت الأراضي البعلية[١] بالزيتون والفستق واللوز والتين والرمان والكرم، واقتصرت أراضي السقي على الجوز والمشمش والتفاح والخوخ والسفرجل والدراق.

هذا ما تم على أيدي المتصرف المجتهد في ثلاث عشرة سنة، وكنت إذا أثنيت عليه أمام بعض رجال الإدارة يمتعضون من تصريحي، ويحاولون تقليل قيمة عمله، شأن الخامل عند ذكر العامل، والجاهل إذا نوى كيد العالم. وما كنت أقصد ـ وكلامي يومئذٍ مسموع لأن عليه مسحة رسمية ـ إلا أن أبعث هممهم على حث الأهلين على التشجير حتى نبني ثروتنا على أساس متين وندخل إلى الغنى من أبوابه[٢].

❊ ❊ ❊

(١) أي: التي تُسقى بالمطر.

(٢) المذكرات: ٣/٩٥٧ ـ ٩٥٨.

المبحث الثاني عشر:

متفـرقـات

أورد الأستاذ كرد علي بعض الأبحاث التي لا يجمعها جامع محدد، أو أنها موجزة لا ينبغي أن يفرد لها مبحث محدد كما صنعت بغيرها، فلذلك أوردها ها هنا، وفيها:

١ـ حال أهل الحجاز قبل ما هم فيه الآن من نعمة.

٢ـ الماسونية.

٣ـ اليهود في فلسطين.

٤ـ حكومة شرقي الأردن.

٥ـ دمشق.

٦ـ الإسماعيليون.

❁ ❁ ❁

١ ـ حال اهل الحجاز قبل ما هم فيه الآن من نعمة[١]:

زار الأستاذ محمد كرد علي المدينة النبوية المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ راكباً القطار، ورأى من فقر أهل الحجاز وأحوالهم الاجتماعية ما سطّره متعجباً، وإليك مقاله:

«إن المرء لتحدثه نفسه ـ وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق إلى

(١) أوردت هذا المبحث وليس له كبير تعلق بالكتاب، لكني قدرت أهميته لاتصال أهل الحجاز بالشام، ولتذكيرهم بنعمة الله تعالى عليهم.

المدينة ـ كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الأودية والتلول والجبال والحرات والبرقات في ثلاثين يوماً على الجمال والبغال والخيل، ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة أيام كان حرياً بأن يهلك وهو على ظهور المطايا أو في المحفات والهوادج والمحارات ثلاثين يوماً يضاف إليها عشرة أخرى من المدينة إلى مكة، ولكن هي العادة تسهل الأشياء، والتعب ينال الراكب في الأيام الأولى ثم يدمن ويمرن.

ومن آسف ما رأيناه في الخط الحديدي ولا سيما بعد بلاد الشام أن الأولاد والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به أكف الراكبين من الخبز والإدام يلتهمونه التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس الحجاز أبدانهم، وإنك إذا أعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون بكسرات من الخبز القفار، فكأن القفار لا ينفع فيها إلا الخبز القفار. وعندنا أن أعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية أن يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الخبز والإدام يوزعونه في المحطات على هؤلاء المحاويج المدقعين وذلك ريثما تصح عزيمة ولاة الأمر على تهيئة أسباب المعاش لهم.

ليس من الرأي السديد أن يعلم شعب أو أكثره على الشحاذة بل أن يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن أرضاً لم تشفق عليها سماؤها[١] حرية بأن يكون لأبنائها عناية من حكومتها؛ فإن معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات منبعث عن جوع مذيب والجوع كافر، يساق الغازون إلى الموت أو ينالون ما يتبلغون به لسد رمقهم، وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الأنحاء ما هو العجب العجاب.

ولا يستهان بعدد السكان؛ فإن جهينة وبلي والحويطات لا تقل عن سبعين ألف

(١) أي: لم تمطر.

رجل، وأكبر قبائل المدينة حرب وهي خمسون ألفاً، ففي الوجه وينبع والعلا والعقبة من أعمال المدينة مائتا ألف محارب ـ كما قدر بعض العارفين ـ وقد أنشأت الدولة العثمانية من العلا إلى المدينة اثنتي عشرة ثكنة أنفقت عليها ١٨٤ ألف دينار عثماني ليستتب بها الأمن.

وقوت العرب كلهم الأرز الهندي والدقيق والتمر واللبن والأقِط، ومع كل ما في هذا القطر من الفقر تصدر منه بعض الحاصلات كالجلد والصمغ والتمر والأغنام والجمال والخيل والصوف والسمن.

ولو مد الخط الحجازي إلى مكة فالبحر الأحمر، ومن مكة إلى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام ووارداتها، وأمن الناس ولا سيما الحجاج من تعدي البدو بين الحرمين.

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والأوقاف ورواتب الحكومة، وربما غالى بعضهم في هذا الاتكال، ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لا تروج إلا أياماً مخصوصة من السنة في موسم الحج، وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين الضئيل ريعها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء، ثم إن العلوم التي تبعث الهمم على الأعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم لندرة من يعرفها منهم، وبلادهم لا يدخلها إلا المسلمون وربما كان فيمن يزورونها طبقات راقية ولا سيما الهنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم إلا بقدر ما يزورون أو يجيء الراقون منهم ولا عمل لهم إلا التجرد عن الدنيا لا يخالطون ولا يعاشرون.

لا جرم أن السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق؛ لأن الزوار كثر عددهم على طول السنة، والتجارة دبت فيها روح جديدة في الجملة، والاختلاط بالأمم نبه أفكار سكان طيبة الأصليين إلى قصورهم في ميدان العلم والتعلم.

نقول: السكان الأصليون، وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان، والباقون

شاميون، ومصريون، ونجديون، وعراقيون، وتركيون، وجاويون، ويمانيون، وزنجباريون، وسودانيون، وجزائريون، وتونسيون، ومراكشيون، وسنغاليون، وصينيون، وهنديون، وقفاقاسيون، وطاغستانيون، وجراكسة، وأكراد، وكرجيون، وإيرانيون، وأفغانيون، وبخاريون، وبلوجستانيون، وغيرهم من شعوب الإسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

للمسلمين معرضان دينيان مهمان: أحدهما ـ وهو الأكبر ـ في جبل عرفات كل سنة مرة، والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة، ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وإفريقية وترى فيهما كل السحنات من أبيض وأحمر وأصفر وأسود ممن تفرع من الجنسين الآري والسامي، ولذلك تجد المدينة المنورة أقرب إلى أن تكون برج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها إلى أن تكون عربية وهي بلد النبي العربيّ، وفي صميم ديار العرب. والمدينة بطبيعتها تشبه إحدى مدن الأرياف في مصر؛ لأن نحو ربع سكانها مصريون صعايدة ونصف الربع مغاربة والباقون مجنسون على ما يخمن المخمنون لا على ما يحصي العادون؛ لأن البلاد العثمانية كلها ليس فيها إحصاء يعتمد عليه، بل كثير من أصقاعها ليس له إحصاءٌ بالمرة كالحجاز مثلاً.

كنت نازلاً في الفندق الوحيد الكبير الذي بناه أحد الوطنيين خارج السور بالحجر الأسود طبقات وكلف نحو عشرين ألف ليرة، وهو على قيد غُلوة من سور البلد، أسهر عند بعض الأحباب إلى أول الهزيع الثاني من الليل، ومع أن الحكومة الاتحادية[1] كانت أصحبتني بلا طلب مني بشرطيين يراقبان أعمالي إرهاباً لي، فإن أصحابي كانوا يتكلفون إيصالي إلى النزل كل ليلة خوفاً من اللصوص، أما أنا فكنت

(١) أي: نسبة إلى جمعية الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية التي استولت على مقاليد الحكم في تركيا، وتركت الخليفة صورة لا سلطة له.

أعد الخطب سهلاً مع قطاع السابلة أكثر من الخطب بأولئك اللصوص الطغام في صور حكام، ومن يكتفي بالمال والمتاع ويعفو عن قطع الأعناق لا يسوءك بقدر من يسرق ويقتل، والقتل أنواع ومنه القتل المعنوي الذي ارتكبته عصابات الهول والإرهاب، وبلغت القحة في استعماله حتى في البلد الطاهر، في حين أن من دخله كان آمناً.

تأملت كثيراً في مسجد الرسول أثناء الصلوات وغيرها فما رأيت إلا خشوعاً من جميع من يختلفون إلى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية، فقلت في نفسي ـ وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لا تخرج عن حد التزهيد في العمل والإعراض عن الدنيا كسائر خطب الجوامع في بلاد الإسلام خلافاً لما كانت عليه سنّة السلف الصالح ولكن «لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً» كما قال علي كرم الله وجهه، فوا رحمتاه لغربة الإسلام ـ:

لو أدار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده اليوم، فكما أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ شعاعاً من نور حكمته قلب به العالم، وغير بشريعته الطاهرة الأرجاء، هكذا يحمل دعاة دينه والمؤتمنون على تراثه وسياسة المهتدين بهديه ما تستنير به العقول في هذا المجمع، ويعم ضياءُ سكان الخافقين، وهذا من القوى المهمة التي أضعناها، وكم أضعنا مواهب وقوى.

وأهم خزائن الكتب في المدينة خزانتان: خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها تافهة لا شأن لها، وأكثرها من المشهور، ونظامها وسط.

وأحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء أمهاتها هي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت أفندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد، كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين، كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين، وفي هذه الخزانة من التسهيل من المطالعين

والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بمصر، وما ذلك إلا لكثرة ريعها وإنفاقه في سبله، واختيار القيمين عليها، وإدرار المشاهرات الكافية عليهم[(١)].

وبعد: فإن مسجد الرسول على كثرة عناية ملوك الإسلام بأمره في كل دولة وحكومة ليس من السعة وجودة البنيان بأكثر من جامع السلطان أحمد أو أيا صوفية من جوامع الآستانة[(٢)] وإن يشبههما في طرز بنائهما فهو أقل سعة من جامع الأزهر بالقاهرة والجامع الأموي بدمشق. كان هذا المسجد الشريف والمسلمون قليل عددهم لا يتجاوزون عشرات الألوف، ثم كبره بعض الملوك بحسب ما اقتضت الحال، ولو نظرنا اليوم إلى عدد المسلمين وهم لا يقلون عن ٣٠٠ مليوناً وعدد من يحج ويزور منهم كل سنة لاقتضى لنا أن نجعل سعة الحرم المدني أربعة أضعاف ما هو الآن على الأقل، ونزينه بجميع أسباب المدينة الحديثة التي لا يحرمها الشرع ولا تنم عن إسراف.

قال ابن قتيبة: إن مسجد المدينة كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً بلبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة وبالفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج، ووسعه المهدي سنة ستين ومائة، وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسعه[(٣)].

❁ ❁ ❁

٢ ـ الماسونية

يوم انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية في حزيران ١٩٤٠ واحتل الألمان باريز يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة، واستلم زمام الحكم الماريشال بيتان

---

(١) أي: الرواتب الشهرية.

(٢) أي: إسطنبول.

(٣) «المذكرات»: ٣/ ٧٨٥ ـ ٧٨٩.

رئيساً للدولة بقرار مجلسي الشيوخ والنواب، فحلَّ جميع الأوضاع الديمقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية، ومنها المحافل الماسونية، وقد قرأت في جريدة «كانديد» الصادرة يوم ١٧ تشرين الأول ١٩٤٠ أنه افتتح في باريز معرض ماسوني، عرضت فيه تركة «محفل الشرق الأعظم» «والمحفل الأعظم» الماسونيين في باريز، ومنها مسارج وسيوف من القصدير، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء، ومآزر عملت من جلد الخنزير، ومسجات البنائين و «بطارش» مطرزة رسم وسطها مثلث يلمع فيه نجم «صهيون» وما إلى ذلك من متاع كان يستخدمه أبناء الأرملة عند إدخال شخص جديد، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يجعل فيها المنضم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة إنسان، وردهة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب، وإن النية حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع أرجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف، ويتجلى بها ما في الماسونية من أمور.

وبحل المحافل الماسونية في فرنسا انحلت جميع محافل الشام، وذهاب الأصل يوجب زوال الفرع، وتقاسم الزعماء تركتها ومنها تلك الأشياء التي كانوا يستعملونها. والماسونية حكومة في حكومة، من شأنها إسقاط الأديان، والتدخل بسياسة الأوطان، ولذلك ألغتها ألمانيا وإيطاليا، وحذت حذوهما تركيا وبلغاريا ورومانيا والمجر، فإن كان في الماسونية بعض ما يستحب من التعاليم ففيها أمور مضرة، وكان إدخال الداخلين في محافلها سقياً ورعياً من أضر ما فيها، ولا عبرة بجودة القوانين والعبرة بالأيدي التي تنفذها.

منذ نحو خمس وأربعين سنة، وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونية في مصر والشام[1]، وتُذكر لي المرغبات فيها، والغنائم المتوقعة لي منها، فكنت أقول: إن

(١) ليس هو فقط، بل كانوا يطمعون بإدخال كل المؤثرين من العلماء والمشايخ والساسة والتجار والأذكياء ممن سواهم، وتورط في منظمتهم هذه عدد من الفضلاء وعدد كبير من المأجورين.

هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك، فما شأن المسلمين في الدخول فيها؟ وأنا من طبعي ألا أدخل في مجهول، ولا أسير على غير هدى. ورأيت أناساً انضموا إليها مخلصين فكانت سبب زوال نعمتهم، وكانوا بعد خدمتها سنين من النادمين، وما أفادوا إلا إنقاذ لصوص الموظفين وغيرهم من سلطة القوانين، وأكثر من رأيت ممن شايعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة من طبقة المأمورين.

كل هذا كان يجول في الخاطر، ويصرح به اللسان، ويكتبه القلم، وما كنت أظن، ولا أكثر الماسون هنا يظنون، أن جمعيتهم ـ أيضاً ـ أُلعوبة صهيونية، صرفة لا يهودية فقط، يسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون، ومعنى مجد صهيون: نزع فلسطين العربية من أيدي العرب، وهي ملكهم منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن[١].

❁ ❁ ❁

٣ ـ اليهود في فلسطين:

كتب إليّ هذا العام أحد المستعربين من علماء المشرقيات يقول: والعجب العجاب في كل هذا أن وراء كل هذا التحاسد في الباطن (بين الدول الكبرى) اليد الطولى لليهود الذين انتشروا منذ ألفي سنة في العالم الحضري مثل القمل في البدن الصحيح، وتعلمون كيف ثاروا في القرون الأولى على الروم في فلسطين في الحرب التي حصلت في الخراب الثاني للقدس، وكذا في القرون التالية، والآن هم في أيامنا يملكون في أميركا الذهب والأعمال المالية وفي روسية هم رؤساء كثير من الأشغال العمومية، وكذلك حالهم عندنا ـ وأنتم تعرفون ما يقع في فلسطين ـ لا يجسر وزير ولا مدير جريدة أن يلوم يهودياً في أي عمل عمله، وكذلك وراء البحر المحيط. ومن المعلوم أن أخلاق اليهود

---

(١) «المذكرات»: ٢/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

لكن هل توقفت الماسونية؟ والجواب المعلوم هو أنها لم تتوقف، وزاد نشاطها، وتعددت واجهاتها، وزاد عدد المتورطين فيها بعد قرار الحل الذي ذكره كرد علي، والله المستعان.

في الأكثر فاسدة، وهذا الفساد يحمل عداوة لا رحمة فيها وهم يملكون الجرائد والسينما والمواخير وما يشبهها، حتى في الصين والبرازيل يجلبون الآنسات من الأقطار، كما كانوا يتجرون بالخصيان والجواري في القرون المتوسطة.

ولو نظرنا فيما يكتب هذه الأيام في جرائد بلادنا بشأن المساعدات للبلاد التي افتقرت في الحرب؛ لرأينا أن وراء كل هذا الحرص على الربح الفاحش؛ إذ ليس في قلوب الذين يقدمون هذه المساعدات حبة من كرم الأخلاق، وما غايتهم إلا الربح الزائد، وكل هذا يملأ قلبي باليأس من مستقبل الأمم، وأنا أحمد الله على أني رأيت في شبيبتي العصر الذهبي الذي لا رجاء لعوده إلى أن أرجع إلى حياة أصلح من هذه[1].

٤ ـ حكومة شرقي الأردن:

وفت بريطانيا العظمى للملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الأردن، فعاونته على ضم قسم من الجزء العربي من فلسطين إلى مملكته، بعد أن استولى الصهيونيون على ما أهمهم الاستيلاء عليه من أرض فلسطين لقيام دولة إسرائيل. وقد ساء جامعة الدول العربية أمر هذا الضم، واحتجت على الملك الهاشمي فلم يعبأ باعتراضها. ولو لم يضم هذا الإقليم إلى مملكته لضمته إسرائيل إليها، ومن المتعذر إنشاء مملكة على حيالها من جبال نابلس والخليل وما إليهما لضعف مواردها، وقد عُرف أن الحكومة البريطانية تعاون حكومة شرقي الأردن كل سنة بنحو أربعة ملايين جنيه بالتنفق على جيش صغير وعلى حكومة نظامية.

ولقد نشرت بعض الصحف المصرية صوراً من المفاوضات التي دارت بين الملك عبد الله وحكومة إسرائيل خلال الحرب الفلسطينية الأخيرة، وألقت عليه تبعة الكوارث التي أصابت فلسطين، واستنكرت عمله في الوقت الذي كانت مصر تحارب

(١) «المذكرات»: ٣/ ٧٦١

إسرائيل، وتعتقل الصهيونيين، وتحجز أموالهم، وتنفق الملايين من الجنيهات في حربهم، ويموت المصريون برصاص اليهود.

قالت: وبينما كانت مصر تعمل كل ما في طاقتها لدفع العداء الصهيوني عن فلسطين؛ كان الملك الهاشمي يحرص على تحسين علائقه مع إسرائيل.

أما الإقليم الذي ضم إلى دولة شرقي الأردن فقد أخرج في الانتخابات النيابية عشرين نائباً، كما أخرج الأردن نفسه عشرين مثلهم. وما أظن سكان ضفتي الأردن يصلون إلى ثمانمئة ألف ساكن الآن[1].

٥ ـ دمشق:

قال أحد أرباب المدارك: إن لدمشق طابعاً خاصاً في طبيعتها وروحها ومرافقها لا تشبه المدن الداخلية ولا المدن الساحلية. وهذا الكلام يصدق على هذه العاصمة منذ فتحها العرب المسلمون. وانتقلت دمشق في أيام بني أمية من حاضرة صغيرة إلى عاصمة كبيرة يمتد حكمها مسافة تسعة أشهر في أوربا وإفريقية وآسيا. عاصمة تهوي إليها أفئدة ملايين من الشعوب لا بد أن يكون خلفاؤها قد هيؤوا فيها أسباب الراحة والنعيم لمن ينزلونها، وأصبحت في مئة سنة سيدة المدن والعواصم في الأرض كلها.

وما أقامه الأمويون في دمشق من أعمال العمران، تعذر على السفاح والمنصور من خلفاء العباسيين أن يقضوا عليه كله يوم فتح العباسيين.

وكان الرشيد والمأمون يختلفان إليها في الأحايين، ويعجبان بآثار بني أمية فيها؛ ذلك لأنه كان في فطرة الدمشقيين الاحتفاظ بمصانعهم وعادياتهم على ما تبين من تاريخهم في القرون التالية؛ فإن جامعهم أو جامع بني أمية ـ وهو أعظم جامع في

---

(١) «المذكرات»: ٤/ ١١٥٠.

وقد لقي هذا الملك جزاءه بعد ذلك، وقتل في بيت المقدس، نعوذ بالله من الخذلان.

الإسلام ـ خرب بالحريق والزلازل مرات وأهل دمشق يعيدونه كل مرة إلى سابق حاله، وكذلك المدارس التي أُنشئت من القرن الخامس إلى القرن التاسع، وهي لا تقل عن مئة وخمسين مدرسة لتعليم القرآن، وفقه الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي، عدا الرباطات والخوانق والزوايا والتكايا والمستشفيات ودور الزَّمْنى[1] والمجذمين، وكانت كلها تدار إدارة حسنة، ويدرس فيها أعاظم العلماء، ولها أوقاف دارة، فلما جاء العثمانيون في القرن العاشر أخذ الخراب يدب فيها، ولم يغادروا دمشق إلا وفيها ثلاث مدارس خربة لا غير.

وبقدر ما أحب الدمشقيون أهل الدول الذين رتعوا آمنين في ظلهم كبعض العباسيين والسلجوقيين، وفي مقدمتهم الرشيد والمأمون وطغتكين ونور الدين وصلاح الدين؛ أبغضوا الفاطميين الذين أعماهم التعصب الديني، وعاملوا الدمشقيين بالقسوة والجبروت، وفي أيامهم خربت دمشق وضاحيتها. وكان عهد المماليك خيراً وشراً، خيراً في أيام عقلاء ملوكهم مثل المنصور قلاوون، وشراً في عهد بعض من خلفوه، وتقدموه، حتى إذا جاء الأتراك العثمانيون أصبحت دمشق من أول عهدهم تئن من سوء إدارتهم حتى اضمحلت اضمحلالاً كادت تشبه به قرية كبيرة، فيها جوامع عظيمة، وبقايا هندسة نشأت بفضلها قصور ومصانع في الماضي[2].

وما كانت معاملة الفاتح سليم الأول العثماني دمشق أقل قسوة من معاملة تيمورلنك التتري لها قبل قرن، والأتراك كتيمور وجنكيز وغازان أميل إلى تخريب ما يستولون عليه منهم إلى إعماره، فقد أخذ تيمورلنك من دمشق جميع أرباب الصنائع، وحملهم معه إلى سمرقند. ولما استولى العجم على دمشق قبل الإسلام كان أول ما فكروا فيه أن ساقوا أمامهم أرباب الصناعات نقلوهم إلى فارس، كما حملوا وحمل

---

(١) أي المريضين مرضاً دائماً.

(٢) قلت مراراً: إن في كلام الأستاذ كرد علي عن العثمانيين تعميماً وتجاوزاً واضحين؛ فهو لا يكاد يذكر لهم حسنة واحدة.

الفاتحون ـ ومنهم سليم الأول[1] ـ ما كان في هذه المدينة العظيمة من النفائس والعاديات، وجميع ما يحمل من أنواع الثروة المنقولة.

ومن دواعي خراب دمشق تسلط الأعيان على سياستها في معظم القرون، ولخوف الدولة من ولاتها تسارع أبداً إلى عزلهم؛ حتى لا تحدثهم أنفسهم بالاستقلال. هكذا كان شأن المماليك، وهكذا شأن العثمانيين بعدهم، فالوالي الذي لا يقيم في ولايته أكثر من سنة وأحياناً شهراً أو شهرين يستحيل عليه أن يعرف البلد الذي تقلد حكمه أشهراً قليلة مهما بلغ من ذكائه وتجربته، فضلاً عن أن يفكر في إصلاح يدفع به الظلم ويقيم العدل، والوالي العاطل يشارك الأعيان ومعاول التخريب تشتغل من كل جانب.

ولولا أن في طبيعة الدمشقيين حيوية عجيبة في الصنائع والتجارة لأصبح أهلها بادية لكثرة ما لقوا من الشدائد. ولقد أثبتوا في جميع الأدوار أنهم في صنائعهم آية، وأن الإتقان دأبهم، وصنائعهم منوعة تبدأ من هندسة المباني وتنتهي بالفرش والآنية، وتجارتهم كانت منذ القديم تمتد من الشرق إلى الغرب، وإذا ساعدتهم الأحوال السياسية، ووقفت الحروب حقبة من الزمن ارتاشوا واغتنوا، وإذا اختلت الحال ضنوا بأموالهم، وخزنوها في صناديقهم.

وكانوا إلى أواخر القرن الماضي إذا أمن التاجر شريكه ـ وقد يكون بدوياً نجدياً يسلمه ألوفاً من الدنانير بدون سند، وينتظره أعواماً حتى يتم تجارته على ما يحب، فالثقة كانت على أتمها بين التجار بعضهم مع بعض وبين التجار والمستهلكين. وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغتنى في سنين قليلة هذا إذا كان على استعداد لمعاطاة التجارة، ولاءم جو الأرض التي حلّ فيها صحته وفي الأمثال العامية (أعرج الشام وصل الصين).

---

(١) أي: السلطان العثماني الذي دخل دمشق سنة ٩٢٣ وهزم المماليك.

في قارة إفريقية مستعمرة بريطانية غنية اهتدى إليها الدمشقيون ووافوها متجرين، وكان سبقهم إلى الاتجار فيها جماعة من تجار الإنكليز، فرأى الدماشقة أن البريطانيين كان من عادتهم إذا خرجت البضائع من البحر ضموا عليها خمسين في المئة ربحاً وخمسة في المئة قيمة ما تقرضه الفيران منها في السفن، فارتأى الدمشقيون الاكتفاء أولاً بربح خمسة في المئة، فما عَتم[1] التجار الإنكليز أن عادوا إلى بلادهم، وتركوا الدمشقيين يتجرون في المستعمرة وحدهم، ولهم من ذلك حكايات تدل على صبرهم وحنكتهم.

وكذلك يقال في نسائهم؛ فإن المرأة الدمشقية لا تبالي بالهجرة، هاجرت في عصرنا إلى الهند واليابان والعراق وسائر الدول العربية، وهاجرت إلى أوربا وإلى أميركا، وحيث حلت تظهر شخصيتها، وهي مقتصدة تعنى عناية فائقة بزوجها وبأولادها، وتصرف من وقتها ساعة في عمل الخير، وتتصدق على الفقراء، ولا تخرج عن قواعدها في الاقتصاد وتتجمل أبداً. وإذا ساعدها الحال تتكرم على الضيفان، وإذا تأخرت حال زوجها ـ وهي تشاركه في كل شيء ـ قبضت يدها حتى عن شراء ثوب تتزين به أمام جاراتها وأهلها.

وللدمشقيين والدمشقيات في المهجر روابط متينة ليست لهم إذا كانوا في البلد الذي خرجوا منه، ولذلك تحترمهم الأجانب، ويمتازون على كثير من الشعوب المهاجرة، ومن هؤلاء من يعتمدون عليهم في حل مشاكلهم وتعبيد الطرق أمامهم للاتجار والاغتناء.

وفي الحرب الأخيرة ظهر اقتدار تجار دمشق، وكانوا استعدوا لدخول ميدان المضاربات منذ أكثر من سنة، ولهم أموال أودعوها مصارف الدول الكبرى كالهند وإنكلترا والولايات المتحدة وغيرها؛ فسيطروا على التجارة في قسم عظيم من بلاد

---

(١) أي: ما لبث.

الشرق القريب، واغتنوا اغتناءً ما شاهدوا ولا شاهد أجدادهم بعض بعضه، فلما وضعت الحرب أوزارها هبوا بدافع من وطنيتهم ودينهم يعطون مما كسبوا حق الوطن وحق الله، فأعطوا الدولة أموالاً استعانت بها على الظهور بمظهر دولة عظيمة، وأعطوا حق الله بأن أنشأوا مستشفيات ودور إحسان وعبادة وتعليم، وأنشأوا إلى ذلك معامل على النمط الغربي من كل صنف حتى كادت بعض أراضي غوطة دمشق تشغل بالمعامل والدور التي أنشأوها لنزول العاملين فيها، وأنشأوا من أرباحهم القصور الفخمة، وأدخلوا مدينتهم في طور عاصمة غربية كبرى، ومن زار دمشق اليوم، وكان زارها منذ عشرين سنة لا يكاد يعرفها.

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجاً لطلابه منذ عهد الصحابة إلى يوم الناس هذا، وعلمهم كان الكتاب والسنة، أو علوم القرآن، والفقه، والأصول، والكلام، والحديث، ثم اللغة والأدب، والطب، والتاريخ، والفلك، والرياضيات، والهندسة، وغيرها، وكان المشتغلون بعلوم الشرع والأدب أكثر عدداً من المنصرفين إلى علوم القدماء، أو ما نسميه العلوم العصرية، ومن كان يظن أن دمشق كان فيها إلى أواخر القرن التاسع أربع مدارس طبية ومدرسة هندسة، واشتهر من أبنائها رجال في جميع الفنون، ومنهم من اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية، وهو في الإسلام كلوثيروس في النصرانية.

وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها، والعلاقة بين الحديث والتاريخ معروفة، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها، خرج منها ابن عساكر، وابن خلكان، والذهبي، وابن كثير، وابن أبي أُصيبعة، والصفديّ، وابن فضل الله العمري، وابن القلانسي وغيرهم. وهذان الأخيران كانا من رجال السياسة، ولهما مكانة عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك.

وخرج منها شعراء عظماء كفتيان الشاغوري وابن حيوس وابن عُنَين وأضرابهم،

وما خلا عصر من عصورها من شعراء مجيدين، ومؤرخين محققين، وأطباء ماهرين، ومهندسين بارعين، وقلّ فيهم الفلاسفة كما قلوا في مصر. وما خلت دمشق في كل عصر من رجال قوالين بالحق من علمائها يجرأون على الملوك، ويردونهم إلى صراط الشرع، ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لا يرهق الناس بإسرافهم، ومنهم العز بن عبد السلام والنووي، وكان السلاطين والولاة ترتجف أعصابهم منهما يخشونهما كخشية الله، ولما مات العز بن عبد السلام قال الملك الظاهر بيبرس: الآن ملكت، وفي حياته ما كنت آمن على نفسي لأنه في مكنته أن يخلعني كل ساعة لما له من منزلة في قلوب الناس. وكثير من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتوون في الحق، ومنهم من رضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم مظاهرهم ودنياهم.

وفي العهد الحديث أنشأت دمشق مجمعاً علمياً وجامعة، وأصلحت التعليم بكل فروعه، وأخذت روحها تسري إلى الديار الشامية كما كانت منذ القديم. وقد أصدر مجمعها وجامعتها ورجال التعليم تآليف عظيمة في الفنون المختلفة، ووضعوا ألفاظاً لمصطلحات العلوم، وأدخلوا كتب التدريس في الابتدائي والثانوي في طور جديد لا يقل بمكانته عن كتب مصر. ومن تلاميذ هذه المدارس من تخصص في العلوم أخذوها من فرنسا وسويسرا وبلجيكا وألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة وغيرها، وأنبغت دمشق مئات من الأخصائيين ما كان لهم فيها أثر قبل ثلاثين سنة، وحضانة العلم ثلاثون سنة كما قال نابغتنا عبد الرحمن الكواكبي.

ومن أخلاق الدمشقيين أنهم يستسلمون لرؤسائهم على الأكثر، ويعطفون على الفقير، ويكرمون الغريب، وأحقادهم ضعيفة بالقياس إلى غيرهم من الشعوب، وسرعان ما يقلدون في اقتباس ما يقربهم من الحضارة، ويتأدبون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه، ويحبون الطرب، ويفهمون النكتة، ولهم في باب الهزل يد طولى، ويوم الجد هم ممن يفاخر بهم، ولهم استعداد خاص لتلقف اللغات الغريبة، وهم

شعب أقرب إلى الدين منه إلى الإلحاد، ويعيش أهل الطبقة الوسطى عيشاً قريباً من عيشة أهل الطبقة العليا. والطبقات عندهم ثلاث لا يكاد أحد أبناء طبقة تحدثه نفسه بالتسلق إلى مساواة واحد من طبقة أكبر منه.

والمواطنون على اختلاف أديانهم يتحابون كما يتحاب أهل الدين الواحد، وفي الوطنية كلهم سواء لا تخرج الأقلية عن رأي الأكثرية.

ويعجبني من دمشق أنها تتخيل إلى اليوم أنها في حكم بني أمية مسؤولة عن كل ما يحدث في العالم العربي: إذا نزلت كارثة بمسلمي الصين كانت في مقدمة من يواسيهم، وإن حلّ بلاء بابن مراكش ولم تمد إليه يد المعونة خجلت من قصورها، وهي في الثورة أول من يرفع علمها، وفي السلم الكل في الكل، فإذا كانت الحال تدعو إلى الوحدة السورية ترفع صوتها أول الصارخين، وفي الدعوة إلى الوحدة العربية تنادي أول المنادين، وفي الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي هي أمها وأبوها، وفي كل دعوة جديدة تتقدم لا تتأخر، وتتحمل من الأعباء ما يفوق طاقتها، وتقوم بواجبها وبأكثر من واجبها، كما كان منها في الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين إليها من الفلسطينيين كما تحضن أبناءها وبناتها.

هذه دمشق وأنا عند نفسي أني ما وصفت إلا ما شاهدت، وما حدثت إلا بما علمت، وقلت فيها ما قلت بريئاً من التعصب والعصبية[1].

❁ ❁ ❁

٦ ـ الإسماعيليون وإمامهم:

أهدى الإسماعيليون في الشام زعيمهم آغا خان (وعددهم كما يزعمون يزيد في العالم على عشرة ملايين، والذي عليه العقلاء أنهم لا يتجاوزون المليونين) في عيده

---

(١) «المذكرات»: ٣/ ٨٦٤ ـ ٨٦٩.

الماسي ماسة عظيمة زنتها توازي زنة جسمه[1]، وكان أهدى إليه في عيده الذهبي وزنه ذهباً (٢٥ ألف جنيه ذهباً).

يهدي الإسماعيليون في ديارنا هذه الهدايا العظيمة لزعيم يعد من أغنى أغنياء العالم، وهم في ذاتهم من أفقر فقراء العالم، تفانوا في تمجيده حتى خرجوا على نظام العقل.

وأذكر أن والدة هذا الزعيم زارت سَلَمْيَة مرة ـ وهي قاعدتهم وعشهم[2] ـ فكان الإسماعيليون يُقَبِّلُون الأرض التي وطأتها مركبتها، أما من أسعده الحظ فقبل يدها أو رجلها فقد كتبت له سعادة الدارين.

ربما أنكر ما وقع ويقع بعض خواصهم ممن يخجلون من هذه السخافات، والأمر صحيح لا سبيل إلى إنكاره[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) أظن أن الأستاذ لم تصله المعلومة صحيحة، وأنه ربما أن قيمة الماسة تساوي زنته ذهباً أو شيئاً مثل هذا، أما الماسة فمستحيل. وهذا من العجائب العجيبة التي ابتلينا بها من هؤلاء الشيعة الغالية

(٢) قرية في بلاد الشام معقل الإسماعيلية إلى الآن.

(٣) «المذكرات»: ٢/ ٦٠٠.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة